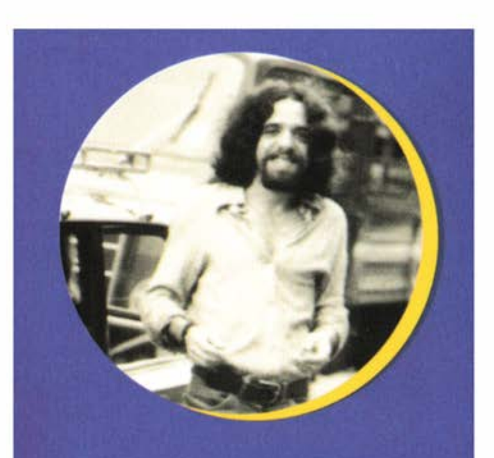
الطبعة العربية الأصلية

پاولو كويلو



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



پاولو كويلو

وُلد سنة ١٩٤٧ في ريو دي جانيرو.
بدأ كاتبًا مسرحيًا ومدير مسرح ومؤلّف أغان للمشاهير، وعاش هيبيًا فترة من الزمن.
أحدثت روايته الثانية «الخيميائي» ضجّة عالمية، وتوّجته الكاتب الأكثر قرّاء وشهرة في العالم.
نُشرت مؤلّفاته في ١٨٠ دولة وتُرجمت إلى ٨١ لغة وبيع منها ما يفوق ٢١٠ ملايين نسخة.
نال جوائز وأوسمة لا تُحصى، وبات يحظى بأكثر نسبة متابعة على مواقع التواصل الاجتماعي.



مكتبة

پاولو كويلو

هيپّي

رواية

ترجمة: رنا الصيفي

تدقيق لغوي: روحي طعمة



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

نُشر في الأصل بالبرتغالية، بعنوان: Hippie
نُشرت هذه الطبعة بالاتفاق مع سانت جوردي وشركاه، برشلونة، أسبانيا بوكالتهم عن باولو كويلو
Blog باولو كويلو: http://paulocoelhoblog.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.
ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.
الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+
email: publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٨
ISBN: 978-9953-88-999-3

تصميم الغلاف: ريتا كلزي

الخريطة صفحة ١٢٠-١٢١: © Christina Oiticica

الإخراج الفني: فدوى قطيش

مقدمة الكاتب لسلسلة

رواياته الصادرة بالعربية

إن إحدى أقدم الطرائق التقليدية، التي اعتمدها الإنسان لنقل معرفة جيله، كانت القصص والروايات. وفي ما يتعلق بي، كانت الثقافة العربية إلى جانبي خلال معظم أيام حياتي، تبيّن لي أمورًا لم يستطع العالم، الذي أعيش فيه، أن يفقه معناها. واليوم، أستطيع للمرة الأولى، أن أردّ على المكرمة بمثلها، وأنا أرقب كتبي تنشرها «شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ـ لبنان»، في المنطقة نفسها التي كثيرًا ما أثارت مخيّلتي. وإنّني مُمتنّ للناشر السيد تحسين الخياط لما أبداه من حماس لجعل أعمالي في متناول قرّاء العربية، من خلال ترجمتها، ترجمة اتّسمت بالجديّة، بعد حصوله مني، وفقًا للأصول المعتمدة، على حقوق النشر.

وأودّ أخيرًا، أن أتوجه بالشكر إلى الوكيلة ـ المشاركة والصديقة، سوزان ناصيف، التي جعلت بحماسها، هذا الحلم ممكنًا، ذلك أنني ما كنت، من دونها، لأستطيع إشراك هؤلاء الناس، الذين أحمل لهم الإعجاب الشديد، بمكنونات قلبي.

پاولو كويلو

«يا مريم البريئة من الخطيئة الأصليّة، صلّي لأجلنا نحن الملتجئين إليكِ».

آمين

مكتبة

فَقِيلَ لَهُ: «أُمُّكَ وَإخوَتُكَ واقِفُونَ خارِجاً، وَهُمْ يُرِيدُونَ أنْ يَرَوكَ».
فَأجابَهُمْ يَسُوعُ: «أُمِّي وَإخوَتِي هُمُ الَّذِينَ يَسمَعُونَ كَلامَ اللهِ وَيُطِيعُونَهُ».

(لوقا ٨، ٢٠، ٢١)

خِلتُ أنّ رحلتي انتهتْ، وقد استنزفتُ كل طاقتي،
أنّ الدربَ أمامي مسدودةٌ،
أنّ مؤني نفدتْ،
وأنّ الأوانَ آنَ لألتجئَ إلى صمتِ الظلام.
وإذْ بي أكتشفُ أنّ إرادتي لا تعرفُ حدودًا،
وأنّ كلماتي العتيقة متى تعطّلت على لساني،
انبثقت ألحانٌ جديدة من قلبي،
وأنّ السُبُلَ القديمة متى فُقِدَت،
تجلّت بلادٌ جديدة بكلّ عجائبها.

روبندرنات طاغور
«قرابين الغناء»

مكتبة

إلى كبير، الرومي، طاغور، القديس بولس الطرسوسي، حافظ،

أنتم الذين رافقتموني مُذ اكتشفتكم،

أنتم الذين خَطَطْتم جزءًا من قصّة حياتي،

أنتم الذين أروي في هذا الكتاب، بكلماتكم في الغالب.

الرواية التالية نابعة من تجاربي الشخصيّة. عدّلتُ أحيانًا ترتيب الأحداث وأسماء الأشخاص وبعض تفاصيلهم. وكان عليّ أن أوجِز بعض المشاهد، لكن ما يلي حقيقيّ برمّته. آثرتُ استعمال ضمير الغائب للشخصيّات كلّها، مانحًا إياها أصواتًا استثنائيّة تصف حياتها.

هيپّي

في أيلول من العام ١٩٧٠، تنازع مكانان على مركز العالم، وهما ميدان «البيكاديللي» في لندن، وساحة السدّ «دام» في أمستردام. لكن لم يكن الجميع يدركون ذلك. إن أغلب مَن سئلوا أجابوا: «البيت الأبيض» في الولايات المتّحدة الأميركيّة أو «الكرملين» في الاتّحاد السوفيتي، فهؤلاء كانوا يستقون معلوماتهم من الصحف والتلفاز والراديو، وسائل التواصل هذه التي عفا عليها الزمن كليًا، ولن تستعيد يومًا وجاهة بداياتها.

في أيلول من العام ١٩٧٠، كانت أسعار تذاكر السفر باهظة جدًا، ما عنى أنّ السفر كان حكرًا على النخبة. لكن، وإلى حدٍ ما... كان جمع غفير من الشباب أيضًا يسافرون، هم الذين لم تلتقط وسائل التواصل القديمة منهم سوى مظهرهم: سوى أنّهم تميّزوا بشعر طويل وثياب مزركشة الألوان، وأنّهم لا يستحمّون (وهذا قولٌ زور. لكنّ الناشئة لم يكونوا من مطالعي الصحف، أما الراشدون فكانوا يصدّقون أيّ نبأ من شأنه تشويه سمعة «مهددي المجتمع والآداب العامّة»). هم شكّلوا خطرًا على جيلٍ كامل، جيل مجتهد وراغب في النجاح في الحياة، بسبب قدواتهم التحرُّرية السيّئة و«الحبّ الحرّ» كما كان يروق لـمُحقّريهم تسميته بازدراء. وهذا الجمع الغفير من اليافعين، الذي تعاظم عدده يومًا إثرَ يوم، تناقل المعلومات عبر نظامٍ لـم يفلح أحد قط في تقفّيه.

لكن قلّما اكترث «البريد الخَفي» لترويج الطراز الأحدث من فولسفاغن

او مساحيق الغسيل التي ضجّ بها العالم أجمع في حينه. قَصَرَ في الواقع أخباره على الطريق الكبرى التالية التي سيكتشفها هؤلاء الشباب العُزّل القذرون الذين مارسوا «الحب الحرّ» واعتمدوا من اللباس ما خَدَشَ حياء أصحاب الذوق الرفيع. بالزهر غطّت الفتيات شعورهنّ المجدولة وارتدين تنانير طويلة وبلوزات ملوّنة، وتخلّين عن حمّالات الصدر وازدنَ بعقودٍ من اللؤلؤ الملوّن، وأطال الفتيان لحاهم وشعورهم وارتدوا بنطلونات الجينز، باهتة ورثّة لفرط ارتدائها، لأنّ الجينز كان باهظًا أينما كان في العالم، باستثناء الولايات المتّحدة الأميركيّة حيث خرج هذا اللباس من أحياء غيتّو عمّال المصانع، وراج ارتداؤه في الحفلات الموسيقيّة في سان فرانسيسكو وضواحيها.

وإن وُجِدَ «البريد الخَفي»، فبسبب الاحتشاد الدائم لأولئك الشباب في الحفلات الموسيقيّة، حيث تبادلوا الأفكار بشأن وجهتهم التالية وطُرق استكشاف العالم من دون أن يُضطرّوا إلى ركوب أحد تلك الباصات السياحيّة، حيث المُرشِد يصف المناظر ويضجر اليافعون ويغفو المُسِنّون. وهكذا، بالتداول الشِفهي، عرفوا جميعًا مكان الحفل الموسيقيّ التالي الذي سيرتادونه، أو الطريق الكبرى التالية التي سيسلكونها. لم يكن المال عائقًا لأحد، لأنّ الكاتب المفضّل لدى هذه الثلّة لم يكن أفلاطون ولا أرسطو، ولا فنان شهير يصدر المجلاّت الهزليّة. كان الكتاب الذي رافق كلّاً منهم تقريبًا يتناول «القارّة العجوز»، وكان عنوانه «أوروبا بخمسة دولارات في اليوم» من تأليف آرثر فرومر. يرد فيه، أين يمكنك أن تنزل وأين تأكل وماذا ترى، وأماكن الملتقى، وأماكن الاستماع إلى الموسيقا الحيّة بالمجّان تقريبًا.

كان خطأ فرومر الوحيد أنّه حَصَرَ دليله بأوروبا. ألم يكن ثمّة أماكن أخرى مشوّقة؟ أولم ينزع الناس إلى ارتياد الهند بدلاً من باريس؟

سدّ فرومر هذه الثغرة بعد سنوات. في أثناء ذلك، أخذ «البريد الخفي» على عاتقه تأمين طريقٍ عبر أميركا الجنوبيّة إلى مدينة «ماتشو بيتشو» القديمة المفقودة، مُحذّرًا مع ذلك الجميع من عدم الحديث عنها إلى الخارجين على الثقافة الهيبّية، لئلا تجتاح المكان سريعًا موجة من البرابرة المدجّجين بآلات تصوير وبشروح مستفيضة (سرعان ما تُنسى) كيف أنّ مجموعة من الهنود أقاموا مدينة مخبّأة لا يُمكن إيجادها إلّا من السماء، الأمر الذي اعتبروه مُستحيلاً، لأنّ البشر يعجزون عن الطيران.

ومن باب الدقّة، كان ثمّة عمل ضخم ثانٍ من الأعمال الأكثر مبيعًا، وإن لم يكن على قَدْرِ شهرة كتاب فرومر، لكنّه لاقى صدىً كبيرًا لدى من عرفوا زمن الاشتراكيّة والماركسيّة واللاسلطوية، التي أدّت جميعها إلى خيبة سحيقة من هذه التيارات التي ابتكرها أفرادٌ طالبوا «بحتميّة استيلاء الطبقة العاملة على السلطة في العالم أجمع»، أو «الدين أفيون الشعب»، وهي جملة سخيفة أثبتت أنّ قائلها لم يكن يفقه شيئًا عن الشعب ولا عن الأفيون. فهؤلاء الشباب ذوو الثياب الرثة آمنوا، من بين أمور أخرى، بالله والآلهة والآلهات الملائكة وأشياء من هذا القبيل. كانت المشكلة الوحيدة أنّ ذلك الكتاب، وعنوانه «صباح السحرة»، الذي كتبه الفرنسي لويه باويلز، والسوفيتي جاك بيرجييه، وكان عالم رياضيات وجاسوسًا سابقًا، وباحثًا لا يكلّ في شؤون القوى الخفيّة، كان نقيض المؤلّفات السياسيّة، إذ قال إنّ العالَمَ قائمٌ على غوامض أخّاذة، إنّ فيه خيميائيين وسحرة وكاثاريين وفرسان هيكل. وحال محتواه والألغاز التي تضمّنها دون حصاده رواجًا كبيرًا في المكتبات. فقد تناوب على نسخة واحدة منه عشرة أشخاص على الأقلّ بالنظر إلى ثمنه الباهظ. وبما أنّه تناول «ماتشو بيتشو»، أراد الجميع الذهاب إلى البيرو. أمّها شباب من العالم أجمع (لكن لا، أن نقول من العالم

أجمع قول مبالغ فيه، فلم يكن بمقدور من عاش في الاتّحاد السوفيتي مثلًا مغادرته بسهولة).

فلنرجع الآن إلى موضوعنا: شبابٌ من العالم أجمع، ممن كان بمقدورهم على الأقل نيل تلك المِلكيّة التي لا تُقدّر بثمن المسمّاة «جواز سفر»، التقوا على الطرقات الهيبّية الشهيرة. لم يعرف أحد المعنى الدقيق لكلمة «هيبّي»، وقلّما كان هذا مهمًا. ربما عنت «قبيلةً كبيرة بلا زعيم» أو «منحرفين لا يسرقون» أو حتّى كلّ التوصيفات الآنفة في هذا الفصل.

وجوازات السفر، تلك الدفاتر الصغيرة التي تُصدرها الحكومة، والتي كانت تُحفظ بعناية في محفظة شُدّت بحزام إلى جانب المال (وقلّما كان هذا مهمًا إن كان قليلاً أو كثيرًا)، كانت لها غايتان، الأولى كما هو معلوم منّا جميعًا، أنّها تُجيز عبور الحدود، عندما لا ينساق الحرّاس الجمركيّون إلى ما تقوله الصحف، ولا يردّون حامل الجواز بسبب ملابسه وشعره وأزهاره وعقوده ولآلئه وابتساماته التي تبدو أنّها ناجمة عن حالة من النشوة المستمرّة، عزتها الصحافة بشكل عام ومجحف إلى المخدّرات الشيطانيّة التي كان هؤلاء الناشئة يتناولونها باطّراد. والوظيفة الثانية لجواز السفر كانت نجدة حامله في الحالات القصوى، متى أمسى خالي الوِفاض ولم يعد لديه مَن يلتجىء إليه. كان «البريد الخَفي» متوافرًا دومًا للإشارة إلى أماكن بيع الدفتر الصغير. وتفاوَت سعره بحسب البلد: جواز سفر من السويد، حيث الجميع يتصفون بطول القامة والشقار والعيون الفاتحة، لم يكن باهظًا. فلا يمكن إعادة بيعه إلا لمن كان طويل القامة وأشقر وفاتح العينين، وهي مواصفات لم تكن مرغوبة في العموم. أما

جواز السفر البرازيلي، فكان يساوي ثروة في السوق السوداء. ففي البرازيل، بالإضافة إلى طوال القامة الشقر الفاتحي العينين، وُجِدَ أيضًا القصار إلى جانب الطوال، وذوو البشرة السوداء والعيون الداكنة، والآسيون بعيونهم المزمومة، والخلاسيون، والهنود، والعرب، واليهود... باختصار، كانوا خليطًا ثقافيًا هائلًا جعل من وثيقة الهويّة هذه الأكثر طلبًا على الكوكب.

ومتى بيع الجواز، توجّه صاحبه الأساسي إلى قنصليّة بلده وروى، متقنّعًا بالهلع والأسى، أمر تعرّضه للاعتداء وسرقة كلّ ما بحوزته وتَركِه بلا مال ولا جواز. كانت قنصليات البلاد الأثرى تزوّدهم بجواز سفر وتذكرة عودة مجانًا، تذكرة كان المتظلّم يرفضها، ويتذرّع قائلاً «أحدهم يُدين لي بمبلغ لا يستهان به من المال، عليّ تحصيله أولاً قبل أن أذهب». أما قنصليّات البلدان الأفقر، الخاضعة عمومًا لأنظمة متشدّدة بأيدي العسكريين، فكانت تُجري تحقيقًا جدّيًا لتعرف إن كان مقدّم الطلب مدرجًا على لائحة الإرهابيين المطلوبين بتهمة الانقلاب. وبعد أن تَخْلَصَ إلى أنّ السجلَ العدلي للشابّة أو الشاب نظيف، كانت تُجبَر رغمًا عنها على تزويدهما بوثيقة جديدة. في المقابل، لم توفّر لهما قط تذاكر عودة، فلا مصلحة لها في أن تُعيد إلى بلدها هؤلاء المهملين الذين هدّدوا بالتأثير في جيل بكامله، تربّى على احترام الله والعائلة والـمُلك.

فلنرجع إلى الطرقات: في المرتبة الثانية بعد «ماتشو بيتشو» حلّت «تياواناكو» في بوليفيا، تلتها «لاسا» في التيبت التي تعسّر دخولها. فبحسب «البريد الخفي» قامت حربٌ بين الرهبان والعساكر الحمر الصينيين. كان من الصعب تصوّر هذه الواقعة. ومع ذلك، أخذها الكلّ على محمل الجدّ،

ولـم يكن أحدٌ ليجازف بالسفر إلى ما لا نهاية، ليقع أخيرًا سجين الرهبان أو الجنود. غير أنّ آخر كبار فلاسفة ذاك العصر، أي فرقة البيتلز، التي تفرّق أعضاؤها في نيسان من ذاك العام، كانوا قد أعلنوا قبل فترة وجيزة أنّ الهند مرتع حكمة الكون العظمى. كان ذلك كافيًا لاستقطاب الشباب من العالم أجمع، سعيًا إلى الحكمة والمعرفة والمعلّمين الروحيين ونذور الفَقر والتنوير ولقاء My Sweet Lord.

لكن، «البريد الخفي» أشاع أنّ المعلّم الروحي الكبير للبيتلز، ماهاريشي ماهيش يوغي، حاول مضاجعة ميا فارّو. خبرت هذه الممثّلة خيبات عاطفيّة على مرّ السنين، وذهبت إلى الهند بدعوة من الفرقة، وربّما ذهبت من أجل أن تُشفى من صدمات عاطفيّة جنسيّة لديها بدت أنّها تلاحقها كالكارما السيّئة.

غير أنّ كلّ الإشارات دلّت على أنّ كارما ميا فارّو رافقتها، كذلك رافقها جون وبول وجورج ورينغو. بحسب أقوالها، كانت بصدد التأمّل في مغارة المعلّم الروحي الكبير، عندما أمسك بها وحاول إرغامها على مضاجعته. آنذاك، كان رينغو قد عاد إلى إنكلترا، إذ كرهت زوجته الطعام الهندي، وغادر بول أيضًا المعتَكَف، مقتنعًا بأنّ لا طائل منه. وحدهما جورج وجون بقيا في معبد ماهاريشي عندما جاءتهما ميا، باكيةً، وروت لهما ما حدث. وضّبا أمتعتهما للتوّ، وعندما حضر المنوَّر وسألهما عمّا يجري، أجابه لينون بنبرة فظّة:

ـ لو كنت مُنوّرًا فعلاً يا ابن الزانية، لعرفت تمامًا ما الأمر!.

لكن، في أيلول من العام ١٩٧٠، سيطرت النساء على العالم، أو بالتحديد،

الشابات الهيبيات هنّ من سيطرن على العالم. خضع الرجال لهنّ، وعرفوا تمام المعرفة أنّ آخر الصيحات لم تكن السبيل إلى إغوائهنّ، فقد تفوّقن عليهم في ذلك، فركنوا نهائيًا إلى التسليم بالواقع، بأنّهم كانوا في حاجة إليهنّ. واتّشحوا باللهفة وكأنّهم يتوسّلون: «احمني أرجوك، أنا وحيد، ولا يسعني التعرّف إلى أحد، أظنّ أنّ العالم قد تخلّى عنّي وأنّ الحبّ هجرني إلى الأبد». اختارت النسوة ذكورهنّ من دون التفكير، ولو ثانية في الزواج، بل في مجرّد الاستمتاع بالجنس المتّقد والعارم. كانت الكلمة الفصل لهنّ دومًا، سواء بشأن موضوعات مهمّة، أو أمور سطحيّة وكماليّة. لذا، عندما نشر «البريد الخفي» خبر الاعتداء الجنسي الذي تعرّضت له ميا فارّو والجملة التي قذف بها لينون، حوّلت النساء وجهتهنّ.

اكتُشفت طريق هيبية أخرى: طريق أمستردام في هولندا إلى كاتماندو في نيبال على متن باص كانت تكلفة تذكرته مئة دولار تقريبًا، عبَرَ بلدانًا لا بُدّ أنها كانت مشوّقة فعلاً: مثل تركيا، لبنان، العراق، إيران، أفغانستان، باكستان، وجزء من الهند (كان، في المناسبة، بعيدًا كلّ البعد عن معبد ماهاريشي). استغرقت الرحلة ثلاثة أسابيع، وقطع الباص خلالها عددًا لا يحصى من الكيلومترات.

كانت كارلا تجلس في ساحة السدّ «دام»، تسأل نفسها: متى سيأتي من سيرافقني في هذه المغامرة الساحرة؟ (في رأيها طبعًا). كانت قد تركت مركز عملها في روتردام الذي لم يكن يبعد سوى مسافة ساعة في القطار. غير أنّها جاءت تتنقّل مستوقفة السيّارات العابرة، بهدف أن تدّخر قدر ما تستطيع، فاستغرقت رحلتها قرابة نهار. كانت قد علمت بباص يقصد نيبال، من إحدى الصحف البديلة التي أسّسها، بالكد والحب والعمل، أشخاص كانوا على قناعة بأنّ ثمّة ما يقولونه للعالم، وباعوها بالتالي بسعر زهيد.

بعد انتظار قرابة أسبوع، بدأت تفقد أعصابها. كانت قد قاربت جملةً من الفتيان من بلدان مختلفة، اقتصر طموحهم على المكوث هنا، في هذه الساحة التي تخلو من أيّ جاذب، باستثناء تمثال على شكل عضو ذكري كان لا بُدّ على الأقلّ أن يستثير ذكورتهم وشجاعتهم. لكن لا: لا أحد من منهم كان مستعدًا للذهاب إلى بلاد على هذا القَدْر من الغموض.

لم تكن المسألة مسألة مسافة: فقد جاء أغلبهم من الولايات المتّحدة، من أميركا اللاتينيّة، من أستراليا، أو من بلاد قصيّة أخرى، ما حتّم إنفاق مبلغ جمّ من المال لشراء تذاكر الطائرات، والمرور بكثير من النقاط الحدوديّة حيث يحتمل إرجاعهم إلى بلدانهم، من دون أن يكونوا قد تعرّفوا إحدى عاصمتَي العالم حتّى. ومتى حطّوا رحالهم هناك، جلسوا في تلك الساحة الباهتة، دخّنوا الماريوانا، استمتعوا بقدرتهم على تدخينها على مرأى من

أفراد الشرطة، لتفترسهم من ثمّ الجماعات والمذاهب الدينيّة التي فاضت بها المدينة. نسَوا، لبعض الوقت على الأقلّ، ما كانوا يسمعونه طوال حياتهم: «بُني، عليك بارتياد الجامعة، بقصّ شعرك، لا تجلب العار على والديك وإلاّ سيقول الناس (أي ناس؟) إنّنا أسأنا تربيتك، مهما يكن ما تستمع إليه، فهو ليس موسيقا، حان الوقت لتجد عملاً، انظر إلى أخيك، الأصغر الذي يُنفق ماله الخاص ليفعل ما يستمتع به، من دون أن يطلب إلينا شيئًا».

أصبحوا الآن أحرارًا بعيدًا عن نواح أسَرهم اللامتناهي، وكانت أوروبا مكانًا آمنًا (شرط ألا تُغامر طبعًا في اجتياز الستار الحديدي الشهير بهدف «غزو» بلاد شيوعيّة ما)، وكانوا سعداء، لأنّ السفر يعلّم كلّ ما يلزم مدى الحياة، ماداموا غير مضطّرين إلى تبرير ذلك لأهاليهم.

«أبي، أعرف أنّك تريدني أن أحوز شهادة دبلوم، لكن أستطيع ذلك متى أردت أنا، الآن، فأنا بحاجة إلى خوض التجارب».

لم يكن بوسع أيّ أبٍ فهم ذاك المنطق. وما كان منهم سوى ادّخار بعض المال وبيع أغراضهم، والتسلّل هربًا من المنزل، حين يكون أفراد الأسرة نِيامًا.

لذا، كانت كارلا محاطة بأشخاص أحرار وعازمين على خوض تجارب لم يتحلَّ أغلب الناس بالشجاعة لخوضها. لكن، ما المانع إذن من الذهاب إلى كاتماندو بالباص؟

أجابوا: لأنّها ليست أوروبا. نجهل تمامًا ما هي عليه الأمور هناك. إن وقع مكروه، يمكننا أن نقصد القنصليّة، ونطلب ترحيلنا (لم تسمع كارلا بحدوث ذلك ولو مرّة، لكن سرت الأسطورة أنّ حدوثه محتمل، والأسطورة بفعل تكرارها تتحوّل في النهاية إلى حقيقة).

بعد خمسة أيام على انتظار من ستعيّنه «رفيق الدرب»، أناخ بها اليأس. فقد أنفقت مالاً لتبيت في نُزُل، بدل أن تكون آنذاك نائمة ببساطة في «الباص السحريّ» (كان هذا الاسم الرسمي للباص الذي يبلغ ثمن تذكرته مئة دولار أميركي، والذي عبر آلاف الكيلومترات). قرّرت أن تدخل مقصورة عرّافة تعوّدت أن تقصدها قبل التوجّه إلى ساحة «دام». كانت المقصورة فارغة كالعادة، ففي أيلول من العام ١٩٧٠، كان الجميع يمتلكون قدرات خارقة أو كانوا في صدد تنميتها. لكنّ كارلا كانت امرأة عمليّة، ومع أنّها كانت تُمارس التأمّل يوميًا، وكانت على قناعة بأنّها قد بدأت تفتح عينها الثالثة (وهي نقطة لامرئيّة بين العينين)، فإنها لم تلتقِ حتّى الآن إلاّ من لم يُخلق لها من الرجال، حتّى حين طمأنها حدسها بأنّهم كانوا مناسبين.

قرّرت إذن أن تلجأ إلى هذه العرّافة، خصوصًا وأنّ هذا الانتظار اللامتناهي (مرّ أسبوع تقريبًا وكأنّه أبديّة!) جعلها تفكّر في الذهاب برفقة امرأة أخرى. لكن أن تسافر امرأتان وحدهما عبر بلدان عدّة كان مرادفًا للانتحار، حيث، في أفضل الأحوال، سيُنظر إليهما نظرة دونية، وفي أسوأ الأحوال، إن صَدَقَت جدّتها، ستُباعان «أَمَتَيْن بيضاوين» (حملت الكلمة في نظرها معنى جنسيًا لكنّها لم تكن على استعداد للمجازفة بجسمها لكي تجرّبها).

كانت العرّافة، واسمها ليلى، أكبر سنًّا قليلاً منها، وكانت ترتدي لباسًا أبيض. استقبلتها بابتسامة هانئة كتلك التي يرسمها مَن هم على تواصل مع كيان أسمى على محيّاهم، وبانحناءة احترام (من المؤكّد أنّها أسرّت لنفسها: سأجني أخيرًا ما يعادل أجرة مقصورتي في اليوم). طلبت إلى

كارلا أن تجلس، ففعلت، وأثنت على اختيارها الجلوس في بؤرة الطاقة في المقصورة. ادّعت كارلا ضمنيًا أنّها نجحت في فتح العين الثالثة، غير أنّ لاوعيها حذّرها. فلا بُدّ أنّ ليلى تقول ذلك للجميع، أو بالأحرى للقلائل الذين يدخلون مقصورتها.

في أيّ حال، لا أهمّية لذلك الآن. أشعلت العرّافة عود بخور، وقالت «إنّه يأتي من نيبال»، غير أنّ كارلا كانت تعلم بأنّه يُصنّع في مكان قريب. كان البخّور إحدى الصناعات الهيبية الكبرى، إلى جانب العقود، وقمصان الباتيك، والرُقَع التي لها رمز السلام أو الأزهار أو عبارة Flower Power لإخاطتها على الملابس. تناولت ليلى ورق اللعب وراحت تخلطه. طلبت إلى كارلا أن تشطر الورق نصفين، فردّت من ثمّ ثلاث أوراقٍ إلى الطاولة، ونطقت بأكثر التأويلات تقليديّة. قاطعتها قائلة:

ـ لم آتِ لهذا الشأن. أودّ فقط أن أعرف إن كنتُ سأجد مَن يرافقني إلى المكان الذي قلتِ... (شدّدت جيدًا على كلماتها الأخيرة، لأنّها لم ترغب في استحضار كارما سيّئة، فلو أنّها قالت «أريد الذهاب إلى المكان نفسه»، لوجدت نفسها على الأرجح في مصنع بضواحي أمستردام، حيث يُصنّع البخّور فعلًا)... إنه مصدر البخّور».

ابتسمت ليلى، رغم تغيُّر ذبذبتها تمامًا. غير أنها، في عمق أعماقها، استشاطت غيظًا لمقاطعتها في لحظةٍ مهيبة بهذا القدر، وقالت:

ـ نعم، بالطبع ستجدين. على العرّافات وقارئات الطالع أن يقلن دومًا ما يريد الزبائن سماعه...

ـ متى؟

ـ بحلول مساء الغد.

ذَهَبَ العجبُ بهما.

شعرت كارلا للمرّة الأولى أنّ العرّافة تقول الحقيقة. كانت نبرتها تأكيديّة وإيجابيّة، كما لو أنّ صوتها انبثق من بُعدٍ آخر. ارتاعت ليلى من جهتها. فقد نَدَرَ أن عرفت لحظات بصيرة مماثلة. ومتى حدثت، كانت تخشى أن يحلّ بها العقاب لدخولها بلا مراسم إلى هذا العالم الذي بدا حقيقيًا ومغلوطًا في آن. مع ذلك، كانت تبرّر ذلك في صلواتها كلّ ليلة، أنّ وجودها على الأرض كان لمساعدة الآخرين في مقاربة ما أرادوه بإيجابيّة أكبر.

نهضت كارلا على الفور من «بؤرة الطاقة»، دفعت تكلفة نصف جلسة، وخرجت قبل مجيء رفيق سفرها الذي طال انتظاره. «بحلول مساء الغد» عبارة فضفاضة. قد تعني اليوم أيضًا. لكن مهما يحدث، فقد عرفت أنّها من الآن فصاعدًا بانتظار أحدهم.

استعادت مكانها في ساحة «دام». فتحت الكتاب الذي كانت قد بدأت بقراءته، والذي كان معروفًا من قلّة حينها (ممّا أعطى كاتبه في نظرها صفة الكاتب الشعائري). كان الكتاب بعنوان «سيّد الخواتم *The Lord of The Rings*»، وهو من تأليف ج.ر.ر. تولكيان، الذي تحدّث عن أماكن أسطوريّة كتلك التي نوت زيارتها. ادّعت تجاهل الفتيان الذين كانوا يضايقونها كلّ خمس دقائق طارحين عليها سؤالاً غبيًا، لذريعة خاوية في محادثة أكثر خواءً.

كان باولو والرجل الأرجنتيني، اللذان استنفدا كلّ موضوعات النقاش المحتملة، يتأمّلان في هذا الوقت تلك الأراضي المسطّحة، غير أنّ ذهنيهما كانا في مكان آخر. فقد ارتحلت معهما ذكريات وأسماء، وشعور بالفضول، وخوف عميق تحديدًا ممّا قبع في انتظارهما عند الحدود الهولّنديّة التي كانت تبعد ثلث ساعة فقط على الأرجح.

راح باولو يدسّ شعره الطويل تحت ياقة معطفه.

سأله الآخر: ـ أتعتقد أنّك ستفلح هكذا في خداع حرس الجمارك؟ لقد خبروا كلّ شيء، كلّ شيء بحقّ.

عَدَلَ باولو عن ذلك، وسأل رفيقه إن كان قلقًا.

ـ نعم بالطبع. لدّي خِتما دخول إلى هولندا. سوف يتّخذون حذرهم، سيظنّون أنّني أجيء غالبًا. وهذا، هذا بالضبط، يعني أمرًا واحدًا.

الإتجار بالمخدّرات. لكنّ المخدّرات كانت مشروعة هنا على حدّ علم باولو.

ـ بالطبع لا تساهل البتّة مع الأفيون ومشتقاته. والأمر سيّان مع الكوكايين. أمّا مخدّر LSD، فلا سبيل إلى ضبطه، إذ يكفي أن تبلّل في المحلول صفحة من كتاب أو قطعة قماش، وتقصّها وتُعيد بيعها قطعًا صغيرة. لكن كلّ ما يُمكنهم كشفه قد يُفضي بك مباشرة إلى السجن.

رأى باولو أن من الأفضل فضّ الحديث. تحرّق لسؤال الأرجنتيني إن كان بحوزته شيء ما، لكنّ مجرّد معرفته الأمر سيحوّله إلى شريك في الجرم. وسبق له أن دخل السجن مرّة، رغم براءته التامّة، في بلدٍ رَفَعَ شعار «البرازيل، أحبّها أو غادرها» على أبواب مطاراته كلّها.

عندما نحاول طرد الأفكار السلبيّة من أذهاننا، يكون لذلك على الدوام أثر معاكس؛ فالسلبيّة تستقطب المزيد من الطاقات الشيطانيّة. فبخصوص باولو، أدّى مجرّد تذكّر ما حدث سنة ١٩٦٨ إلى تسارع نبض قلبه، وجعله يحيا، ثانيةً وبأدقّ التفاصيل، ذاك المساء في مطعم في بونتا غروسّا من باراناه، وهي ولاية برازيليّة ذاع صيتها بتأمين جوازات السفر للشقر الفاتحي العيون.

كان قد رجع لتوّه من رحلته الأولى الطويلة على الطريق الهيبية الرائجة يومها. رافقته حبيبته التي كانت تكبره بإحدى عشرة سنة، والتي وُلدت وترعرعت في ظلّ الحكم الشيوعي في يوغوسلافيا، لأسرة نبيلة فقدت كلّ شيء، لكنّها أمّنت لها تعليمًا أجادت بفضله أربع لغات، فرّت إلى البرازيل. تزوّجت بمليونير بموجب نظام المِلكية المشتركة بين الزوجين، وانفصلت عنه عندما اكتشفت أنّه يراها «عجوزًا» لكونها في الثالثة والثلاثين من العمر، وكان يتودّد إلى شابة في السابعة عشرة. كلّفت محاميًا ممتازًا حصل لها على تعويضٍ كافٍ ليحول دون اضطرارها إلى العمل، ولو ليوم، مدى حياتها.

كان باولو وحبيبته قد ذهبا إلى «ماتشو بيتشو» على متن ما سُمّيَ «قطار الموت»، وهو وسيلة نقل تختلف جدًّا عن القطار الذي يقلّه الآن.

سألت حبيبته المسؤول عن التحقّق من التذاكر: ـ لماذا يُسمّونه «قطار الموت»؟ فنحن لا نعبر منحدرات شاهقة.

قلّما اكترث باولو للإجابة، التي جاءتهما مع ذلك.

ـ قديمًا، استُخدمت هذا العربات لنقل المصابين بداء البَرص والمرضى وجثث ضحايا أُصيبوا بوباء الحمّى الصفراء الشديد الذي حلّ بمنطقة سانتا كروز.

ـ أفترضُ أنّ العربات قد طُهّرت من الجراثيم بعناية.

ـ مذاك، وباستثناء عامل منجم أو اثنين، كانت لديهما حسابات يُصفّيانها الواحد مع الآخر، لم يمت أحد.

لم يقصد بـ «عمّال المناجم» الذين وُلدوا في ولاية «مينا جيرايس» الغنيّة بالمعادن في البرازيل، والتي أتى منها باولو، بل أراد بهم الرجال الذين كانوا يعملون ليل نهار في مناجم القصدير في بوليفيا. والآن، هما في عالم متحضّر، وأَمِلَ ألاّ يكون ثمّة من لديه حسابات للتصفية ذاك اليوم. لكن، لحسن حظّهما، كان معظم الركّاب من الجنس اللطيف، بقبّعاتهن البولر المدوّرة وثيابهن المزركشة.

وصلا إلى لاباز، العاصمة، التي ترتفع ٣٦٤٠ مترًا عن سطح البحر. وإذ صعدا إليها بالقطار، لم يشعرا بتأثير نقص الأكسجين. لكن لدى الهبوط إلى المحطّة، صادفا شابًا يجلس على الأرض ويبدو عليه الضياع نوعًا ما. وشى زيّه بالقبيلة التي ينتمي إليها. سألاه عمّا جرى له («أعجز عن التنفّس جيدًا»). اقترحَ عليه عابر سبيل أن يمضغ أوراق الكوكا المتوافرة في أيّ سوقٍ قريبة. كانت تلك عادة قَبَليّة تُعين السكان الأصليين على تحمّل الارتفاع. توسّل إليهما الشاب، الذي كان قد بدأ يشعر بتحسّن، أن يدعاه وشأنه. كان ذاهبًا إلى «ماتشو بيتشو» ذلك اليوم نفسه.

في الفندق الذي اختاراه، أخذت عاملة الاستقبال حبيبته على حدة، تمتمت لها ببضع كلمات، وجعلتهما من ثمّ يملآن استمارة. صعدا إلى الغرفة، وناما من فورهما. لكن قبل ذلك، سألها باولو:

ـ ما الذي أسرّت به المرأة إليك.

ـ لا جنس في اليومين الأوّلين.

كان الأمر بديهيًا. في أيّ حال، لم يكن في وضع يسمح له بفعل شيء أصلاً.

صرفا يوميهما الأوّلين في العاصمة البوليفيّة من دون ممارسة الحب، ومن دون أن يشعرا بأيّ أعراض جانبيّة جرّاء السوروتشيه، كما عُرف به نقص الأكسجين. عزيا ذلك إلى المنافع العلاجيّة لأوراق الكوكا، لكنّهما كانا على خطأ: يفعل السوروتشيه فعله بمن ينتقلون من مستوى البحر إلى مرتفعات عالية دفعة واحدة، بعبارة أخرى، في الطائرة، من دون أن يُتيحوا للجسم الوقت للتكيّف. أما هما فقد صرفا سبعة أيام طويلة في قطار الموت. كان ذلك أفضل للتكيّف مع المحيط، وأكثر أمانًا طبعًا من الطائرة، إذ كان باولو قد رأى في مطار سانتا كروز دي لا سييرا تمثالاً كُرّس «لربابنة الشركة الأبطال الذين ضحّوا بحياتهم أثناء أدائهم واجبهم».

في «لاباز» التقيا الهيبيين الأُوَل الذين، بالنظر إلى كونهم قبيلة عالميّة تعي مسؤوليّتها وتكافلها المتبادل اللذين التزمهما، كانوا على الدوام يضعون الرمز الشهير من أبجدية الفايكينغ بالمقلوب. في حالة بوليفيا، وهي بلد يرتدي فيه الجميع أوشحة البونشو والسترات الخفيفة والقمصان والبذّات المتعدّدة الألوان، كان من شبه المستحيل تمييز الواحد من الآخر، لولا الحرف الذي خيط على السّتر أو البنطلونات.



كان هؤلاء الهيبيون الأُوَل شابّين ألمانيين وامرأة كندية. وإذ كانت حبيبته تتكلّم الألمانيّة، دعياها من فورهما إلى التجوُّل في المدينة، في حين بقي هو برفقة الكندية يتبادلان النظرات ولا يعلمان ما يقولانه. عندما رجع الثلاثة الآخرون من تجوالهم بعد نصف ساعة، قرّروا جميعًا المغادرة على الفور بدل المكوث وإنفاق المال هنا. سيُكملون الطريق حتّى بحيرة تيتيكاكا، مسطّح المياه العذبة الأكثر ارتفاعًا في العالم، واجتيازها عبر مركب، والنزول عند الضفّة المقابلة، الكائنة في البيرو، والتوجّه من ثمّ إلى «ماتشو بيتشو».

كان كلّ شيء ليجري كما هو متوقّع، لو لم يجدوا أنفسهم عقب بلوغهم ضفاف بحيرة تيتيكاكا، أمام نصبٍ شديد القِدَم، عُرِفَ ببوّابة الشمس. على مداره، جلس هيبيون آخرون، يُمسك الواحد بيد الآخر، يؤدّون طقسًا رغبوا أن يشاركوا فيه، لكنّهم خشوا مقاطعة الآخرين.

لمحتهم شابّة، وأومأت إليهم بإشارة من رأسها، فانضمّ الخمسة إلى المجموعة.

لم يكن من داعٍ لتبرير وجودهم هنا؛ فقد حكت البوّابة عن نفسها. فيما عدا الصدع الكائن في وسط العارضة العلويّة، والذي أحدثه برق على الأرجح، كانت البوابّة روعة حقّة، روت نُقوشها الغائرة حكاية زمن منسي، لكنه حاضر جدًا، جُلّ ما أراده أن تُحيا ذكراه، ويُكتشف من جديد. نُحتت البوابّة من كتلة حجريّة واحدة ونُقش على العارضة ملائكة وسادة ورموز لم تعد قائمة، مثّلت ثقافة، أشارت بحسب السكّان الأصليين، إلى كيفيّة استعادة العالم إذا دمّره جشع الإنسان. وإذْ لاحت بحيرة تيتيكاكا لباولو عبر فتحة البوّابة، راح يبكي، كما لو أنّه تواصل ببنّائيها، وهم أشخاص غادروا المكان على عجلة، من دون أن يتمكّنوا من إنجاز عملهم، خوفًا من دخلاء، أو من ظاهرة أجبرتهم على التوقّف والفرار. ارتسمت ابتسامة على وجه الشابّة التي سبق أن دعتهم للانضمام إلى الحلقة، وقد ترقرق الدمع في عينيها. أغمض الآخرون جميعًا عيونهم، تحادثوا مع الأقدمين، سعوا إلى معرفة ما استدعى مجيئهم إلى هنا، وأبدوا وقارهم لهذا الغموض العظيم.

من أراد تعلّم السِحر عليه أولاً النظر حوله. وضع الله أمام ناظر الإنسان كلّ ما أراد أن يظهره له، وهو تقليد الشمس الشهير.

تقليد الشمس مُباح للجميع: هو لا يخصّ الفقهاء أو الطهارى، بل هو للجميع. فالطاقة ماثلة في كلّ الأشياء الصغيرة على درب المرء. والعالم غرفة الصف الفعليّة. والحبّ الأسمى، متى عرفكم أحياء، سيعلّمكم كلّ ما تحتاجون إلى معرفته.

لزم الجميع الصمت، مركَزين في هذه الآية، التي وإن لم يستوعبوها تمامًا، فقد آمنوا بها. دندنت فتاة أغنية بلغة يجهلها باولو. وقف شاب، أكبرهم على الأرجح، بسط ذراعيه، وتلا تضرّعًا:

عسى الله أن يمنّ عليك...
بقوس قزح بعد كلّ عاصفة،
ببسمة بعد كلّ دمعة،
بوعد بعد كلّ أسى،
ببركة بعد كلّ تجربة،
بصديق وَفِيّ في كلّ شدّة في الحياة،
بأغنية جميلة بعد كلّ تنهيدة،
وباستجابة إلى كلّ صلاة.

في تلك اللحظة بالذات، أطلقت صافرة قارب. قارب صُنع في إنكلترا وفُكّك فيها، ونُقل من ثمّ إلى مدينة في تشيلي، ليُحمَل في قطع منفصلة على ظهر بغل إلى علو ٣٨٠٠ متر عن سطح البُحيرة.

ركبوا جميعًا القارب، ووجهتهم مدينة شعب الإينكا المفقودة.

صرفوا فيها أيامًا لا تُنسى، فقد كان من النادر بلوغ هذا المكان. وحدهم أبناء الله وصلوه، أولئك أحرار الروح المستعدّون لمواجهة المجهول بلا مهابة.

ناموا في المنازل المهجورة المجرّدة من سقوفها، يتأمّلون النجوم، يُمارسون الحب، يتناولون ما لديهم من غذاء، يستحمّون كلّ يومٍ عراة في النهر الجاري أسفل الجبل، يتناقشون في احتمال أن يكون الآلهة فعليًا روّاد فضاء جاءوا إلى كوكب الأرض، وحطّوا في هذه المنطقة. قرأوا جميعًا الكتاب نفسه لكاتب سويسري فسّر غالبًا رسوم شعب الإينكا على أنها تمثيلات تُصوّر رحّالة أجرام. وقرأوا أيضًا كتابات «لوبسانغ رامبا»، هذا الراهب التيبيتي الذي تحدّث عن فتح العين الثالثة، إلى أن روى إنكليزي أثناء اجتماع عُقد في الساحة الرئيسة من «ماتشو بيتشو» أنّ اسم هذا الراهب الشهير الحقيقي هو «سيريل هنري هوسكن»، وكان في الأساس سبّاكًا في الريف الإنكليزي. كانت هويّته قد اكتُشفت مؤخّرًا، ونفى الدالاي لاما صدقيّتها.

خاب ظنّ كلّ من في المجموعة. خصوصًا وأنّهم جميعًا، بمن فيهم باولو، كانوا على قناعة بوجود غدّة بين العينين، اسمها الغدّة الصنوبريّة، لم يكن العلماء قد اكتشفوا جدواها بعد. لذا، كانت العين الثالثة موجودة، لكن خلافًا لما وصفه «لوبسانغ سيريل رامبا».

صباح اليوم الثالث، قرّرت حبيبة باولو أن تعود، وقرّرت بما لا يقبل الشك أن يرافقها. رحلا قبل طلوع الشمس من دون أن يودّعا أحدًا أو ينظرا إلى الوراء، وصرفا يومين وهما يهبطان شرق السلسلة الجبليّة في حافلة طافحة بالناس والحيوانات الأليفة والمنتجات الغذائيّة والأشغال اليدويّة.

اغتنم باولو الفرصة لشراء حقيبة مزركشة أمكنه طيّها ووضعها في حقيبة ظهره. وقطع على نفسه وعدًا بألاّ يُسافر بعد اليوم في حافلة لمدّة تتعدّى اليوم.

من مدينة ليما، توجّها إلى سانتياغو دو تشيلي مستوقفَين السيّارات العابرة. كان العالم آمنًا. ورغم ما ولّدته ملابسهم من خوف في نفوس السائقين، فإنهم قد توقّفوا ليُقلّوهما. في سانتياغو، وبعد ليلة ناما فيها ملء أجفانهما، سألا أحدهم أن يرسم لهما مخطّطًا يُفضي بهما إلى النفق الواقع تحت السلسلة الجبليّة الذي يربط تشيلي بالأرجنتين. تابعا من ثمّ باتّجاه البرازيل، مستوقفين السيّارات العابرة من جديد، إذ واظبت حبيبة باولو على الترداد بأنّ المال الذي بقي في حوزتهما قد يُسعفهما في حال حدوث طارىء طبّي. كانت حذرة على الدوام، أكثر تعقّلاً على الدوام، متشبّعة بتربيتها الشيوعيّة العمليّة، التي حالت دون استرخائها تمامًا.

في البرازيل، عقب بلوغهما منطقة غالبيّتها من حملة الجوازات الشقر الفاتحي العيون، اقترحت حبيبته التوقّف عند محطّة جديدة.

ـ فلنذهب إلى «فيلا فيليا». يُقال إنّها مكان مذهل.

لم يستشرفا الكابوس الآتي.

لم يستشعرا الجحيم.

لم يكن في وسعهما التهيّؤ لما كان في انتظارهما.

سبق أن مرّا بأماكن عدّة مذهلة، فريدة، تنبّأت فرادتها بدمارها المستقبلي على أيدي جحافل السيّاح الذين لا همّ لهم سوى اقتناء الحاجيّات وتكديسها في منازلهم. كانت نبرة حبيبته نبرة حاسمة، لا تنطوي على سؤال، ذاك كان أسلوبها في الكلام لتُخطره بما سيفعلانه.

ـ بالتأكيد، فلنذهب إلى «فيلا فيليا»، فهي مكان مذهل. إنها موقع

جيولوجي بمنحوتات طبيعيّة أخّاذة صقلتها الريح، وحاولت البلديّة الأقرب الترويج لها بأيّ ثمن، مُنفقة ثروة طائلة في مسعاها هذا. عرف الجميع وجود «فيلا فيليا»، لكن بعض المتهوّرين حطّوا على شاطىء يحمل الاسم نفسه يقع في ولاية قرب ريو دي جانيرو، في حين وجد آخرون الموقع مشوّقًا للغاية، لكن وصوله كان عسيرًا جدًا.

كان باولو وحبيبته الزائرَين الوحيدين للمكان. ذُهلا لقدرة الطبيعة على تكوين كؤوس زهر وسلاحف وجمال، أو ذُهلا تحديدًا لقدرتنا على تسمية كلّ شيء، حتّى ولو بدا الجمل المعني أكثر منه رمّانة من جمل في نظرها، وكبرتقالة في نظره. في أيّ حال، وخلافًا لما كانا قد شاهداه في «تياواناكو»، فإنّ هذه المنحوتات الجيريّة تركت المجال مفتوحًا أمام كلّ أنواع التوضيحات.

توجّها بعد ذلك إلى «بونتا غروسا»، وهي المدينة الأقرب، مستوقفَيْن السيّارات العابرة. ولعلم حبيبته بأنّ رحلتهما قد شارفت على الانتهاء، قرّرت، وهي في الواقع من كان يقرّر بشأن كلّ شيء، أن ينزلا ذاك المساء للمرّة الأولى منذ أسابيع طويلة في فندق جيّد، وتناول اللحم على العشاء! كان اللحم أحد أفضل ما في تلك المنطقة من البرازيل، ولم يكونا قد تذوّقاه منذ مغادرتهما «لا باز»، فقد بدا لهما على الدوام أنّه مكلف جدًا.

نزلا في فندق حقيقي، استحمّا، ومارسا الحبّ قبل التوجّه إلى الردهة للسؤال عن «روديزيو» جيّد، أي أحد تلك المطاعم التي تقدّم من اللحم قدر ما شئت.

وإذْ هما في انتظار البوّاب، دنا منهما رجلان، استغنيا عن المجاملات، وأمرا باولو وحبيبته أن يتبعاهما إلى الخارج. أبقى كلٌّ من الرجُلَين يده في جيبه، كما لو أنّهما يحملان سلاحًا، وأرادا أن يُفهماهما ذلك.

«اهدآ!»، قالتها حبيبته، مقتنعةً بأنّهما يتعرّضان للاعتداء، وتابعت: «لديّ خاتم من الماس في غرفتنا».

لكن كان الرجلان قد شدّاهما بذراعيهما، ودفعا بهما إلى الخارج، بعد أن فصلا بينهما. ثمة سيارتان من دون نمر، كانتا تنتظران في الشارع المقفر، وكذلك رجلان آخران. صوّب أحدهما سلاحه نحو الثنائي الشاب قائلًا:

ـ لا تتحرّكا، لا تأتيا بأيّ حركة مشبوهة. سوف نفتّشكما.

أخذوا يتحسّسونهما بفظاظة. حاولت حبيبة باولو الاحتجاج أكثر. أما هو، فكان قد دخل في نوع من الانخطاف، وغاب وعيه تمامًا. جُلّ ما قَدِرَ عليه اختلاس النظر بطرف العين، لعلّه يرصد شاهدًا قد يُقدِم أخيرًا على الاتصال بالشرطة.

قال أحد الرجال مخاطبًا المرأة: ـ أطبقي فمك أيّتها الساقطة الخرقاء.

انتزعوا محفظتيهما المشدودتين إلى خصريهما، وفيهما جوازاهما ومالهما، ودُسّ كل منهما في مقعد خلفي من سيّارة. لم يتسنَّ الوقت لباولو كي يرى ما يجري لحبيبته، التي لم تتمكّن هي أيضًا من معرفة ما يجري له.

في السيّارة، جلس رجل آخر.

قال، وقد مدّ إلى باولو بقناع: «ضع هذا». وأردف: «وانطرح أرضًا».

انصاع له باولو، وقد فَقَدَ ذهنه كلّ قدرة على ردّ الفعل. انطلقت السيّارة هادرة. أراد القول إنّ أسرته تملك المال، وإنّه سيدفع أيّ فدية تكن، غير أنّ الكلمات أبت أن تخرج من فمه.

أخذت سرعة القطار تتباطأ، دليلًا على الاقتراب من الحدود الهولنديّة.

سأله الأرجنتيني: ــ أكلّ شيء بخير صديقي؟

أومأ باولو برأسه موافقًا، محاولاً البحث عن موضوع محادثة ليطرد أفكاره السلبيّة. مرّت سنة، بل أكثر، على حادثة «فيلا فيليا». وقد تمكّن معظم الوقت من السيطرة على شياطين عقله. لكن، ما إن كان يلمح كلمة «شرطة»، ولو على بزّة حارس جمركي، حتى يستولي عليه الذعر، من جديد. غير أن الذعر هذه المرّة، لم يأته منفردًا، بل جلب معه كامل قصّته، التي سبق أنّ رواها لبعض أصدقائه بحيادية، وكأنّه كان من الحاضرين. بيد أنه الآن، وللمرّة الأولى، كان يرويها لنفسه.

تابع الآخر: ــ لا يهمّ إن أرجعونا. يُمكننا أن نذهب إلى بلجيكا، ونعبرها إلى مكان آخر.

لم يرغب باولو في الكلام، فقد عاوده جنون الارتياب. ماذا لو كان الآخر يتاجر فعلاً بالمخدّرات القوية؟ ماذا لو استنتجوا أنّه متواطئ معه، وقرّروا الزجّ به في السجن، إلى أن تثبت براءته؟

توقّف القطار. لم يكن قد بلغ الحدود الجمركيّة بعد، بل محطّة صغيرة في وسط اللامكان، صعد منها شخصان، وترجّل عندها خمسة. وإذ

رأى الأرجنتيني أنّ لا رغبة لباولو في التحادث، تركه لأفكاره، قلقًا عليه، إذ تغيّرت تعابير وجهه فعلاً.

سأله مرّة أخيرة: ـ أمتأكّد أنتَ أنّ كلّ شيء بخير؟

ـ أنا في صدد التخلُّص من شيء.

فَهِمَ الآخر وصَمَت.

كان باولو على علم بأن تلك الأشياء التي جرت له لا تحدث هنا في أوروبا، أو بالأحرى حدثت، لكن ماضيًا. لطالما تساءل كيف أنّ الناس، وهم متّجهون إلى غرف الغاز في معسكرات الاعتقال، أو مصطفّون أمام مقبرة جماعية بعد أن رأوا الصف الأمامي يُردى بالرصاص دفعة واحدة، لم يأتوا بأي ردّ فعل، لم يحاولوا الهرب، لم يُهاجموا مُعدميهم.

كانت الإجابة بسيطة: كان الذعر كبيرًا إلى حدّ تسطيح وجودهم. يصدّ الذهن كلّ شيء، فينتفي كلّ رعب أو خوف، ويتحوّل الأمر مجرّد خنوع لما سيحدث. تزول المشاعر ليحلّ محلّها نوعٌ من التغافل، حيث يحدث كلّ شيء في منطقة عجز العلماء عن تفسيرها حتّى الآن. في العموم، يُطلِق الأطباء على هذه الظاهرة وصف «انفصام في الشخصية مؤقّت ناتج من التوتّر»، ولم يتكبّدوا يومًا عناء التدقيق في أثر الغياب الكلّي للمشاعر هذا، أو التأثير المسطّح، كما يسمّونه.

وباولو، كي يطرد أطياف الماضي نهائيًّا، ربّما عاش من جديد البلاء الذي حلّ به من ألفه إلى يائه.

بدا الرجل على المقعد الخلفي أكثر إنسانية من أولئك الذين قاربوهما في الفندق.

ـ لا تقلق، لن نقتلك. انطرح في أرض السيّارة.

لكنّه لم يكن قلقًا البتّة، فقد تعطّل رأسه. حسبَ أنّه دخل واقعًا موازيًا، أنّ ذهنه لم يقبل ما كان يحدث. تمكّن من طرح سؤال أساسي فحسب.

ـ أيمكنني التشبّث برِجلك؟

ـ بالطبع.

تشبّث باولو برِجْل ذلك الرجل بقوة، لم يكن الآخر يتوقّعها. ربما أوجعه، لكنّ الرجل لم يُبدِ أيّ ردّ فعل، وتركه يفعل ذلك. لا بُدّ من أنه تخيّل إحساس أسيره، لا بُدّ من أنّه لم يُسرّ برؤية شاب نابض بالحياة يمرّ بتلك التجربة. لكن، هو أيضًا، كان يُنفّذ ما تلقّاه من أوامر.

لم يستطع باولو احتساب الوقت الذي استغرقته الرحلة بالسيارة. وكلّما تقدّمت، ازداد قناعةً بأنّه يُقتاد إلى الإعدام. ظنّ أنه يفهم إلى حدّ ما ماذا يجري: انتشلته جماعة مسلّحة، وبات مُذاك رسميًا من عِداد المفقودين. لكن ما مآل هذا التفكير الآن؟

توقّفت السيّارة. أُخرج منها بوحشيّة، ودُفع به في ما بدا أنّه رواق. فجأةً، ارتطمت رجله بحاجز، قضيب ما.

استنجد بهم قائلًا: ـ برِفق من فضلكم.

وإذا باللكمة الأولى تنهال على رأسه.

ـ أطبق فمك أيها الإرهابي!

خرّ أرضًا. أُمِرَ بالنهوض وخَلْعِ كلّ ملابسه، وحُذّر من نزع القناع. أطاع. وعلى الفور، انهالت عليه الضربات من كلّ صوب. وإذْ جَهِل وجهتها، عجز جسمه عن التحضّر لها، وعجزت عضلاته عن الانكماش. فكان الوجع أشدّ من كلّ الأوجاع التي أحسّ بها في أيّ شِجار حدث في طفولته. هوى أرضًا من جديد، وتحوّلت اللكمات إلى ركلات. لا بُدّ من أنّ موجة الضرب دامت بين عشر دقائق وربع ساعة، إلى أن علا صوت أمر الرجال بالتوقّف.

كان لا يزال واعيًا، لكنّه لم يتمكّن من معرفة إن كان قد انكسر جزء منه. كان الألم شديدًا إلى حد أفقده القدرة على الحراك. غير أنّ الصوت الذي قضى بإنهاء جلسة التعذيب الأولى، طلب إليه النهوض قبل أن ينهمر عليه بأسئلة حول العصابة، والمتواطئين معه، وما جاء لفعله في بوليفيا: «أكنت على اتّصال بتشي غيفارا وعصابته؟ أين مخبأ الأسلحة؟». هدّد الصوت باولو بأنّه سيقتلع عينه ما إن يتأكّدوا من تورّطه في الحركة. علا صوت آخرُ معاكس، صوت «الشرطي الصالح». كان من الأفضل له أن يعترف بالسطو الذي نفّذوه على مصرف في الضواحي، وهكذا يتّضح كلّ شيء، وسيُزّج به في السجن لجرائمه، وعلى الأقلّ لن يمسّوه ثانيةً.

في تلك اللحظة تحديدًا، وفيما شقّ عليه النهوض، أخذ يخرج من

الخمول الذي حلّ به، ويستعيد ما شكّل في نظره أعظم الصفات الإنسانيّة: غريزة البقاء. كان عليه الخروج من هذا الوضع. كان عليه أن يُنادي ببراءته.

أمروه أن يُخبرهم عما فعله في الأسبوع الماضي. روى لهم كلّ شيء بدقائق تفاصيله، رغم شكوكه بأنّهم لم يسمعوا من قبل بـ «ماتشو بيتشو».

ردّ «الشرطي الفاسد»: ـ وفّر وقتك بتزلّفنا. لقد وجدنا الخارطة في غرفتك في الفندق. أنت والشقراء، شوهدتما في مكان الجريمة.

ـ خارطة؟

عبر شَقٍّ في القناع، أراه الرجل الرسم الذي زوّدهما به أحدهم في تشيلي، وأتاح لهما بلوغ النفق تحت سلسلة جبال الأنديز.

ـ يخال الشيوعيّون أنّهم سيفوزون في الانتخابات المقبلة، أنّ ألّيندي سوف يستخدم ذهب موسكو لإفساد أميركا اللاتينية قاطبة. لكنّكم على خطأ. ما موقعك من الحلف الذي يهمّون في تشكيله؟ ومن هي جهّات الاتصال التي تعرفها في البرازيل؟

استجداهم باولو، أقسم لهم أنّ كلّ هذا غير صحيح، أنّه مجرّد شاب أراد السفر وتعرّف العالم. واستغلّ الفرصة ليسأل عن حبيبته.

أجاب «الشرطي الفاسد»: ـ تلك التي أُرسلت من يوغوسلافيا، من بلد شيوعي، لتقوّض ديمقراطيّة البرازيل؟ إنها تنال المعاملة التي تستحقّها.

توعّده رعب قاتل بالاستحواذ على كيانه من جديد، لكن عليه بضبط النفس. عليه أن يجد سبيلًا للخروج من هذا الكابوس. عليه أن يستيقظ.

وضع أحدهم بين قدميه صندوقًا مجهّزًا بأسلاك كهربائيّة وبمقبض دوّار. قال آخر إنّهم يُطلقون على هذه الآلة اسم «هاتف»، ويكفي أن يُعلّقوا المشابك المعدنيّة بجسمه، وأن يُديروا المقبض لإرسال صدمة: «لا يَسَعُ أيّ ذَكَرٍ مقاومتها».

فجأة، وعلى أثر وجود الآلة أمامه، وجد باولو المخرج الوحيد المحتمل. نسي خنوعه ورفع صوته:

ـ أتعتقدون أنّني أخشى صدمة بسيطة؟ أنّني أخشى ألمًا بسيطًا؟ اطمئنّوا، سوف أعذّب نفسي بنفسي! فقد سبق أن أُدخلت مستشفى المجانين. لم أدخلها مرّة، أو اثنتين، بل ثلاث مرات. سبق أن تلقّيتُ كلّ أنواع الصدمات الكهربائيّة. يُمكنني إنجاز العمل عنكم. لا بُدّ أنكم تعرفون ذلك، أعتقد أنّكم تعرفون كلّ شيء عن حياتي.

ما إن فرغ من قوله، حتى أخذ يغرز أظافره في جسمه أينما كان، مُدميًا نفسه، وهو يصيح كلّ الوقت أنّهم يعرفون كلّ شيء، أنّ بإمكانهم حتّى قتله، أنّه لا يأبه لذلك قطعًا، فهو من المؤمنين بالتقمّص، وسيرجع لإيجادهم، هم وأُسَرهم، حالما يبلغ العالم الآخر.

اقترب واحد منهم، وأوثق يديه. لم ينطق أحدهم بشيء، لكن أحسّ باولو بأنّهم ارتاعوا.

قال «الشرطي الصالح»: ـ توقّف باولو. أيمكنك أن تُفسّر لي ما هذه الخارطة؟

راح يصرخ كمجنون، مفسّراً كيف احتاجا في عبورهما سانتياغو إلى المساعدة لإيجاد نفق بين تشيلي والأرجنتين.

ـ وحبيبتي، أين حبيبتي؟

زعق أكثر فأكثر، على أمل أن تتمكّن من سماعه. جهد «الشرطي الصالح» في تهدئته. يبدو أن المضطهدين، في بداية «سنوات الرصاص» لم يكونوا قد بلغوا أقصى وحشيّتهم.

طلب إليه أن يكفّ عن الرجفان. وأكّد له قائلًا: «إن كنت بريئًا، فعليك الأمان. ينبغي لنا أن نتثبّت أولاً، من صحّة أقوالك. بانتظار ذلك، عليك البقاء هناك قليلاً». لم يُحدّد الشرطي الوقت، لكن عرض عليه سيجارة. لاحظ باولو أنّ الآخرين شرعوا في مغادرة الحجرة، إذ لم تعد لهم مصلحة في ذلك.

ـ انتظر حتّى أخرج. وعندما تسمع الباب يُوصد، تستطيع نزع قناعك. ومتى رجع أحدهم، وطرق بابك، أعِدْ وضع القناع. ومتى حصلنا على كلّ المعلومات، سنُخلي سبيلك.

صرخ باولو من جديد:

ـ وحبيبتي؟

لا يستحقّ ما كان يجري. وإن كان ابنًا رديئًا، وكثيرًا ما عكّر صفو والديه، فهو لا يستحقّ ما كان يجري. كان بريئًا، ولو كان يحمل سلاحًا في تلك اللحظة، لأطلق النار عليهم جميعًا. ما من إحساس بالظلم أشدّ من إحساس امرئ بعقاب على فعلة لم يرتكبها.

ـ لا تقلق. لسنا غاصبين متوحّشين. نريد فقط أن ننتهي من أمر أولئك الذين يحاولون إنهاء بلدنا.

خرج الرجل، أوصد الباب، ونزع باولو القناع. كان في حجرة عازلة للصوت، ذات عتبة حديديّة، هي ما تعثّر به لدى دخوله. إلى اليمين، قام زجاج معتم ضخم أحادي الانعكاس لا شك في أن وظيفته التمكين من

مراقبة مَن يُعتَقل هنا. وكان ثمّة ثقبا رصاص أو ثلاثة في السقف، تدلّت شعرة من أحدها. لكن كان عليه الادّعاء بأنّه لا يُبالي بأيٍ من كلّ هذا. عاين جسمه، آثار الخدوش والدم الذي كان عليه أن يستنزفه بنفسه. تلمّس كلّ جزء من جسمه، واستخلص عدم وجود أيّ كسور، فقد أجادوا فنّ إخفاء أيّ أثر دائم، ولهذا السبب بالضبط خشوا ردّ فعله.

افترض أنّ المرحلة الثانية التي سيقدمون عليها الاتصال بريو دي جانيرو للتحقّق من قصة إيداعه المصحّة والصدمات الكهربائيّة، وكذلك كلّ خطوة اتّخذها هو وحبيبته التي أمكن لجواز سفرها الخارجي أن يحميها ويجرّمها في آن، بالنظر إلى أنّها من بلد شيوعي.

إذا تبيّن أنّه كذب، فسوف يُعذّب عذابًا متواصلاً على مدى أيام. وإن تبيّن أنّه صدق، فيُحتمل أن يتوصّلوا إلى أنّه ليس سوى هيبيّ مخدّر من أسرة ميسورة، وسوف يُطلقون سراحه.

هو لم يكن يكذب، وصلّى أن يكتشف الآخرون ذلك سريعًا.

لـم يعرف كـم من الوقت مضى على وجوده في هذا المكان المجرّد من النوافذ، تحت الضوء الـمُنار كلّ الوقت. ولـم يَلمَح وجهًا سوى وجه المصوّر التابع لمركز التعذيب هذا. أكان في ثُكنة، أم في مفوّضيّة؟ طلب إليه المصوّر أن ينزع القناع، نَصَبَ آلة التصوير على مستوى وجهه لئلا يُظهر عريّه، أمره أن يقف جانبيًّا. التقط له صورة أخرى، ثـمّ خرج من دون أن ينطق بكلمة.

حتّى الطرق على الباب لـم يتبع أيّ قاعدة، ما سمح له باستنتاج هذا الانتظام: الفطور، الذي كان يُستتبع أحيانًا بالغداء بعد فارق وقت وجيز، فالعشاء بعد ساعات. ومتى شعر بضرورة قضاء حاجته، وضع القناع، وطرق على الباب، إلى أن يستنتجوا مراده من خلال الزجاج الأحاديّ الانعكاس. حاول تبادل بضع كلمات مع الرجل الذي كان يسوقه إلى الحمّام، لكن بلا جدوى. كلّ شيء عنى سكوتًا.

كان ينام معظم الوقت. ذات يوم (أو بالأحرى ذات ليل؟)، فكّر في تسخير هذه التجربة للتأمّل أو التركيز في كيانٍ أسمى: تذكّر كيان القديس يوحنا الصليب الذي حكى عن ليل الروح الحالك، عن رهبان صرفوا سنوات حبيسي كهوف وسط الصحراء، أو في جبال هيمالايا. له أن يحذو حذوهم، أن يسخّر ما جرى له لمحاولة تحسين الذات. وإذ أخذ يفكّر، استخلص أنّ البوّاب في الفندق، إذ كان هو وحبيبته النزيلين الوحيدين

فيه، قد وشى بهما. تارة، اعترته رغبة في قتله فور خروجه من هنا، وتارةً كان يفكّر في أنّ الطريقة الفضلى لخدمة الله هي مسامحته من أعماق قلبه، لأنّ هذا الرجل، لم يكن يدري ماذا يفعل.

غير أنّ المغفرة فنّ مرهَف. سعى إلى التوحّد مع الكون في كلّ أسفاره. لكنه الآن، في هذه المرحلة من حياته، على الأقل، لم يكن مُجبرًا على تحمّل الناس الذين كانوا يَسخَرون كلّ الوقت من شعره الطويل، والذين كانوا يستوقفونه في الطريق ليسألوه كم من الوقت مضى على اغتساله آخر مرّة، الذين علّقوا أن ملابسه المزركشة دليل على توجّهه الجنسي غير المحدّد، وكانوا يسألونه كم من الرجال ضاجع، والذين قالوا له أن يكفّ عن الترحال والتعاطي، أن يبحث عن عمل شريف، أن يقوم بواجبه في إنقاذ بلاده من الأزمة.

حالَ مقته للظلم، ورغبته في الانتقام، وغياب المغفرة، دون تركيزه بما يكفي، وقاطعت أفكارٌ وضيعة تأمّله، وضيعة لكن مبرّرة تمامًا في نظره.

هل أخطروا أسرته؟

جَهِل والداه تاريخًا محدّدًا لعودته، لكن لا بُدّ من أنّهما لم يستغربا غيابه المطوّل. كانا على الدوام ينحيان باللائمة على حبيبته التي كانت تكبره بأحد عشر عامًا، والتي حاولت في رأيهما أن تستغلّه لتُشبع رغباتها الأرذل من أن توصف، لكسر رتابة وجاهتها المُحبطة، هي الغريبة في البلد الخطأ، اللعوب المتلاعبة بالشبّان الذين كانوا يبحثون عن أم بديلة عوضًا عن رفيقة. لم يكن باولو ككلّ أصدقائه، ككلّ أعدائه، كباقي الناس الذين مضوا في حياتهم من دون التسبّب بمشكلة لأحد، من دون أن

يُجبروا أُسَرهم على تقديم التبرير والتعليل بشأن حياة ولدهم، من دون أن يُظهروا ذويهم بهيئة أولئك الأشخاص الذين أخفقوا في تربية أولادهم تربية صالحة. كانت شقيقة باولو تدرس الهندسة الكيميائيّة في الجامعة، وكانت من الطلبة الألمع في صفّها، لكن لم يفتخر والداها بها كما يجب، فقد كانا أكثر انهماكًا في ردّ ابنهم إلى العالم الذي عرفوه.

في أيّ حال، وبعد انقضاء وقت استحال تحديده، أخذ باولو يُفكّر أنّه استحقّ تمامًا ما كان يجري له. بعض أصدقائه انخرطوا في المقاومة المسلّحة، مُدركين ما كان ينتظرهم، لكن وحده هو من كان يسدّد ثمن العواقب: لا بُدّ من أنّه كان عقابًا سماويًا لا بشريًا. استحقّ، مقابل كلّ الأحزان التي سبّبها، أن يقف عريانًا على أرض زنزانة خَرَمَت أحد جدرانها ثلاث رصاصات (فقد عدّها)، استحقّ أن يسبر أغوار ذاته فيراها بلا قوّة، ولا عزاء روحي، ولا صوت يحادثه كذاك الصوت الذي حدّثه عند «بوّابة الشمس».

صرف وقته في النوم. ظلّ يفكّر أنّه سيستيقظ من الكابوس. وكان يستيقظ دائمًا في المكان نفسه، على الأرض نفسها. ظلّ يردّد لنفسه أنّ الأسوأ قد مضى، وكان يستيقظ دائمًا وهو يتصبّب عرقًا، مرعوبًا كلّما سمع طرقًا على الباب. ربما لم يثبتوا شيئًا ممّا رواه لهم، وسوف يُستأنف التعذيب، أشدّ عنفًا.

طَرَقَ أحدهم على الباب. كان باولو قد فرغ لتوّه من تناول العشاء، لكنّه عرف أنّهم قد يقدّمون إليه وجبة الفطور لكي يشوّشوه أكثر. وضع القناع، سمع الباب يُفتح، وقذف أحدهم برزمة على الأرض، وقال:

ـ ارتدِ ملابسك. وانتبه ألاّ تخلع القناع.

كان ذاك صوت «الشرطي الصالح» أو بالأحرى «الجلاّد الصالح» كما آثَرَ تسميته في سرّه. انتظر الرجل أن يرتدي باولو ملابسه وحذاءه. عندما انتهى، أمسكه بذراعه ونصحه بالانتباه للقضيب الماثل عند عتبة الباب (التي سبق أن اجتازها عشرات المرّات للذهاب إلى الحمّام؛ لكن لا بُدّ أنّ الرجل قد شعر بالحاجة إلى قول عبارة لطيفة) وذكّره بأنّه وحده المسؤول عن النُدَب التي نحتت جسمه.

مشيا قرابة ثلاث دقائق، ثمّ علا صوت آخر: ـ الفاريانت تنتظرك في الخارج.

الفاريانت؟ أدرك باولو لاحقًا أنّه طراز سيّارة، ولكنه، آنذاك، حسبه شيفرة سرّية تعني «فصيلة الإعدام جاهزة».

اقتيد حتّى السيّارة، ومُدّ إليه بقلم وورقة ميّزهما من تحت القناع. لم يفكّر حتّى في قراءة المضمون، كان مستعدًّا للتوقيع على كلّ ما ارادوه، على أيّ اعتراف يضع حدًّا لهذا العَزْل المُخبِّل. شرح «الجلاّد الصالح» أنّها لائحة بأغراضه التي وجدوها في الفندق. كانت الحقائب في الصندوق.

الحقائب! قالها بصيغة الجمع. غير أنّ باولو كان فاقد الإحساس إلى درجة أنّه لـم يلاحظ ذلك على الفور.

أطاع ما أُمر به. فُتح الباب المقابل في السيّارة. استرق باولو النظر من الشَّق في القناع وتعرّف إلى ثياب يألفها. كانت هي! طلبوا إليها أن تفعل الأمر نفسه، أن توقّع ذيل مستند، لكنّها رفضت، أرادت أولاً أن تقرأ مضمونه. دلّت نبرة صوتها على أنّ الذعر لـم يتملّكها طول المحنة التي ألّمت بهما، أنّها تحكّمت تمامًا بمشاعرها. نزل الرجل عند طلبها خانعًا. بعد أن أتـمّت القراءة، وقعّت الورقة أخيرًا، ثـمّ وضعت يدها على يد باولو.

قال «الجلاّد الصالح»: ـ لا يُسمح بأيّ اتصال جسدي.

تجاهلته. ولهُنيهة، فكّر باولو أنّهما سيعادان إلى الداخل، وضربهما لعدم انصياعهما للأوامر. حاول سحب يده، لكنّها أوثقت الشدّ عليها.

اكتفى «الجلاّد الصالح» بإغلاق الباب، والإيماء بإشارة المغادرة. عندما سألها باولو عن حالها، راحت تبرق وترعد مندّدة بكلّ ما حدث. ضحك أحد الجالسين في المقعد الأمامي، توسّلها باولو أن تسكت حبًّا بالله، إذ يمكنهما أن يتحادثا في الأمر وحدهما لاحقًا، أو في يوم آخر، أو في المكان الذي كانا يُقتادان إليه، والذي ربما كان سجنًا حقيقيًّا.

قالت: «لا يطلب إليك أحد أن توقّع على مستند يُوثّق أنّ أغراضنا أُعيدت إلينا لو لم يكن ذلك بداعي إطلاق سراحنا». علت ضحكة أخرى من الأمام، ضحكتان في الواقع. ذلك أن السائق لم يكن وحده.

علّق أحد الرجلين قائلًا: ـ لطالما سمعتُ أنّ النساء أكثر شجاعة وأذكى من الرجال، وقد لاحظنا ذلك بين المعتقلين.

هذه المرّة، كان الرجل الجالس في الأمام هو مَن طلب إلى رفيقه

السكوت. مضت السيارة لبعض الوقت، ثمّ توقّفت، وطلب إليهما الرجل الجالس في مقعد الراكب أن ينزعا قناعيهما.

كان أحد الرجال الذين أمسكوا بالثنائي في الفندق، آسيوي العِرق. وبدا الآن يبتسم وسع فمه. ترجّل معهما من السيارة، توجّه إلى الصندوق لفتحه، أخرج منه الحقائب، ومدّ بها إليهما بدل أن يُلقيها أرضًا.

ـ يُمكنكما الذهاب الآن. اتّجها يسارًا عند الإشارة التالية، سيرا نحو ثلث ساعة، وستقعان على محطّة الحافلات.

عاد إلى السيارة، التي انطلقت على مهل، كما لو أنّ ما حدث كان بلا أهميّة. كان ذلك واقع البرازيل الجديد: كانت السلطة بأيديهم، ولم يستطع أحدٌ رفع صوته ليشتكي.

تبادل باولو وحبيبته النظرات، والارتماء في الاحضان من ثَمَّ، والقُبَل المطوَّلة. توجّها بعد ذلك نحو المحطّة. فكّر في خطورة المكوث هنا. وبدا أنّها لم تتغيّر مطلقًا، كما لو أنّ كلّ تلك الأيام، أو ربما تلك الأسابيع أو الشهور أو السنوات، لم تكن سوى وقفة وجيزة في سفرة الأحلام التي طغت عليها الذكريات الحلوة، ولم تستطع هذه الحادثة أن تكدّرها. حثّ خطاه لئلا يُضطرّ إلى القول إنّ الذنب ذنبها، وإن من غير المفترض أبدًا أن يتوقّفا في «فيلا فيليا» لرؤية منحوتات شكّلتها الريح، وإنّهما لو تابعا سيرهما، لما حدث أيّ ممّا حدث. غير أنّ الذنب لم يكن ذنب أحد، لا هي، ولا هو، ولا أحد ممن يعرفانه.

هذه سخافة وضعف منه. فجأة، أصابه ألم عنيف في الرأس، كان شديدًا إلى درجة أنه أوشك أن يُقعده عن السير، أو العودة إلى حيث نشأ، أو إلى «بوّابة الشمس» لكي يلتمس عون السكان القدامى، المنسيين، لكي يفهم ما جرى. استند إلى الحائط، وترك حقيبته تنزلق عنه أرضًا.

سألته، لتُجيب من ثمَّ بنفسها عن السؤال: ـ أتعرف ماذا يجري لك؟ أنا أعرف، فقد اختبرته بنفسي عندما كانت بلادي تُقصَف. خلال كلّ ذلك الوقت، كان الأمر كما لو أنّ ذهني تثاقل، أنّ الدم لم يجرِ في عروقي كعادته. سيستمر ذلكَ ساعتين أو ثلاثًا، لكنّنا مع ذلك سنشتري الأسبيرين في المحطّة.

حملت حقيبته، رفعته بكتفها، وشدّته ليمشي، رويدًا أولاً، ثمّ أسرع.

يا لها من امرأة، يا لها من امرأة! ويا للأسف الذي اعتراه يوم اقترح عليها أن يذهبا إلى مركزَي العالم: ميدان «البيكاديللي» وساحة «دام»، وأجابت أنّ السفر قد أنهكها، وأنّها، صراحةً، لم تعد تحبّه، وأنّ على كلٍ منهما الذهاب في سبيله.

توقّف القطار، وأطلّت اللوحة المخيفة التي كُتب عليها بلغات عدّة: الجمارك.

صعد بضعة أفراد جمركيين، وأخذوا يفتّشون العربات. كان باولو قد هدأ بعد أن فرغ من جلسة الطرد. غير أنّ جملة من آية في الكتاب المقدّس، وتحديدًا من سِفر أيّوب، أبت أن تفارق ذهنه: «وَالّذِي فَزِعْتُ مِنْهُ جَاءَ عَلَيّ».

كان عليه أن يتمالك نفسه، إذ باستطاعة أيٍّ يكن أن يَشْتمّ رائحة الخوف .

حسنًا. إذا صحّ كلام الأرجنتيني، فأسوأ الحال هو إرجاعهما عن الحدود، ولا مشكلة في ذلك. فثمّة حدود أخرى يُمكن عبورها. وإن أوصدت كلّ الأبواب في وجهيهما، فإن مركز العالم الآخر لا يزال قائمًا: ميدان «البيكاديللي».

انتابته سكينة عارمة تلت الرعب الذي حلّ به قبل عام ونصف العام. لكأنّه كان عليه مواجهة كلّ شيء بلا مهابة، والنظر إلى الأمور كواقعة حياتيّة بسيطة: نحن لا نختار ما يُصيبنا، لكن بوسعنا أن نختار طريقة استجابتنا له.

وأدرك أن سرطان الظلم واليأس والعجز كان، حتى تلك اللحظة، في أنحاء جسمه الطيفي كلّه. غير أنّه حُرٌّ الآن.

وهو يبدأ من جديد.

دخل العملاء الجمركيون المقصورة التي شغلها برفقة الأرجنتيني وأربعة آخرين لا يعرفانهم. وكما كان متوقّعًا، طلبوا إليه وإلى رفيقه الترجّل من القطار. كان الجو باردًا قليلاً في الخارج، مع أنّ المساء لم يكن قد أوغل في الظلمة بعد.

غير أنّ الطبيعة تتبع دورة تنعكس في روح الإنسان: تَلِدُ النبتة الزهرة لتجذب النحلة التي قد تولّد ثمرة. وتُنتج الثمرة بذورًا تتحوّل بدورها إلى نبات يتفتّح زهرًا من جديد، فيجذب النحلة، التي تُخصّب النبتة، التي تُنتج من ثمّ ثمارًا... وهكذا حتّى أبد الدهر. أهلاً بك أيها الخريف: حانت لحظة التخلّي عن القديم وأهوال الماضي للسماح للجديد بأن يتجلّى.

اقتيد عشرة شباب، بين ذكور وإناث، إلى داخل مركز الجمارك. لم ينطق أحد بكلمة. وحرص باولو على الوقوف أبعد ما يكون عن رفيقه الأرجنتيني، الذي لاحظ ذلك ولم يحاول فرض حضوره ولا حديثه عليه. لا بُدّ من أنّه أدرك لحظتها أنّ البرازيلي يُدينه، أنّه حذر منه. لكنّه رآه أيضًا خلاف ذلك، رأى وجهه يمتقع ظلمةً ليُشرِق من جديد الآن. لعلّ من المبالغة القول إنّه «أشرق»، لكن على الأقلّ كانت التعاسة الشديدة التي علته منذ قليل قد تبدّدت.

جرى استدعاؤهم واحدًا واحدًا إلى قاعة، ولم يدرِ أي منهم ما كان يُتداول فيها، لأنّ الخروج كان من بابٍ ثانٍ. كان باولو ثالث المستدعين.

خلفَ طاولةٍ، جلسَ جمركيّ يرتدي زيّه الرسمي. طلب جواز سفر باولو، وأخذ يتصفّح حافظة أوراق ممتلئة بالأسماء.

شرع باولو في القول: «أحد أحلامي أن أذهب...»، غير أنّ الجمركي أشّر عليه ألاّ يقاطعه.

تسارع نبض قلبه، وتنازع مع نفسه للتصديق بأنّ الخريف قد حلّ، وأنّ الأوراق الصفراء بدأت تتساقط، أنّ رجلاً جديدًا قد انبثق من ذاك الذي كان حتّى حينه خائرًا منهارًا.

الذبذبات السلبيّة تجذب المزيد من الذبذبات السلبيّة. هكذا حاوَل تهدئة نفسه، خصوصًا وأنّه قد لاحظ أنّ الجمركي يضع قرطًا في إحدى اذنيه، وهو أمر غير مألوف في أيٍ من البلدان التي زارها. في القاعة الممتلئة بالأوراق، حاول إلهاء نفسه بالتركيز في صورة المَلِكة وفي مُلصق يُصوّر طاحونة. وضع الرجل لائحته جانبًا، ولم يكلّف نفسه حتى سؤال باولو عمّا جاء يفعله في هولندا. أراد أن يعرف فقط إن كان يحوز ما يكفي من المال للعودة إلى بلاده.

ردّ باولو مؤكّدًا. عرف مسبقًا أنّ تذكرة العودة كانت الشرط الأساسي للسفر إلى أرضٍ أجنبيّة، فاشترى تذكرة ذهاب وإياب باهظة جدًّا، أوصلته أولاً إلى روما، وكان تاريخ العودة المدوّن فيها يمتدّ لسنة. مدّ يده إلى المحفظة التي أبقى عليها مخبّأة في حزامه، ليُثبت أقواله. غير أنّ الجمركي قال إنّ ما من داعٍ لذلك، وإنّه أراد أن يعرف فقط كم يملك من المال.

- في حوزتي ١٦٠٠ دولار تقريبًا. ربما كان المبلغ أكثر قليلاً، لست أدري كم أنفقت في القطار.

وصل إلى أوروبا في الطائرة، وفي حوزته ١٧٠٠ دولار، جناها من تدريس اختبارات الانتساب إلى مدرسة الفنون المسرحيّة التي ارتادها. كانت

التذكرة إلى روما الأرخص بين التذاكر الأخرى. لدى وصوله، بلغه من «البريد الخفي» أنّ الهيبيين غالبًا ما كانوا يتجمّعون في «ساحة إسبانيا» أسفل «الدرجات الإسبانيّة». وجد مكانًا في متنزّه ليأوي إليه، واقتصر طعامه على السندويشات والبوظة. واستطاع أن يبقى في العاصمة الإيطاليّة، حيث التقى امرأة إسبانيّة من جيليقية، فأصبحا صديقين على الفور، وأصبحت حبيبته في ما بعد. وانتهى به الأمر إلى شراء «أوروبا بخمسة دولارات في اليوم» الكتاب الأكثر مبيعًا ورواجًا آنذاك، والذي عَلِمَ يقينًا أنّه كان سيغيّر حياته. لاحظ في الأيام التي قضاها في ساحة إسبانيا، أنّ المسافرين العاديين أيضًا، «المستقيمين» كما شاعت تسميتهم، وليس الهيبيين فقط، قد اقتنوا هذا المؤلَّف الذي عدّد إلى جانب المواقع السياحية المهمّة، الفنادق والمطاعم الأقل تكلفة في كلّ مدينة.

بفضل هذا الكتاب، لن يضيع في أمستردام متى بلغها. وعندما أعلمته الإسبانيّة أنّها ذاهبة إلى أثينا في اليونان، قرّر أن يمضي في سبيله إلى وجهته الأولى (كانت الثانية ميدان البيكاديللي، التي لم يكلّ من ترديد اسمه على نفسه).

مدّ يده من جديد إلى محفظته ليُشهر ماله، لكن سرعان ما أُعيد إليه جواز سفره وقد خُتم. سأله الجمركي إن كان يحمل فواكه أو خُضرًا. كانت بحوزته تفاحتان طلب إليه الجمركي أن يرمي بهما فور مغادرته في سلّة المهملات الموضوعة خارج المحطة.

ــ والآن كيف أتوجّه إلى أمستردام من هنا؟

قيل له إنّ عليه أن يركب قطارًا محلّيًا يمرّ كلّ نصف ساعة.

كانت تذكرة السفر التي اشتراها في روما صالحة للذهاب إلى وجهته الأخيرة.

أشار الجمركي إلى باب الخروج، ووجد باولو نفسه من جديد يستنشق الهواء الطلق، ينتظر القطار التالي، وقد أخذته الدهشة والسرور في آن، لأنّهم صدّقوا أقواله عن التذكرة والمال.

لقد دخل، بحقّ، عالمًا آخر.

لم تهدر كارلا كلّ العصر بالتسكّع في ساحة «دام»، فالمطر بدأ يتساقط. وكانت العرّافة قد ضمنت لها أنّ المنتَظر طويلاً سوف يصل في الغد. فقرّرت الذهاب إلى السينما لمشاهدة فلم «٢٠٠١: أوديسة الفضاء» الذي أخبرها الجميع أنّه تحفة حقّة، رغم عدم انجذابها إلى أفلام الخيال العلمي.

وكان تحفة فعلاً. ساعدها الفلم على قتل الوقت خلال انتظارها. وأظهرت لها نهايته ما ظّنت أنّها كانت تعرفه. في الواقع لم تكن المسألة متمحورة حول ما تظنّه أو لا تظنّه، فقد كانت حقيقة مُثبَتة لا تقبل الجدال: الوقت دائري، ويرجع دومًا إلى النقطة ذاتها. نُولد من بذرة، ننمو، فنهرم، ثمّ نموت، ونعود إلى الأرض ونُصبح بذرة من جديد، عاجلاً أم آجلاً، متقمّصين شخصًا آخر. ورغم أنّها تتحدَّر من أسرة لوثرية، فقد التفتت إلى الكاثوليكيّة لبعض الوقت، وكانت تتلو دستور الإيمان في القدّاس الذي أخذت تحضره بانتظام . كانت هذه جملتها المفضّلة:

«أؤمن [.....] وأترجّى قيامة الموتى والحياة في الدهر الآتي. آمين».

قيامة الموتى: حاولت ذات مرّة أن تناقش كاهنًا في هذا المقطع، بسؤاله عن القيامة. قال إنّ المسألة ليست كذلك. سألته ما هي عليه إذن؟ بدا لها الردّ قمّة في البلاهة: هي لم تكن على قدر النضوج الذي يمكّنها من فهم الأمر. وإذْ خلصت إلى أنّ الكاهن نفسه لا يعرف معنى هذه الجملة، راحت مذاك تبتعد عن الكاثوليكيّة.

«آمين»، ردّدتها وهي عائدة إلى الفندق ذاك اليوم. أبقت على أذنيها

صاغيتين لعل الله قرَّر أن يتكلَّم معها. منذ أن أقصت نفسها عن الكنيسة، سعت إلى الهندوسيّة والطاويّة والبوذيّة والعبادات الإفريقيّة ومختلف أنواع اليوغا، بحثًا عن إجابةٍ لأسئلتها عن معنى الحياة. قال أحد الشعراء قبل قرون: «نورك يفيض على الكون كلّه، وقنديل الحب يشتعل على طبق المعرفة».

ولمّا كان الحبّ في حياتها معقّدًا جدًّا، إلى درجة أنها كانت على الدوام تتفادى التفكير فيه، خلصت إلى أنّ «المعرفة» كامنة فيها، وهذا بالأساس ما كان يبشّر به مؤسّسو تلك الديانات. وإذ أصبح كلّ ما تبصره يذكّرها بالربّ، سعت إلى أن تكون أفعالها عربون امتنان لحياتها.

كان حسبها ذلك، فأسوأ القتل ذاك الذي يقتل فرحنا في الحياة.

دخلت إلى مقهى *Coffe shop* حيث تباع أنواع مختلفة من الماريوانا والحشيشة. لكنّها أرادت تناول فنجان قهوة فقط، والتحادث مع شابّة أخرى، هولنديّة كذلك، بدت كطائر يغرّد خارج السرب، وكانت هناك لتناول القهوة أيضًا.

تُدعى ويلما. قرّرتا الذهاب إلى «باراديسيو»، ثمّ بدّلتا رأيهما. ربّما عُزي ذلك إلى أن المكان فَقَد بريقه، كالمخدّرات التي تباع في هذا المقهى. ربّما استقطبت السيّاح، لكن قلّما اكترث لها مَن كانت في متناولهم.

ذات يوم من أيام مستقبل بعيد، سوف تستنتج الحكومات في مختلف أنحاء العالم أنّ الحلّ الأفضل لما يسمّونه «مشكلة» سيكون بتشريعها. فجزء كبير من الغموض الذي يلفّ الحشيشة يكمن في حَظْرها، وبالتالي في ابتغائها.

ردّت ويلما على رأي كارلا: ـ لكن لن يهتمّ أحد بذلك. هم يحصدون مليارات الدولارات جرّاء الحظر. يخالون أنّهم فوق الجميع. يعتقدون أنّهم خشبة خلاص المجتمع والأُسرة. ووضع حدّ للمخدّرات يُشكّل مُنبرًا سياسيًا ممتازًا. أيّ فكرة تريدين أن يُحلّوها محلّها؟ وضع حدّ للفقر؟ لكن لم يعد أحد يصدّق ذلك.

صمتتا، وحدّقت كل منهما إلى كوبها. فكّرت كارلا في الفلم، وفي «سيّد الخواتم»، وفي حياتها. لـم تختبر فعليًا تجارب مشوّقة. وُلدت في أسرة تقيّة، درست في ثانوية لوثريّة، حفظت الكتاب المقدّس عن ظهر قلب، فقدت عذريّتها مراهِقةً مع هولندي عفيف مثلها، سافرت لبعض الوقت عبر أوروبا. وجدت عملاً في العشرين من العمر (عمرها الآن ثلاث وعشرون سنة)، مرّت أيامها طويلة ومتواترة؛ تحوّلت إلى الكاثوليكيّة لمجرّد الوقوف في وجه أسرتها، قرّرت ترك منزل والديها لتسكن وحدها. صاحبت لفيفًا من الشبّان الذين دخلوا حياتها، وخرجوا منها ومن جسدها بوتيرة راوحت بين يومين وشهرين. وخمّنت أنّ الذنب ذنب روتردام ورافعاتها وطرقاتها الرماديّة ومرفأها الذي رست عنده دومًا قصص أكثر تشويقًا من القصص التي سمعتها من أصدقائها.

اتّفقت أكثر مع الأجانب. ولـم تُقاطَع رتابة حرّيتها المطلقة سوى مرّة، عندما قرّرت أن تُغرم برجل فرنسي يكبرها بعشر سنوات. أقنعت نفسها، وحدها، أنّها ستُحوّل هذا الحبّ المدمّر إلى شعور متبادَل، رغم كامل معرفتها أنّ مضاجعتها كان جلّ مراد هذا الرجل، وهي ممارسة تفوّقت فيها، وعملت دومًا على تحسينها. ولم يمضِ أسبوع، حتى تخلّت عن الفرنسي في باريس، بعد أن استنتجت أنّها لم تكتشف بعد فعليًّا الغاية من

الحبّ في حياتها. وكان شرطًا وضعته على نفسها بنفسها. ذلك أن معارفها قد تحدّثوا في لحظة من اللحظات عن أهميّة الزواج والأولاد والطهو، وعن وجود مَنْ نُشاهد معه التلفاز، ونذهب معه إلى المسرح، ونجوب معه العالم، ونُقدّم إليه المفاجآت الصغيرة متى عاد إلى المنزل، ونحبل، ونربّي الأولاد، وندّعي غضّ النظر عن معرفتنا الخيانات الصغيرة التي أقدم عليها، ونصرّح في النهاية أنّ الأولاد هم غاية الحياة الوحيدة، ونقلق بشأن ما سيأكلونه على العشاء، بشأن ما سيكونون عليه مستقبلاً، وبشأن نجاحهم في المدرسة وفي العمل وفي الحياة ككلّ.

وبذلك نُطيل لسنواتِ الإحساس بجدوانا على هذه الأرض، إلى أن يرحل الأولاد عاجلًا أم آجلًا. آنذاك يفرغ المنزل، ولا يعود مهمًّا بالفعل إلا وجبةُ غداء الأحد، عندما يلتمّ من جديد شمل الأسرة التي سيدّعي أفرادُها دومًا أنّ كلّ شيء على ما يرام، وأنّهم لا يشعرون بذرّةِ غيرةٍ أو تنافس فيما بينهم، في حين أنّهم يتراشقون بالخناجر الخفيّة في الهواء: فأنا أجني أكثر منك، وزوجتي مهندسة معماريّة، ونحن اشترينا لتوّنا منزلاً لم يكن لديكم فكرة عنه، وهكذا...

قبل عامين، توصّلتْ إلى عدم جدوى الاستمرار في عيش هذه الحريّة المطلقة. أخذت تفكّر في الموت، وتلمّست فكرة دخول دير، حتّى أنّها زارت رهبنة الكرمليّات الحافيات اللواتي عشن حبيسات، بعيدات تمامًا عن العالم. قالت لهنّ إنّها معمّدة، إنّها اكتشفت المسيح، وتريد أن تكون عروسه لما تبقّى من أيامها. وبطلب من رئيسة الدير، أخذت شهرًا من التفكّر للتأكد من قرارها. وفي خلال هذا الشهر، كان لها أن تتخيّل وجودها في صومعة، مُجبَرة على الصلاة من الشروق إلى الغروب، مُردّدة

الكلمات نفسها حتّى إفراغها من معناها. أدركت أنّها أعجز من أن تعيش حياة يتوعّدها بالجنون. كانت رئيسة الدير على حقّ. لم تعد. فمهما تكن حرّيتها المطلقة رديئة، سيكون أمامها دومًا مُستجدّات أكثر تشويقًا تكتشفها وتفعلها.

تعرّفت إلى بحّار من بومباي، فضلًا عن أنّه كان عشيقًا ممتازًا (وقد ندر أن صادفت هذا النوع)، عرّفها بالتصوّف الشرقي. إذّاك، شرعت في التفكير بأنّ قدرها في الحياة كان الرحيل بعيدًا جدًّا، والعيش في كهف في هيمالايا، مؤمنة بأن الآلهة ستظهر لها وتُكلّمها ذات يوم، وأنها سوف تتحرّر من بيئتها الحاليّة التي وجدت فيها ضجرًا قاتلاً.

من دون الدخول في التفاصيل، سألت ويلما عن رأيها في أمستردام. فأجابت:

ـ مضجرة حتّى الموت.

بالضبط. ليست أمستردام فحسب، بل هولندا كلّها، حيث يولد المرء تحت جناح الحكومة، وحيث تكون شيخوخته مضمونة بفضل دور رعاية المسنّين، واستحقاقات الخلف، والضمان الاجتماعي المجاني أو شبه المجاني، وحيث الملكات هُنَّ مَن يتربّعن على العرش منذ جيلين: الملكة الأم فيلهلمينا، والملكة الحالية جوليانا، التي ستخلفها الأميرة بياتريكس. وبينما كانت النسوة في الولايات المتّحدة الأميركيّة يطالبن بالمساواة، ويحرقن حمّالات صدورهن، كانت كارلا، التي لم ترتدِ حمّالة صدر رغم كبر نهديها، تعيش في مكان حُقّقت فيه هذا المساواة منذ عهد بعيد، بلا ضجيج، بلا استعراض، بفضل المنطق السلفي الذي يقضي بمنح السلطة للنساء: في الواقع، هنّ من يحكمن أزواجهنّ وأبناءهنّ، ورؤساءهنّ وملوكهنّ، الذين

سعوا من جهّتهم إلى توليد الانطباع لدى الكلّ بأنهم جنرالات ورؤساء دول وأصحاب شركات استثنائيون.

الرجال: يخالون أنّهم يحكمون العالم، ولا يحرّك واحدهم ولو خنصرًا ما لـم يستشر، متى حلّ المساء، شريكته أو عشيقته أو حبيبته أو أمّه.

كانت كارلا في حاجة إلى اتّخاذ خطوة جذريّة، إلى اكتشاف بلاد بِكر في ذاتها أو خارجها، أن تجد مخرجًا من هذا الضجر القاتل الذي أحسّت أنّه يستنفد طاقتها يومًا إثر يوم.

أمِلَت أن تكون قارئة الطالع قد صدقت. وإذا لـم يظهر الموعود في الغد، فسوف تنطلق إلى نيبال وحدها، وتركب خطر أن ينتهي بها المطاف «أمة بيضاء» تُباع لسلطان بدين في بلاد لا تزال الحريم فيها ضرورة، حتّى ولو خامرها الشكّ في أن يجرؤ أحدهم على فعل ذلك. لكنّها قادرة على الدفاع عن نفسها أفضل من أيّ رجل، درعها نظرات متوعّدة وسلاح في اليد.

ودّعت ويلما، التي كانت ستلتقيها غدًا في «باراديسيو»، وتوجّهت نحو النُزل، حيث قضت لياليها الرتيبة في أمستردام، المدينة التي حَلُمَ كثير من الناس بها، إلى درجة أنّهم عبروا العالم لبلوغها. مشت في شوارع ضيّقة لا أرصفة لها، أرهفت أذنها لأدنى إشارة. كانت تجهل ماهيّتها. لكن هذه هي حال الإشارات: إنها مُدهشة، مموّهة في أمورنا اليوميّة. ردّها رذاذ المطر المتساقط على وجهها إلى الواقع، لا الواقع الذي أحاط بها، بل واقع أنّها حيّة، أنّها تسير بأمان تامّ في أزقّة مظلمة، وتصادف تجّار مخدّرات أتوا من سورينام ليعملوا هنا في العتمة. كانوا هؤلاء خطرًا حقيقيًا على زبائنهم، لأنّهم زوّدوهم بمخدّرات الشيطان، بالكوكايين والهيروين.

مرّت بساحةٍ أخرى. ففي هذه المدينة، خلاف روتردام، كان ثمّة ساحة تشغل كل ناصية من كلّ شارع. انهال المطر بغزارة، وفاضت

امتنانًا على امتلاكها قوّة على الابتسام، رغم الأفكار القاتمة التي استحوذت عليها في المقهى *coffee shop*.

مضت تُصلّي بصمت، تتلو صلاتها بلا كلمات لوثريّة أو كاثوليكيّة، تشكر الحياة التي اشتكت منها قُبَيل ساعات، تبجّل السموات والأرض، والشجر والحيوانات، التي فصلت، بمجرّد رؤيتها، تناقضات روحها ولفّت كلّ شيء بسلام عميق، لا ذاك السلام الذي نعرفه متى غابت التحدّيات، بل السلام الذي كان يُعدّها لمغامرة عزمت على خوضها مع رفيق درب أو من دونه. عَرَفَت يقينًا أنّ الملائكة تحرسها وتُنشد لها ألحاناً صامتة تدوّي في كيانها، رغم سكونها، وتغسل ذهنها من شوائب الفِكَرِ، وتوصلها من جديد بروحها، وتعلّمها أن تحبّ ذاتها، وإن لـم تعرف الحبّ من قبل.

لن أدع الشعور بالذنب يُخالجني لما خطر لي منذ قليل، ربـما راودتني تلك الأفكار بسبب الفلم، أو بسبب الكتاب...وإنّ كان ذلك نابعًا منّي ومن عجزي عن رؤية الجمال بي، فإنني أسألك المغفرة، أنا أحبكِ، وأشكرك على مرافقتي دومًا، أنتِ التي أنعمتِ عليّ بوجودك، التي تُنجّيني من تجربة الملذّات ومن الخوف من الألم.

وعلى غير عادتها، انتابها الشعور بالذنب لما كانت عليه، لسكنها البلد الذي يضم أكبر تجمّع من المتاحف في العالم، لعبورها في هذه اللحظة بالذات أحد الجسور التي يبلغ عددها في المدينة ألفًا ومئتين وواحدًا وثمانين، للنظر إلى تلك المنازل الثلاثيّة النوافذ الأفقيّة الجانبيّة (اقتصرت على ثلاث، فما زاد على هذا العدد، اعتُبر مصدر تباهٍ ومحاولة لإذلال الجار). كانت فَخورة بالقوانين التي رعت شعبها، وبتاريخهم كملاّحين، حتّى ولو تجاهلهم الجميع من أجل الإسبان والبرتغاليين.

وعلى امتداد تاريخهم، لم يرتكبوا من الأخطاء سوى واحد: تبادل جزيرة مانهاتن مع الإنكليز. لكن ما من أحد مثالي.

فتح لها الحارس الليلي باب النُزل. دخلته بكلّ تؤدة، أغمضت عينيها، وفكّرت قبل أن تغفو في الشيء الوحيد الذي تفتقر بلادها إليه.

الجبال.

هذا بيت القصيد: ستذهب إلى حيث الجبال، بعيدًا عن هذه السهول الشاسعة اللامتناهية التي غزاها من البحر رجال أُولوُ العزم، أفلحوا في ترويض طبيعة جامحة أبت الخضوع.

قرّرت أن تستيقظ أبكر من عادتها. كانت جاهزة للخروج مرتدية ملابسها بحلول الساعة الحادية عشرة صباحًا، في حين أنّ من عادتها الخروج في الساعة الواحدة بعد الظهر. كان اليوم بحسب العرّافة هو اليوم المفترض للقاء رفيق الدرب المنتظر. ولا يمكن أن تكون العرّافة قد أخطأت؛ فقد دخلتا كلتاهما في انخطاف غامض، خارج عن سيطرتهما، على غرار أغلبيّة حالات الانخطاف. ما نطقت به ليلى من كلمات لم يخرج من فمها، بل من روح أسمى، شغلت حيّز مقصورتها كلّه.

كانت ساحة «دام» شبه مقفرة، هي التي خبرت احتشادها شيئًا فشيئًا بدءًا من الظهر. لكنّها، وأخيرًا!، لاحظت وجهًا جديدًا. لاحظت شعرًا عاديًّا كالآخرين، وسترة محدودة الرموز التي رقعت عليها (كان أكبرها علمًا تعلوه كلمة برازيل)، حقيبة ظهر مزركشة، يرجّح أنّها حيكت في أميركا الجنوبيّة. كانت تلك الحقائب، إلى جانب أوشحة البونشو والقبّعات البيروفيّة، رائجة بين الشباب الذين يجوبون العالم. كان يُدخّن

سيجارة، سيجارة عاديّة، ذلك أنّها تمكّنت من التحقّق منها بالمرور قربه، من دون أن تشتمّ رائحة غير رائحة التبغ.

كان منهمكًا بالعبث، ينظر حوله، وإلى المبنى في الجهَة المقابلة من الساحة وإلى الهيبيين حولها. يُرجّح أنّه رغب أن يُحدّث أحدهم، غير أنّ الخجل، الخجل المفرط، لاح في نظراته.

جلست على مسافة آمنة منه، بحيث تجعله على مرمى نظرها، ولا تدعه يغادر قبل أن تحاول عرض السفر عليه إلى نيبال. إذا كان قد جال البرازيل وأميركا اللاتينيّة، كما أوحت حقيبته، أفلن يرغب في الذهاب إلى مكان أبعد؟ بدا أنه من جيلها، وليست لديه خبرة واسعة، وسيكون إقناعه يسيرًا حتمًا. قلّما أبهت لوسامته أو قبحه، لبدانته أو ضعفه، لقِصَره أو طوله. كان جُلّ همّها أن تجد رفيقًا على درب مغامرتها الخاصّة.

كان باولو قد لاحظ الهيبية الفاتنة التي مرّت بقربه، لكن منعه خجله الشديد وافتقاره إلى الشجاعة من الابتسام لها. بدت مقاربتها صعبة، ربّما كانت في انتظار أحدهم، أو أرادت أن تتأمّل الصباح الرمادي الذي يُنبئ بهطول المطر.

حوّل انتباهه من جديد إلى المبنى أمامه، وهو تُحفة معماريّة حقّة، وصفها كتاب «أوروبا بخمسة دولارات في اليوم» أنّها قصر ملكي شُيّد على ١٣ ٦٥٩ وتدًا (ولحظ الدليل أيضًا أنّ المدينة بأكملها بُنيت على أوتاد، مع أنّ أحدًا لم يُلاحظ ذلك فعليًا). لم يكن ثمة حراس عند المدخل، حيث يدخل السيّاح ويخرجون حشودًا في طوابير. كان هذا القصر من الأماكن التي لم يفكّر البتّة في زيارتها أثناء وجوده هنا.

عندما نكون تحت الأنظار، نُحسُّ بذلك دومًا. وقد أحسّ باولو بأنّ الهيبّية الفاتنة التي تجلس الآن خارج حقل رؤيته تسرّح فيه نظرها. أدار رأسه، كانت فعلاً هناك، لكنّها همّت بمطالعة كتابها، لحظة تلاقي نظراتهما.

ما العمل؟ ظلّ يُردّد لنصف ساعة أنّ عليه النهوض، والجلوس إلى جانبها، كان هذا شائعًا في أمستردام، حيث يلتقي الناس من دون أن يُضطرّوا إلى الاستئذان، أو تقديم المبرّرات لمجرّد الرغبة في التحادث وتبادل التجارب. بعد مرور نصف الساعة، وبعد أن كرّر على نفسه للمرّة الألف أنّ

ليس لديه ما يخسره أبدًا، وأنّها لن تكون لا المرّة الأولى ولا الأخيرة التي يُصدّ فيها، نهض متوجّهًا إليها. ظلّت غارقة في كتابها.

رأت كارلا أنّه يقترب، الأمر الذي كان نادرًا، فهنا، يحترم الواحد حيّز الآخر. جلس إلى جانبها ونطق بأكثر الكلمات سخفًا في وضع مماثل:

ـ عفوًا.

نظرت إليه، وهي تنتظر الآتي الذي لم يأتِ. مرّت خمس دقائق غريبة قبل أن تقرّر المبادرة.

ـ علامَ العفو بالضبط؟

ـ على لا شيء.

مع ذلك، ولفرحتها وانفراجها، تفادى الحماقات المعتادة، كقول «آمل أنّني لا أزعجك» أو «ما هذا المبنى هناك؟» أو «يا لَجمالك!» (يعشق الأجانب استخدام هذه العبارة)، أو «من أي بلاد أنتِ؟» أو «من أين ابتعتِ هذه الملابس؟»، وسوى ذلك.

قرّرت أن تساعده قليلاً، فقد كانت مهتمّة به أكثر ممّا تصوّر.

ـ لمَ تضع شعار النبالة مع كلمة «البرازيل» على كمّك؟

لاحتمال أن أصادف برازيليين، لأنّني برازيلي. لا أعرف أحدًا في هذه المدينة، هكذا قد يساعدونني على لقاء أشخاص مشوّقين.

إذًا، هذا الشاب، الذي يبدو ذكيًا، بعينيه السوداوين اللتين تشعّان طاقة شديدة وتعبًا أشدّ، قد قطع الأطلسي للقاء مواطنين خارج بلده!

كانت قمّة السخافة، لكنّها شاءت أن تُعطيه بعض الاعتبار. أمكن لها أن تفتح موضوع نيبال على الفور ومتابعة الحديث، أو تعدل عن ذلك

نهائيًا، وتبدّل مكانها في الساحة، بذريعة أنّها على موعد مع أحدهم، أو أن ترحل ببساطة من دون شرح أو تقديم.

لكنّها آثرت ألاّ تحرّك ساكنًا، وكان لملازمتها المدعو باولو، وهو يدرس خياراته أن تغيِّر مسار حياتها تمامًا.

هكذا هي قصص الحبّ، حتّى ولو كانت لحظتها بمنأى عن التفكير في هذه الكلمة السريّة وبأخطارها. ها هما معًا. لقد صدقت العرّافة. كان العالم الداخلي والعالم الخارجي يندمجان بسرعة. ربّما انتابه إحساسها هو أيضًا، لكنّه بدا شديد الخجل، أو ربّما أراد من يشاركه في تدخين سيجارة حشيشة فحسب أو، أنه، وهذا هو الأسوأ، لم يرَ فيها سوى شريكة محتملة يصطحبها إلى «فوندل بارك» ويمارس معها الحب، ويفترقان، وكأنّ شيئًا لم يكن، باستثناء بلوغ رعشة الجماع.

لكن أنـّى لنا تحديد طبيعة إنسان في غضون دقائق؟ يُمكننا طبعًا أن نستشعر إن أوحى لنا أحدهم بالنفور، ونبتعد عنه سريعًا، لكن لم تكن هي الحال الآن بكلّ تأكيد. كان نحيلاً كمسمار، لكنّ شعره كان مغسولاً، لا بُدّ أنّه استحمّ صباح اليوم، فلا تزال رائحة الصابون تفوح من جسده.

ولحظة جلوسه قربها، وتفوّهه بتلك الكلمة البلهاء «عفوًا»، انتاب كارلا رخاء عميق، كما لو أنّها لـم تعد وحيدة. كانت معه، كان معها، وأدركا كلاهما ذلك، وإن لـم ينبس الواحد منهما للآخر ببنت شفة، وجَهِلا ما كان يجري بالضبط. كانت عواطفهما المكنونة في انتظار أن تتجلّى، لكنّها لـم تكن لتظلّ جمرًا تحت رماد. كانت كارلا وباولو يتحيّنان اللحظة المناسبة لإظهار مشاعرهما. تلك اللحظة التي تتلاشى فيها علاقات كثيرة كان بالإمكان أن تتحوّل إلى حب كبير، إما لأنّ أي روحين متى تلاقتا على وجه الأرض، عرفتا وجهتهما، فأخافهما ذلك، وإما لأنّنا

نصبّ كل تركيزنا في أمورنا بحيث لا ندع لهما مجالاً للتعارف. ننطلق سعيًا إلى «الأفضل» ونخسر بذلك فرصة العمر.

سمحت كارلا لروحها أن تتكشّف. أحيانًا يوقعنا كلام الروح في الخطأ، لأنّ الروح تغدر بنا أحيانًا، فهي ترتضي حالات لا تُشبهنا بشيء، تُحاول أن تُرضي العقل وتغفل عن الشيء الذي كانت كارلا تغوص إلى قاعه أكثر فأكثر، تغفل عن المعرفة. إنّ الأنا المرئيّة، الذات التي نظنّ أنّها ما نحن عليه، ليست سوى حيّز محدود، غريب عن الأنا الحقيقيّة. لهذا، يصعب على كثير من الناس الإنصات إلى همس الروح: يُحاولون السيطرة عليها لكي تسير تمامًا وفق مقرّراتهم، وفق رغباتهم وآمالهم ومستقبلهم وتوقهم أن يقولوا لأصدقائهم: «التقيت أخيرًا حبّ حياتي»، وخوفهم من أن ينتهي بهم المطاف وحيدين في دار عجزة.

لم يعد بوسع كارلا الادّعاء أكثر. وإذ جَهِلَت كُنه مشاعرها، حاولت ترك الأمور على ما هي، من دون الإسهاب في التفسير أو التبرير. أدركت أن عليها، في النهاية، أن ترفع الحجاب عن قلبها، لكنّها لم تكن تعرف كيف، ولم تكن لتكتشف ذلك قريبًا. كان الأمثل أن تُبقي باولو على مسافة آمنة لتتبيّن كيف ستجري الأمور بينهما في الساعات أو الأيام أو السنوات المقبلة، لا، ليس السنوات، لأنّ قدرها كان في كهف في كاتماندو، حيث ستكون وحدها، في تواصلٍ مع الكون.

أما روح باولو، فلم تكن قد تكشّفت بعد، ولـم يكن في وسعه أن يحزر إذا كانت هذه الفتاة ستختفي بين لحظة وأخرى. لـم يعد يعرف ما يقوله، ولزمت هي الصمت. حل صمتٌ قَبِلَه كلاهما. سدّد كل منهما بصره إلى الأمام من دون أن ينطق بكلمة. حولهما، كان الناس يتوجّهون إلى مقاصف الوجبات السريعة وإلى المطاعم، وكانت عربات الترام المكتظّة تمرّ أمامهما، غير أنّ أعينهما تاهت في الـمُبهم، وكانت عواطفهما في بُعدٍ آخر.

ـ أتودّ تناول الغداء؟

أخذ باولو سؤالها كدعوة فاجأته وأدهشته. لـم يستوعب أن تعرض عليه فتاة بهذا الجمال تناول الغداء معها. وهذه بداية طيبة في أمستردام تتّخذ منحى جميلًا.

لـم يكن قد تصوّر شيئًا مماثلاً من قبل، ويبدو أن الأمور متى حدثت بلا تخطيط وبلا توقّعات، تُصبح مُستساغة ومُجدية. وإذا تحدثت مع فتاة غريبة، من دون أيّ غاية رومنسيّة مبطّنة، يتدفّق كلّ شيء سلسًا وطبيعيًا.

أكانت وحدها؟ كم من الوقت سيبقى مثار اهتمامها؟ ماذا عليه أن يفعل ليُبقيها إلى جانبه؟

لا شيء. تبخّر دفق الأفكار الغبيّة هذا في الفضاء. ومع أنّه تناول الطعام

منذ قليل، قَبلَ دعوتها. أَمِلَ فقط ألاّ تختار مطعمًا مكلفًا كثيرًا، إذ ينبغي لمدّخراته أن تكفيه سنة كاملة حتّى تاريخ تذكرة العودة.

أيها الحاجّ، مشتّتٌ أنتَ، فاهدأ.
فليس كلّ مدعوٍ مُختارًا،
وليس كلّ امرئ ينام قرير العين،
أو يرى ما ترى الآن.

علينا التشارك طبعًا، حتّى وإن كان في أمرٍ نعلمه جميعًا. من المهمّ ألاّ ننجرف مع أفكارنا الأنانيّة بأن نكون الشخص الوحيد الذي سيبلغ منتهى الرحلة. ومن يفعل ذلك، سيجد جنّة خاوية، تخلو ممّا يسترعي الاهتمام، وسرعان ما سيجد نفسه في ضجر قاتل.

يجب ألّا نستحوذ على القناديل التي تُنير دروبنا ونحملها معنا.

متى فعلنا ذلك، نملأ حقائبنا بالقناديل، لكن لن يملأ كلّ هذا النور الذي نحمله فراغ الرفقة التي إليها نفتقر. فبمَ يُفيدنا ذلك؟

لم يستطع باولو أن يُسكّن ذهنه. شعر بالحاجة أن يخطّ كلّ ما كان يدور من حوله: ثورة بلا أسلحة، طريق بلا رقابة على الجوازات، ولا منعطفات خطيرة. عالمٌ أصبح يانعًا فجأة، بمعزل عن أعمار الناس وقناعاتهم السياسيّة أو الدينيّة. أشرقت الشمس، كما لو أنها تُعلن عودة النهضة، تُغيّر عادات الجميع وأعرافهم. وذات يوم وشيك، لن نعود رهن آراء الآخرين، بل رهن طريقتنا الخاصّة في النظر إلى الحياة.

أشخاصٌ يرتدون الأصفر يرقصون ويُنشدون في الشوارع، ثياب ملوّنة، فتاة تقدّم الورد إلى عابر، ابتسامات على كلّ ثغر... نعم، سيكون الغد

أفضل، رغم كل ما كان يجري في أميركا اللاتينيّة وسواها من البلدان. سيكون الغد أفضل، لمجرّد أنّ الخيارات ستنتفي، أن لا سبيل للعودة إلى الماضي وترك التزمّت والخبث والنفاق، تستولي من جديد على أيام سكّان هذه الأرض ولياليهم. استحضر جلسة الطرد في القطار وآلاف الانتقادات التي مابرحت تنهال عليه من الجميع، أقرباء وغرباء. استحضر ألم والديه ورَغِبَ في مهاتفتهما الآن ليقول لهما:

لا تقلقا، أنا سعيد، وستفهمان قريبًا لماذا لم أُولد لأرتاد الجامعة وأحوز شهادة وأجد عملاً. وُلدتُ لأكون حرًا ويُمكنني أن أحيا هكذا. سيشغلني دومًا نشاط ما، سأجد دومًا وسيلة لجني المال، ويمكنني دومًا أن أتزوّج وأؤسّس عائلة، لكن ليس اليوم. اليوم هو وقت أن أحاول عيش الحاضر فقط، في الهُنا والآن، بفرح الأولاد الذين خصّهم يسوع بملكوت السموات. إن اقتضى الأمر أن أصبح فلاّحًا، فسوف أفعل من دون تذمّر، سوف يُتيح لي ذلك أن أتواصل مع الأرض والشمس والمطر. وإن اقتضى الأمر أن أُمسي أسير مكتب، فسوف أفعل من دون تذمّر، لأنّني سوف أحظى بآخرين إلى جانبي، سنشكّل مجموعة، مجموعة تكتشف كم من الممتع الجلوس إلى طاولة والتحادث والصلاة والضحك عند نهاية اليوم، لكي تفضّ عنها كلّ أوقات بعد الظهر تلك من العمل المتواتر. وإن اقتضى الأمر أن أكون وحيدًا، فسوف أكون وحيدًا، وإن أُغرمتُ وقرّرت الزواج، فسوف أتزوّج، لأنّني على يقين بأنّ زوجتي، التي ستكون حبّ حياتي، ستقبل فرحي كأكبر النعم التي يُمكن لرجل أن يُغدق بها على امرأة.

توقّفت الفتاة إلى جانبه لشراء بعض الأزهار. وبدل أن تحملها، جعلتها على

شكل تاجين، وضعت أحدهما على رأسه، والآخر على رأسها. كانت هذه الحركة أبعد من أن تبدو سخيفة، كانت طريقة للاحتفاء بالانتصارات الصغيرة في الحياة، كما احتفى الإغريق منذ قرون بالمظفرين والأبطال منهم، بأكاليل ليست من ذهب، بل من غار. قد تكون ذبلت، لكنّها كانت خفيفة، ولم تستدعِ التيقّظ الدائم لتيجان الملوك والملكات. صادف باولو وكارلا أشخاصًا كثيرين ممّن اعتمروا هذا النوع من التيجان، وبدا كلّ شيء أجمل.

كان ثمة عازفون يعزفون على المزمار والكمان والغيتار والسيتار، التي شكّلت أنغامها مقطوعة موسيقيّة مشوّشة، لكنّها كانت في تناغم طبيعي مع شارع كهذا بلا أرصفة، شأنه شأن معظم شوارع هذه المدينة، التي كانت تعجّ بالدرّاجات الهوائيّة، بتباطؤ الزمن وتسارعه، وكان باولو يخشى أن تكون الغلبة للتسارع، فينتهي هذا الحلم.

لم يكن باولو، في هذه اللحظة، يرتاد شارعًا، بل كان في منام، وكان حيث الأشخاص الذين هم من لحم ودم، يتخاطبون بلغات غير مألوفة، وينظرون إلى المرأة الماثلة قربه ويبتسمون لجمالها. تبادلهم الابتسامة، فتتّقد فيه غيرة سرعان ما تخبو أمام شعوره بالفخر بأنّها اختارته هو رفيقًا لها.

كان بين الحين والحين يقترب منهم، لشراء البخّور، والأساور، والسّتَر المزركشة المصنوعة على الأرجح في البيرو أو في بوليفيا. رغب باولو في شراء كلّ شيء، لأنّ الناس ظلّوا يبادلونه الابتسامة، لم يستاءوا، لم يُلحّوا، خلافًا للباعة في المتاجر. لو اشترى شيئًا بسيطًا، لربّما أتاح لهم قضاء نهار أو ليلة إضافية في هذه الجنّة. لكنّه في صميمه، كان على يقين بأنّ الجميع

يعرفون كيف يحافظون على بقائهم في هذا العالم، وأن عليه أن يقتصد في إنفاقه، ويجد مصدر رزق في هذه المدينة، إلى أن تُلقي تذكرة السفر بثقلها على محفظته المشدودة إلى حزامه، المخبّأة حول خصره، مُعلنةً أنّ الساعة قد أزفت للاستيقاظ من الحلم والعودة إلى الواقع.

هذا الواقع الذي تبدّى أحيانًا في تلك الشوارع وتلك المتنـزّهات، على طاولات صغيرة ارتفعت خلفها ملصقات تُظهر الفظاعات المرتكبة في فيتنام، ومنها صورة لجنرال يُعدم أحد أعضاء جبهة «فييت كونغ» بدم بارد. وكان قد طُلب إلى المارّة أن يُوقّعوا فحسب على عريضة، ولم يُمانع أحد.

أدرك لحظتها أنّ الدرب لا تزال طويلة أمام النهضة لكي تسيطر على العالم. لكنّها بدأت، نعم بدأت. ولن ينسى أيٌّ من هؤلاء الشباب، وهم جمع غفير في هذا الشارع، كيف كان يعيش آنذاك، وأنه حين يعود إلى وطنه، سيُبشّر بالسلام والحبّ. ذلك أن حلول عالم جديد كان ممكنًا، عالم مُحرَّر أخيرًا من الاضطهاد والحقد والأزواج الذين يضربون زوجاتهم، والجلّادين الذين يُعلّقون الناس رأسًا على عقب، ويقتلونهم ببطء بـــ....

... كان حسّ العدل لا يزال نابضًا فيه، والظلم الذي ساد في العالم يهزّ كيانه، لكنّه الآن في حاجة أن يستريح ويستعيد قواه. فقد بذّر جزءًا من شبابه في الخوف من كلّ شيء، وقد حلّت لحظة الادّثار بالشجاعة في مواجهة الحياة والدرب المجهولة التي كان سيتبعها.

دخلا متجرًا من عشرات المتاجر التي كانت تبيع الغلايين والأوشحة المتعدّدة الألوان وتماثيل قدّيسي الشرق، والرموز التي يُمكن ترقيع الثياب بها. اشترى باولو ما كان يبحث عنه: حزمة من دبابيس الزينة الحديديّة الصغيرة التي لها شكل نجمة، والتي سوف يثبّتها بسترته لدى عودته إلى النُزل.

في أحد المتنـزّهات الكثيرة في المدينة، كانت ثلاث فتيات عاريات الصدر يتأمّلن، وقد أغمضن جفونهنّ، وجلسن في وضعيّة من وضعيّات اليوغا باتجاه الشمس التي كانت ستختفي قريبًا خلف السُحب، وتخبو موسمَين لترجع في الربيع. وفيما عَبَرَ المكان، أمعن النظر، ووجد ساحة البلدة تعجّ بأشخاص أكبر سنًا، عائدين من أعمالهم أو ذاهبين إليه، أشخاص لم يتكبّدوا حتّى عناء النظر إلى الفتيات الثلاث. هنا، لم يكن العري يُقابَلُ بالحظر أو العبوس، فكلّ امرىء كان سيّد جسده، وله أن يفعل به ما يشاء.

أمّا الأقمصة القصيرة الأكمام، فكانت أشبه بلوحات إعلانات متنقّلة، طُبع بعضها بصورة لمعبود، أمثال جيمي هيندركس، جيم موريسون، جانيس جوبلين، غير أنّ معظمها أعلن عن قدوم النهضة:

اليوم هو اليوم الأول من بقيّة حياتك.
حلم بسيط لأقوى من ألف واقع.
خلف كلّ حلم عظيم، حالم.

استوقفته الجملة الآتية تحديدًا:

الحلم أمر لا يُمكن التنبّؤ به، وهو خطير على أولئك الذين لا يتحلّون بالشجاعة ليحلموا.

صحيح. كان هذا ما لم يُجزه النظام، لكنّ الحلم سينتصر في النهاية، قبل هزيمة الأميركيين في فيتنام.

كان مؤمنًا. كان قد اختار جنونه وينوي الآن الاسترسال فيه، ملازمته، حتّى يسمع الدعوة تناديه لفعل ما يُسهم في تغيير العالم. كان

حلمه أن يصبح كاتبًا، لكن لم يزل الأمر مبكرًا على ذلك الآن. لم يكن على يقين بأنّ للكتب تلك القدرة على التغيير، لكنه سيبذل قصاراه ليُظهر للآخرين ما عجزوا عن رؤيته.

بيد أنه كان متيقّنًا من أنّ كلّ عودة مستحيلة، وليس هناك إلاّ درب النور من الآن فصاعدًا.

التقى ثنائيًا برازيليًا: تياغو وتابيتا، اللذين لاحظا العلم على سترته وعرّفاه بأنفسهما.

قالا له قبل أن يدعواه إلى مكان عيشهما: ـ نحن أبناء الله.

أَلسنا جميعًا من أبناء الله؟

بلى، لكن هم اتّبعوا عقيدة اختبر مؤسّسها رؤيا. سألاه إن كان يودّ معرفة المزيد.

ردّ باولو أنّه يودّ ذلك طبعًا. فعندما ستتركه كارلا مساءً، سيكون لديه أصدقاء جدد.

لكن ما إن ابتعدا، حتى أمسكت كارلا بالرقعة الموضوعة على سترته، وانتزعتها عنها.

ـ سبق أن اشتريت من المتجر ما كنت تبحث عنه. النجوم أجمل كثيرًا من الأعلام. إذا أردت، سوف أساعدك على وضعها بشكل صليب مصريّ، أو بشكل رمز السلام.

ـ لم يكن من داع أن تفعلي ذلك. كان يمكنك سؤالي وتركي أقرّر

إن كنتُ أُريد الإبقاء عليها أو نزعها عن كُمّي. أحبّ بلادي وأكرهها، لكن هذا يخصّني. لم يمضِ على تلاقينا وقتٌ. فإذا كنت تخالين أن بإمكانك أن تُملي عليّ ما أفعل، وأن تصدري أوامرك، وتخالين أنّني أعتمد عليكِ لأنّك الشخص الوحيد الذي التقيته هنا، فحريّ بنا أن نفترق الآن. لن يكون من الصعب أن أجد وحدي مطعمًا غير مُكلف.

كانت نبرة صوته قد خَشُنت. واستحسنت كارلا، التي أخذها على حين غرّة، ردّ فعله هذا. لم يكن غبيًا يُذعن إلى ما يُمليه عليه الآخرون، حتّى ولو كان في مدينة يجهلها. لا بُدّ من أنّه عانى في حياته.

ردّت الرقعة إليه.

ـ ضعها في مكان آخر إذًا. من قلّة الأدب أن تحكي لغة لا أفهمها، ومن نقص الخيال أن تكون قد جئت إلى هنا من مكان بعيد لتتعرّف أشخاصًا أمكنك تعرّفهم حيث أتيت. فإذا تكلّمتَ البرتغاليّة من جديد، سوف أتكلّم الهولنديّة، وأعتقد أنّ هذا سيقضي على الحوار بيننا.

لـم يكن المطعم رخيصًا فحسب، بل كان «مجانيًا»، هذه الكلمة السحريّة التي تجعل كلّ شيء ألذّ طعمًا.

ـ من يدفع مقابل كلّ هذا؟ أهي الحكومة؟

ـ لا تسمح الحكومة الهولّندية بأن يعرف أيّ من مواطنيها الجوع. لكن في هذه الحالة، يأتي المال من جورج هاريسون الذي تبنّى دِيننا.

أصغت كارلا إلى الحديث بمزيج من الاهتمام الكاذب والضجر الواضح. وواقع أنّه لم ينطق بكلمة، وهما يسيران، أكّد أقوال العرّافة: كان هذا الشاب الرفيق المثالي لرحلتها إلى نيبال. لـم يكن مهذارًا، لـم يسعَ إلى فرض رأيه، لكنّه كان يعرف تمامًا كيف يدافع عن حقوقه، كحاله مع قصّة الرقعة. لـم يبقَ أمامها سوى تحيّن اللحظة المناسبة لطرح الموضوع.

توجّها إلى البوفيه، وأترعا طبقيهما بملذّات نباتيّة شتّى، وهما يُصغيان إلى أحد الأشخاص الذين ارتدوا البرتقالي وعرّفوا عن هويّتهم للوافدين الجدد. لا بُدّ من أنّهم كانوا كثيرين. وكان تحويل معتنق الناس في ذاك الزمن أمرًا سهلاً جدًّا، خصوصًا وأنّ أهل الغرب عشقوا كلّ ما جاء من أرض الشرق الغريبة.

قال أحدهم، وقد بدا أكبرهم سنًا: «لا بُدّ من أنّكم التقيتم أفرادًا من مجموعتنا في طريقكم إلى هنا». كان ذا لحية بيضاء، وعلى وجهه

هيئة القداسة كمن لم يرتكب إثمًا في حياته برمّتها. تابع: «الاسم الأصلي لديانتنا صعب جدًا، لذا يُمكنكم أن تلقّبونا ببساطة بـ «هاري كريشنا». نُعرَف بهذا الاسم منذ قرون، إذ نؤمِن بأنّ ترداد هاري كريشنا، هاري راما، يُمكنه أن يُفرغ أذهاننا، ويُنفذ الطاقة إليها. نحن نؤمن بأن الكلّ واحد، وبأننا نتشارك في روح واحدة، وبأنّ كل قطرة نور تدخلها تنتشر إلى الزوايا المعتمة التي تحيط بها وتُنيرها. هذا كلّ ما في الأمر. يُمكن لمن يريد ذلك أن يأخذ كتاب البهاغافادجيتا لدى خروجه، وملء استمارة طلب انتسابه رسميًا. لن ينقصكم شيء، لأنّ هذا كان وعد الربّ المستنير قبل المعركة الكبرى، عندما شعر أحد المقاتلين بالذنب لانخراطه في حرب مدنيّة. أجابه الربّ المستنير أن لا أحد قاتل ولا أحد مقتول، أنّ عليه أن يؤدّي واجبه فحسب، وأن يقوم بما أُمِرَ به».

تناول الرجل نسخةً من الكتاب المذكور. حدّق باولو إلى المعلّم الروحيّ باهتمام، وحدّقت كارلا إلى باولو باهتمام، مستغربة أنّه لم يسمع بكلّ هذا من قبل.

«يا ابن كونتي *Kunti*، إمّا أنّك ستموت في ميدان القتال وتُحمَل إلى الأجرام السماويّة، وإما أنّك ستهزم أعداءك وتظفر بالمملكة الدُنيويّة. لذا، بدل أن تسأل قم بعزمٍ وقاتل».

أغلق المعلّم الكتاب.

«هذا ما علينا فعله. بدل أن نهدر وقتنا في القول «هذا صالح» و«هذا طالح»، علينا أن نحقّق قضاءنا وقَدَرنا. إنّه القدر الذي جاء بكما إلى هنا اليوم. يُمكن لمن يريد أن يرقص ويُغنّي معنا في الشارع بُعيد انتهائنا من تناول الطعام».

برقت عينا باولو، ولم تحتج كارلا إلى كلام يُقال. لقد فهمت كلّ شيء.

ـ أنتَ لا تنوي الانضمام إليهم، أليس كذلك؟

ـ بلى، بكلّ تأكيد، فلم يسبق لي أن رقصت وغنّيت في الشوارع هكذا.

ـ أتعلم أنّهم يحظّرون الجنس قبل الزواج، ويُجيزونه بهدف التكاثر فقط وليس اللذّة؟ أتعتقد أنّ مجموعةً تدّعي التنوير قادرة على نبذ فعل جميل كهذا وتحريمه وإدانته؟

ـ لا أفكّر في الجنس بل في الرقص والموسيقا. مضى وقت طويل على استماعي إلى الموسيقا، على الغناء، وهذا ثقب أسود في حياتي.

ـ يُمكنني اصطحابك هذا المساء للغناء والرقص.

لـمَ كانت هذه الفتاة توليه هذا القَدْر من الاهتمام؟ أمكن لها أن تجد من أرادت من الرجال، متى أرادت. تذكّر الأرجنتيني: لعلّها في حاجة إلى من يساعدها على أداء عمل لم يسترعِ اهتمامه البتّة. قرّر أن يجسّ نبضها:

ـ أتعرفين بيت الشمس الشارقة؟

حمل سؤاله ثلاثة مضامين: أولاً، هل تعرف أغنية «The House of the Rising Sun» لـ «ذا أنيمالز»؟ ثانيًا، هل تعرف معنى الكلمات. ثالثًا، هل تودّ الذهاب إلى هناك؟

ـ كُفَّ عن هذا الهراء.

هذا الفتى الذي رأت فيه أول الأمر شابًا ذكيًا وفاتنًا ومقتضبَ الحديث ويسهل التحكُّم به، بدا أنّه قد أساء فهم كلّ شيء. ومهما يبدُ ذلك صعب التصديق، فقد كانت في حاجة إليه أكثر من حاجته إليها.

ـ جيد جدًا. اذهب برفقتهم، سألحق بك على مسافة. سنلتقي في النهاية.

رغبت أن تضيف: سبق لي أن تخطّيتُ مرحلة هاري كريشنا، لكنّها لجمت نفسها لئلا تُخيف فريستها.

كانت متعة فائقة أن تثب وتقفز إلى الأمام والوراء وتغنّي بأعلى صوتك، متتبّعًا أولئك الأشخاص الذين لبسوا البرتقالي، وقرعوا الأجراس الصغيرة، وبدوا أنّهم ينعمون بسلام داخلي. انضمّ خمسة آخرون إلى المجموعة، وكَبِرَ الموكب وهو يمضي قُدُمًا في الشوارع. بين الحين والحين، كان باولو يلتفت إلى الوراء ليرى إن كانت كارلا لا تزال تسير خلفه. لم يُرِد أن يضيعها، فقد كان تقاربهما من الغموض بمكان، وكان لا بُدّ من صونه. لم يكن مفهومًا البتّة، لكنّه كان مُصانًا. نعم، كانت هناك، على مسافة آمنة خلفه، لئلّا تُنسب إلى أولئك الرهبان، أو الرهبان المبتدئين. كانا يتبادلان الابتسامات كلّما التقت نظراتهما.

ثمّة رابط ينعقد بينهما، أخذت أواصره تشتدّ.

تذكّر حكايةً من طفولته، «زمّار هاملن»، حيث قرّر بطل الحكاية الانتقام من البلدة التي أخلّت بعهد تسديد أجره مقابل تخليصه لها من الجرذان، فقرّر شدّ أطفالها وسوقهم بعيدًا بقوّة موسيقاه. هذا ما يحدث الآن: رجع باولو طفلاً يرقص وسط الشارع، لم يعد هو الذي صرف سنواتٍ غارقًا في كتب السحر، في ممارسة طقوس معقّدة ظانًا أنّه كان يدنو من تجسّد ذاته الحقيقيّة. لعله فعل حقًا، أو لم يفعل، مهما يكن، فقد ساعده الرقص والغناء على بلوغ الحالة الذهنيّة نفسها.

ولشدّة ترداد المانترا والوثب، راح يبلغ حالة انتفت معها أهميّة الفكر

والمنطق والشارع. كان رأسه فارغًا تمامًا، ولـم يكن يرجع إلى الواقع إلا بين الحين والحين ليتثبّت من لحاق كارلا به. نعم، لا تزال هناك، وكم يُستحسن أن تظلّ هناك، في حياته، طويلاً، حتّى ولو لـم يمضِ على تعارفهما سوى ثلاث ساعات....

كان واثقًا بأنّها تبادله الإحساس، وإلاّ لكانت ببساطة تخلّت عنه في المطعم.

أخذ يفهم كلام «كريشنا» الموجّه إلى المقاتل «أرجونا» قبل خوض المعركة. لـم تكن مماثلة تمامًا لتلك التي في الكتاب، لكن في روحه:

قاتل، عليك بالقتال لأنّك تواجه معركةً.

قاتل لأنّك في سلام مع الكون، مع الكواكب، مع الشموس المتفجّرة، مع النجوم الخابية الآفلة إلى الأبد.

قاتل لتحقّق قدرك، من دون أن تفكّر في الأرباح أو الخسائر أو الاستراتيجيّات أو الانتصارات أو الهزائم.

لا تسعَ إلى إرضاء نفسك، بل إلى إرضاء الحب الأعظم الذي لا يقدّم إليك سوى تواصل وجيز مع نظام الكون، ويستوجب بالتالي فعل تفانٍ كامل، من دون شكوك، من دون تساؤلات، أحبّ لتحبّ لا أكثر.

حبّ لا يُدين بشيء لأحد، ولا يتوجّب عليه شيء، يُسرّ لوجوده ببساطة وبقدرته على التجلّي.

بلغ الموكب ساحة «دام»، وأخذ يدور فيها. قرّر باولو أن ينشقّ عنه لكي ترجع إلى جانبه الفتاة التي تعرَّف إليها. بدت مختلفة، أكثر استرخاءً،

أكثر اطمئنانًا في حضرته. خفت حرّ الشمس، ولا بُدّ أنّه لن يرى الفتيات العاريات الصدر من جديد. لكن بدا كلّ شيء يحدث بعكس ما توقّع. إلى يسار مجلسهما، لاحظا أنوارًا ساطعة، وبما أنه لم يكن من شاغل يشغلهما قرّرا التوجّه إلى هناك لرؤية ما يحدث.

انعكست الكشّافات الضوئيّة على جسد عارضة أزياء، عاريةً تمامًا، حملت في يدها زهرة توليب سترت بها عورتها. شكّلت المِسلّة في وسط «دام» خلفيّةً لها. سألت كارلا أحد المساعدين عمّا يجري.

ـ إعلان مصوّر لوزارة السياحة.

ـ وهذه هي هولندا التي تبيعونها للأجانب؟ مكانٌ يتمشّى فيه الناس عراة؟

ابتعد المساعد من دون أن يُجيبها. أخذ الفريق استراحة من جلسة التصوير. دخلت فنّية التبرّج على المشهد لتضع اللمسات الأخيرة على النهد الأيمن للعارضة، فتوجّهت كارلا إلى مساعد آخر. كرّرت عليه سؤالها. توسّل إليها الرجل، المتوتّر نوعًا ما، ألاّ تقاطعه. لكن عرفت كارلا مراده.

ـ تبدو متوتّرًا. ما الذي يقلقك؟

أجاب المساعد، وقد أراد التخلّص من هذه الفتاة المتطاولة: ـ الضوء. سوف يغيب الضوء سريعًا. وبعد قليل ستتوشّح الساحة بالظلام.

ـ أنتَ لستَ من هنا، أليس كذلك؟ نحن في بداية الخريف ويظلّ الضوء حتّى السابعة مساءً. أضف إلى ذلك أنني أمتلك القدرة على إيقاف الشمس.

نظر إليها الرجل متفاجئًا. لقد نجحت في الحصول على مرادها، فقد شدّت انتباهه.

ـ لـمَ تنتجون إعلانًا مصوّرًا لامرأة عارية تُغطّي عورتها بزهرة التوليب؟ أهذه صورة هولندا التي تريدون إظهارها للعالم أجمع؟

أجابها بغيظ مبطَن:

ـ عن أيّ هولندا تتكلَمين؟ من قال إنّنا في هولندا، البلد الذي تتوسط منازله نوافذ منخفضة وستائر مخرّمة تسمح للجميع بمشاهدة ما يجري في الداخل؟ ما من أحد يرتكب الإثم، وحياة كلّ أسرة أشبه بكتاب مفتوح؟ هذه هي هولندا يا عزيزتي: بلد بقبضة الكالفينيين، حيث الجميع آثمون حتّى ثبوت العكس، حيث الإثم يعشّش في القلب، في الروح، في الجسد، في الوجدان. وحيث لُطف الله وحده قادر على خلاص بعضها، لكن ليس كلّها، المختارين فقط. أنتِ من هنا، ولـم تفهمي ذلك بعد؟

أشعل سيجارة مُحدّقًا إلى الشابّة، التي استحالت وقاحتها السابقة خشيةً.

ـ لكن، يا صغيرتي، نحن لسنا في هولندا، بل في أمستردام، حيث المومسات خلف الواجهات، والمخدّرات في الطرقات. أمستردام، التي يُحيط بها نطاقٌ صحّي خفي. والويل لمن يتجرّأون على الخروج بهذه الأفكار عن المدينة. ليس فقط سيفقدون الترحيب بهم، بل سيتعذّر عليهم إيجاد ولو غرفة في فندق، ما لـم يكونوا متأنّقين. تعرفين هذا، أليس كذلك؟ لذا، من فضلك، ابتعدي ودعينا نقوم بعملنا.

كان هو من ابتعد، تاركًا كارلا مع ذهولها، كما لو أنّها تلقّت صفعة للتوّ. حاول باولو مواساتها، لكنّها تمتمت لنفسها:

«هذا صحيح. أنه محقّ. هذا صحيح».

كيف؟ فحتّى الحارس الجمركي على الحدود يضع قرطًا على إذنه!

قالت: ـ حول هذه المدينة جدار خفي، تُريدون أن يجنّ جنونكم؟ إذن سنجد مكانًا يُمكن للجميع فيه أن يفعلوا ما يشاؤون، لكن لا تتجاوزا هذه الحدود، وإلاّ سوف يجري إيقافكم بتهمة الإتجار بالمخدّرات، حتّى ولو كنتم تستهلكونه فقط، أو بتهمة التعدّي على الحشمة، فارتداء حمّالة صدر والحفاظ على الحشمة والآداب أمر واجب لكي يتمكّن هذا البلد من التقدّم.

أخذت الدهشة باولو. وهمّ بالابتعاد.

ـ عُد إلى هنا الليلة عند التاسعة. فقد وعدتك باصطحابك للاستماع إلى موسيقا حقيقيّة، والرقص.

ـ لكنّك لست مضطرّة إلى ذلك.

ـ بلى طبعًا. ولا تخذلني، فما من رجل تخلّى عنّي يومًا وهرب.

ساور الشكّ كارلا. ندمت لأنّها لم تُشارك في الرقص والإنشاد في الشارع، فربّما كان ذلك ليقرّب بينهما أكثر. لكن في النهاية يحتاج كلّ ثنائي إلى المجازفة.

ثنائي؟

غالبًا ما كانت تسمع الآخرين يقولون: «صرفتُ حياتي أصدّق كلّ ما يقوله لي الناس، وينتهي بي الأمر خائبًا. أحدث ذلك لك يومًا؟».

بالطبع حدث، لكنّها الآن، وقد بلغت الثالثة والعشرين، تعلّمت كيف تكون حذرة. والخيار الوحيد الآخر الذي كان أمامها عدا الوثوق بالناس، كان تحويل نفسها إلى كائن دائم التأهّب، عاجز عن الحبّ، يتّخذ القرارات، ويُلقي بالملامة على الآخرين إزاء كلّ سوء يصيبه. لكن ما جدوى العيش هكذا؟

عندما نثق بذواتنا، نثق بالآخرين. لأنّنا نعرف في الصميم أنّ يومَ سيلحق بنا الغَدر، وسوف يحدث ذلك، لأنّها طبيعة البشر، سيكون البدء من جديد ممكنًا. وهذا بالضبط جزء من متعة الحياة: أن نجازف.

كان «باراديسيو»، هذا الاسم الموحي، اسم نادي السهر الذي دعت كارلا باولو إليه وكان في الحقيقة... كنيسة. كنيسة من القرن التاسع عشر شُيّدت أساسًا لتؤوي مجموعة من أتباع ديانة محلّية استنتجت منذ منتصف العام ١٩٥٠ أنّها لم تعد تستقطب الكثير من الأتباع، رغم أنّها بشّرت بنوع من الإصلاح اللوثري. وفي العام ١٩٦٥، وبسبب تكاليف الصيانة، قرّر من تبقّى من المؤمنين هجر المبنى، الذي شَغَلَهُ الهيبّيون بعد عامين. وقد وجدوا في الصحن الرئيسي للكنيسة المكان المثالي للتداول في الأمور وتنظيم ورش العمل والحفلات الموسيقيّة والأنشطة السياسيّة.

بعد فترة وجيزة، طردتهم الشرطة، لكن بقي المكان مهجورًا، وعاد الهيبيون في جحافل، وقد أعطوا الشرطة خيارًا واحدًا: إما أن يطردوهم بالقوة والعنف، وإما أن يدعوهم يمكثون. أسفرَ اتّفاق بين ممثّلي الفاسقين الكَثّي الشَعر، وممثّلي البلديّة المتأنّقين على أكمل وجه، عن السماح للهيبّيين بتشييد مسرح مكان المذبح القديم شرط أن يؤدّوا الضرائب عن كلّ بطاقة مبيعة، وأن يراعوا نوافذ الكنيسة الزجاجيّة المزخرفة القائمة خلفه.

وطبعًا، لم تؤدّ الضرائب قط. زعم الهيبيون أنّ الأنشطة الثقافيّة كانت تأتي بخسارة، وبدا أنّ الجميع لا يبالون بذلك أو بالتعرّض للطرد من جديد. في الوقت نفسه، أبقوا على الزجاج الملوّن المزخرف نظيفًا،

وكانوا يُصلحون أدنى تشقّق بواسطة الرصاص والزجاج الملوّن، وواظبوا بذلك على إظهار مجد «ملك الملوك» وجماله. ومتى سُئلوا لمَ أوليتموها هذا القدر من العناية؟ كان المسؤولون يُجيبون:

«لأنّ النوافذ جميلة. ولأنّ تصميمها وصُنعها وتركيبها، استوجبت الكثير من العمل. نحن هنا لنُظهر فنّنا، ونحن نحترم فنّ من سبقونا».

عندما دخلا، كان الناس يرقصون على أنغام إحدى الأغاني الذائعة حينذاك. لم يؤمّن السقف الشاهق العلو تردّدًا صوتيًا جيدًا، لكن ما الهمّ؟ هل فكّر باولو في أجهزة صوت عندما أنشد هاري كريشنا في الشوارع؟ المهمّ أنّ الجميع كانوا يبتسمون، يضحكون، يُدخّنون، يتبادلون نظرات الإغواء أو مجرّد الإعجاب. حينها، لم يعد يتوجّب أي رسم دخول أو تسديد ضريبة: فقد أخذت الحكومة المحلّية على عاتقها الحيلولة دون خروجهم عن القانون، ووجوب الاعتناء بالمكان، مُخصّصة لهم إعانة لذلك.

وفضلًا عن المرأة العارية التي تغطّي زهرة التوليب عورتها، انصبّ اهتمام المسؤولين على تحويل أمستردام إلى عاصمة ثقافيّة من نوع محدّد. أعاد الهيبّيون إحياء المدينة. وبحسب كارلا، فقد ازداد الإقبال على الفنادق: أراد الجميع أن يشاهدوا هذه القبيلة التي لا زعيم لها، بنسائها المستعدّات على الدوام لممارسة الحبّ مع أوّل المُقبلِين. وهو زعم خطأ طبعًا.

ـ الهولنديون أذكياء.

ـ بالطبع نحن أذكياء. لقد غزونا العالم في الماضي، بما فيه البرازيل».

صعدا إلى إحدى الشرفات التي كانت على مدار الصحن الرئيسي. وللعجب، كان التردّد السمعي فيها معدومًا، حيث استطاعا التحادث من

دون أن تزعجهما الموسيقا الصادحة أسفل. لكن لم يرغب باولو، ولا كارلا، في الحديث. انحنيا فوق الدرابزين الخشبي لمشاهدة الراقصين. اقترحت عليه النزول والانضمام إليهم، لكنّه اعترف لها أنّ الموسيقا الوحيدة التي عرف الرقص على إيقاعها فعلاً كانت هاري كريشنا هاري راما. ضحكا، أشعلا سيجارة تشاركا في تدخينها، ثمّ أومأت كارلا إلى أحدهم عبر سحابة الدخان. لاحت له شابّة أخرى. قالت معرّفة عن نفسها:

ـ ويلما.

قالت كارلا:

ـ سنذهب إلى نيبال.

أطلق باولو ضحكة وقد خالها مزحة. بغتت ويلما من تعليق كارلا من دون أن تُبدي ذلك. استأذنت كارلا باولو لمحادثة صديقتها قليلاً بالهولندية. وحوّل باولو نظره من جديد إلى الراقصين.

إلى نيبال؟ إذن هذه الفتاة التي التقاها منذ فترة قصيرة والتي بدت أنّها تحبّذ رفقته، سترحل قريبًا! قالت «سنذهب» كما لو أنّ أحدهم سيرافقها في هذه المغامرة. السفر إلى ذلك الحدّ القصي، يستدعي تذكرة لا بُدّ من أنها ثمنها يعادل ثروة!

أدرك سبب إعجابه الشديد بأمستردام: هو لم يكن فيها وحيدًا. لم يكن مضطرًا إلى مقاربة أيّ يكن، منذ وصوله، التقى إحداهنّ، وأحبّ لو أمكنه استكشاف كلّ ما يجب استكشافه برفقتها. كان من المبالغة القول إنّه بدأ يقع في غرامها، لكن كان لكارلا من الطبع ما عشقه، فقد عرفت بالضبط مُرادها.

لكن، ماذا عنه؟ هل يريد الذهاب إلى نيبال مع فتاة شَعَرَ بأنّه، رغمًا

عنه، مجبرًا على السهر عليها وحمايتها؟ هذا ما أنشأه عليه والداه. كان ذلك فوق إمكاناته المادّية. عرف أنّ عليه مغادرة هذه المدينة الأخّاذة عاجلاً أم آجلاً، وأنّ وجهته التالية، إذا أجازتها الجمارك الإنجليزيّة، ستكون ميدان «البيكاديللي»، وكلّ الناس الذين أمّوه من العالم أجمع.

كانت كارلا لاتزال تتحدّث إلى صديقتها، في الوقت الذي ادّعى فيه باولو اهتمامه بالأغاني التي كانت تصدح في الأسفل، أغاني سايمون وغارفانكل، البيتلز، جايمس تايلور، سانتانا، كارلي سايمون، جو كوكر، بي بي كينغ، كريدنس كليرواتر ريفايفل، بالمختصر، لائحة طويلة كانت تكبر كلّ شهر، كلّ يوم، كلّ ساعة.

كان الثنائي البرازيلي الذي التقاه عصر اليوم خيارًا قائمًا دومًا، أمكن أن يفتح له أبوابًا أخرى على أشخاص آخرين. لكن هل كان بإمكانه أن يترك هذه الفتاة تخرج من حياته بالسرعة التي دخلتها؟

تناهت إليه أنغام الوتر المألوفة من أغنية لفرقة «أنيملز»، وتذكّر أنّه طلب إلى كارلا أن تصطحبه إلى «بيت الشمس الشارقة». كانت نهاية الأغنية مروّعة، فهم تمامًا معنى كلماتها، غير أنّه إلى الخطر كان منجذبًا وبه مفتتنًا.

[...] في صرف حياتهم آثمين بائسين

في بيت الشمس الشارقة

شرحت كارلا لويلما أنّ الفكرة راودتها على حين غرّة.

ـ لحسن الحظّ أنّك نجحتِ في كبح جماحك. لكُنتِ أفسدتِ كلّ شيء.

ـ إلى نيبال؟

ـ صحيح. سوف أشيخ يومًا ما وأغدو بدينة، ويكون لي زوج غيور وأولاد سيمنعونني من الاعتناء بنفسي، سيكون لي عمل مكتبي أكرّر فيه الأمر نفسه كلّ يوم، وسيُفضي بي إلى تعوّد هذه الرتابة، هذه الراحة، تعوّد مكان سَكَني. يُمكنني دومًا أن أرجع إلى روتردام. يُمكنني دومًا أن أستفيد من منافع ضمان البطالة أو من الضمان الاجتماعي، التي يوفّرها لنا بلدنا. يُمكنني حتّى أن أصبح رئيسة شركة shell أو Philips أو Heineken، لأنّني هولندية، وهم لا يثقون إلّا بالهولنديين. لكن نيبال، فإما أن أزورها اليوم وإما لن أزورها أبدًا، انا أصلاً بدأتُ أشيخ.

ـ في الثالثة والعشرين من العمر؟

ـ تمضي السنوات أسرع ممّا تظنّين يا ويلما. وأنصحك بأن تحذي حذوي. جازفي الآن مادمتِ تتمتّعين بالصحّة والشجاعة. نحنا متّفقتان على أنّ أمستردام مكان مضجر حتى الموت، لكننا نراها هكذا لأنّنا ألِفناها. اليوم، عندما رأيت هذا البرازيلي وشدّة البريق في عينيه، اكتشفتُ أنّني أنا المضجرة حتى الموت. أنّني لم أعد أرى جمال الحرّية لأنّني ألِفتها.

رمت بنظرة على باولو، ورأته يُصغي إلى أغنية Stand by Me مغمض العينين. تابعت قائلة:

ـ لذا علي أن أستعيد الجمال، حسبي الجمال. فأنا على يقين بأنّني، متى عُدت يومًا، سوف يظل هناك الكثير لأراه وأحياه. أين يذهب قلبي، ما لم أتعرّف كل هذه الدروب؟ أين ستكون وجهتي التالية، إذا لم أكن أرحل من هنا كما ينبغي؟ أيّ هضاب سيُفضي بي الأمر إلى تسلّقها، ما لم أرَ الحبل أمامي؟ جئتُ من روتردام إلى أمستردام لهذا السبب. حاولتُ

أن أقترح على عددٍ من الرجال أن يتّخذوا دروبًا غير موجودة، أن يصعدوا مراكب لا ترسو عند أيّ مرفأ، أن يرتفعوا إلى سماء بلا حدود، لكنّهم رفضوا جميعًا، كلّهم استهابوني أو استهابوا الوجهة المجهولة، إلى أنّ حلّ عصر اليوم والتقيت البرازيلي. ومن دون أن يأخذ رأيي في الحسبان، تَبِعَ الهاري كريشنا في الشارع، غنّى ورقص معهم. أردتُ أن أفعل مثله، لكنّ همّي في أن أبدو امرأة قويّة في نظره منعني من ذلك. الآن، اكتفيتُ من الظنون.

لم تستوعب ويلما بعد لمَ اختارت نيبال تحديدًا ولا كيف ساعد باولو كارلا.

ـ عندما وصلتِ، وذكرتُ نيبال، شعرت بأنّ ما قلته كان عين الصواب. لاحظتُ أنّه فوجئ كما ارتاع في آن. لا بُدّ أنّها الإلهة من ألهمتني على نطق تلك الكلمات. قلقي الآن أخفّ مما كان صباحًا، أو مما كان طوال الأسبوع، عندما رحت أشكّ في قدرتي على تحقيق هذا الحلم.

ـ أيراودك هذا الحلم منذ وقت طويل؟

ـ لا. بدأ الأمر باقتطاعي إعلانًا من صحيفة بديلة. مذاك وهو يلازم ذهني.

كانت ويلما ستسألها إن كانت قد دخّنت الكثير من الحشيشة اليوم، غير أنّ باولو دنا منهما.

سأل: ـ ألن نرقص؟

أمسكت كارلا بيده، وهبطا معًا إلى الصحن الرئيسي. ظلّت ويلما متسمّرة في مكانها لا تدري ما تفعل. لكن لم يدم ذلك، فما إن ستشاهد وحدها، حتى يقترب منها أحدهم ليُحادثها. فهنا الجميع كانوا يُحادثون الجميع.

عندما خرجا إلى رذاذ المطر الساكن، كانت آذانهما تطنّ من الموسيقا. اضطرّا إلى الصراخ ليتحادثا.

ـ ستكونين في المحيط غدًا؟

ـ سأكون حيث رأيتني للمرّة الأولى. بعد ذلك، عليّ أن أذهب لشراء تذكرة الباص إلى نيبال.

نيبال، من جديد؟ تذكرة باص؟

أضافت كما لو أنها تسديه خدمة كبيرة: ـ رافقني إذا أردت، لكن قبل ذلك، أودّ اصطحابك في نزهة خارج امستردام. هل سبق أن رأيت طاحونة هواء؟

ضحكت على سؤالها. فهكذا تصوّر العالم أجمع بلادها: قباقيب، طواحين هواء، أبقار، ومومسات خلف الواجهات.

أجاب باولو: ـ موعدنا في المكان نفسه.

انتابه قليل من القلق وقليل من السرور. فهذه الفتاة، آية من الجمال بشعرها المسرّح جيدًا والمزيّن بالزهر، بتنّورتها الطويلة، بصدارها المطرّز بقطع مرايا صغيرة، بعطرها ذي رائحة الباتشولي، هذه الآية من شعرها إلى قدميها، رغبَتْ في أن تراه مجدّدًا.

تابع: ـ سأكون هناك قرابة الواحدة بعد الظهر. أحتاج إلى النوم

قليلاً. لكن ألم يكن من المفترض أن نذهب إلى بيت من بيوت الشمس الشارقة؟

ـ قلتَ لكَ إنّني سوف أريك أحدها، بلى سوف أذهب معك.

قطعا مسافة تقلّ عن مئتي متر، ووصلا إلى زقاق، حيث توقّفا أمام باب لم يحمل لافتة، ولم تنبعث منه موسيقا.

ـ إليك بهذا البيت. أودّ أن أقترح عليك اقتراحين.

خطر لها أن تستخدم كلمة «نصيحة»، لكنّها ربما كانت الخيار الأسوأ على الإطلاق. تابعت:

ـ احذر أن تحمل شيئًا عندما تغادر. قد لا ترى الشرطة، لكن لا بُدّ من أنّها خلف تلك النوافذ، تراقب كلّ من يزور هذا المكان. في العادة، يفتّشون كلّ من يخرج. ومن خرج وفي حوزته شيء يذهب مباشرةً إلى السجن.

أومأ باولو برأسه إشارة على استيعابه قولها، وسأل عن الاقتراح الثاني.

ـ لا تجرّب شيئًا.

طبعت من ثمّ قبلة على شفتيه، قبلة بريئة حملت كثيرًا من الوعود لكن لم تُفصح عن شيء. استدارت، وهمّت بالعودة إلى النُزل. بقي باولو وحده يسأل نفسه إن كان ينبغي له اجتياز العتبة أو لا. ربّما كان من الأفضل أن يعود إلى النُزل، ويشرع في وضع النجوم المعدنيّة التي اشتراها عصر اليوم على سترته.

لكن تملّكه الفضول، وتوجّه إلى الباب.

كان الرواق ضيّقًا خفيض السقف وخافت الإضاءة. وقف عند آخره رجل حليق الرأس بدا أنّه خبير بالطرائق البوليسيّة من بلدٍ ما. صوّب الرجل نظره نحو باولو، أخفضه وصعّده. كانت تلك «القراءة الجسديّة» الشهيرة التي تتيح تقييم نيّات الشخص الماثل أمامك ودرجة انفعاله العصبي ووضعه المادّي ومهنته. سأله إن كان يملك مالاً للإنفاق. نعم، كان لديه مال للإنفاق، لكنّه لم يفكّر في إشهاره كما فعل عند الجمارك. خالج الشك الرجل لثانية، ثم أَذِنَ له بالمرور. فهو لا يُعقل أن يكون سائحًا، السيّاح لا يكترثون لهذا.

كان ثمّة أشخاص مستلقون على فرش تناثرت على الأرض، وآخرون أسندوا ظهورهم إلى الجدران المطليّة بالأحمر. ما الذي جاء به إلى هنا؟ ألِيُرضي فضولاً سقيمًا؟

خلا المكان من أي حديث وأي موسيقا. كان فضوله السقيم محصورًا بما رآه، الألق نفسه في عيون الجميع، أو بالأحرى غياب الألق عنها. حاول تبادل أطراف الحديث مع فتى بعمره، هزيل القوام، مجرّد من قميصه، لطّخت جِلده بقعٌ حمراء عدّة، كانت أشبه بلسعات حشرة حُكّت حتّى احمَرت والْتهبت.

دخل رجل آخر. بدا أنّه يكبر بعشر سنوات معظم الشبّان في الخارج. لكن لا بُدّ من أنّه يقرب من عمر باولو. كان، في تلك اللحظة على الأقل،

الوحيد الصاحي بين الحاضرين. بعد قليل، سيدخل كونًا آخر، لذا اقترب منه باولو ليرى إن كان بإمكانه أن يستقي منه شيئًا، ولو جملة بسيطة للكتاب الذي كان ينوي تأليفه يومًا. كان حلمه أن يصبح كاتبًا، وقد دفع ثمنًا باهظًا لاختياره هذه الدرب الهامشيّة، من إيداعه مستشفى الأمراض النفسيّة غير مرّة، والسَجن، والتعذيب، واستحالة لقاء حبيبته المراهقة، التي نهتها أمّها عن الاقتراب منه، وازدراء رفاقه عندما راح يرتدي ملابس مختلفة النمط.

وكذلك انتقامه، حسد الكلّ له عندما التقى حبيبته الأولى الجميلة والثريّة، وعندما راح يطوف العالم.

لكن لِمَ يُفكّر بنفسه فقط في جوّ على هذا القَدْر من الانكفاء؟ لأنّه أحسّ بالحاجة إلى التكلّم مع أحدهم. جلس إلى جانب الشاب الأكبر سنًا. رآه يُخرج ملعقة ملويّة اليد وإبرة بدا أنّها قد استُعملت مرارًا.

ـ أودّ...

نهض الشاب ليُبدّل مكانه، لكنّه تسمّر عندما أخرج باولو ما يعادل ثلاثة دولارات أو أربعة من جيبه، ووضعها على الأرض إلى جانب الملعقة. نظر إليه مدهوشًا.

ـ أنت شرطي؟

ـ لا، لست شرطيًا، لست هولنديًا حتّى. أودّ فقط...

ـ صحافي؟

ـ لا. أنا كاتب. لهذا أنا هنا

ـ ما الكتب التي ألّفتها؟

ـ لِمَ أؤلّف أيّ كتاب. عليّ أن أجري بحوثًا أولاً.

نظر الشاب إلى المال المطروح أرضًا، ثمّ إلى باولو. تجاذبته الظنون بأنّ فتى يافعًا إلى هذه الدرجة، لديه القدرة على كتابة أيّ شيء، باستثناء الكتابة للصحف التي شكّلت جزءًا من «البريد الخفي». مدّ يده إلى المال، غير أنّ باولو أوقفه.

ـ خمس دقائق فقط. خمس دقائق لا أكثر.

وافق الآخر الأكبر سنًا، لم يقدّم إليه شخص من قبل، ولو قرشًا مقابل وقته، منذ أن ترك عمله التنفيذي الواعد في مصرف متعدّد الجنسيّات، بعد أن جرّب «قُبلة الإبرة» للمرّة الأولى.

ـ قُبلة الإبرة؟

ـ صحيح. نشكّ أنفسنا مرّات عدّة قبل أن نحقن الهيرويين: ما تسمّونه «الألم» هو في نظرنا تمهيد للقاء شيء لن تفهموه يومًا.

كانا يتهامسان لئلا يجذبا انتباه الآخرين، رغم معرفة باولو أنّه حتّى ولو سقطت قنبلة ذريّة على هذا المكان، لن يتكبّد أحد عناء الفرار.

أضاف الشاب قبل أن يتابع: ـ لا يُمكنك أن تذكر اسمي.

بدأ الشاب الأكبر سنًّا ينفرج، والدقائق الخمس تمرّ بسرعة. استشعر باولو وجود الشيطان في هذا البيت.

ـ إذن؟ ما هو هذا الإحساس؟

ـ إحساس هو أعجز من أن يوصف. يجب أن يُجرَّب. أو عليك أن تصدّق وصف «لو ريد» أو «فيلفت أندر غراوند» له.

Cause it makes me feel like I'm a man

When I put a spike in my vein(*)

سبق لباولو أن استمع إلى «لو ريد». لكن لم يكن هذا كافيًا.

ـ حاوِل أن تصف، من فضلك. دقائقنا الخمس تمرّ بسرعة.

أخذ الشاب نفسًا عميقًا. أبقى عينًا على باولو وعينًا على الإبرة. عليه أن يُجيب هذا «الكاتب» المتطاول بأسرع ما يمكن قبل أن يُطرد من البيت، آخذًا معه ماله.

ـ أظنّ أنّ لديك بعض الخبرة مع المخدّرات. أنا أعرف أنّ الحشيشة والماريوانا تولّدان السلام، الانشراح، الثقة بالذات، الرغبة في الأكل، ممارسة الحب. لا أبالي بكلّ هذا، فهو جزء من حياةٍ علّمونا عيشها. تُدخّن الحشيشة وتقول لنفسك: «العالم جميل، ها أنا أنتبه للأمور أخيرًا!»، لكن بحسب الجرعة، ينتهي بك الأمر إلى ارتحالات تهوي بك إلى الجحيم. تتناول مخدّر LSD وتقول لنفسك: «ربّي! كيف لم ألاحظ كلّ هذا من قبل؟ كيف لم ألاحظ أنّ الأرض تتنفّس والألوان تتبدّل بتبدّل اللحظة؟»، أهذا ما تريد معرفته؟

نعم كان هذا ما أراد معرفته. لكنّه ترك الشاب الأكبر سنًا يُكمل.

ـ الأمر مختلف تمامًا مع الهيرويين: يسعك التحكّم بكلّ شيء، بجسمك، بعقلك، بروحك، بفنّك. وتعمّ الكون كلّه غبطة عارمة لا توصف. يسوع على الأرض. كريشنا في العروق. بوذا المبتسم لك من السماء. لا هلوسات. كلّه حقيقة، حقيقة صِرف. أتصدّقني؟

(*) فمتى حقنت عروقي، شعرت بأنني رجل.

لا، هو لا يصدّقه لكنّه لم ينطق بكلمة واكتفى بإيماء رأسه.

ـ في اليوم التالي، لا تشعر بأيّ صداع من أثر المخدّر، تشعر فقط بأنّك ذهبت إلى الجنّة وعُدت إلى هذا العالم القذر. تذهب إلى العمل وتُدرك أنّ كلّ شيء كذبة، والناس يحاولون أن يبرّروا حياتهم، أن يظهروا مهمّين، أن يضعوا العراقيل، لأنّها تمدّهم بشعور من السلطة، من النفوذ. وتعجز أكثر فأكثر عن تحمّل كلّ هذا الخبث، وتقرّر أن ترجع إلى الجنّة، لكنّ الجنّة مكلفة، وبابها ضيّق. من يعبره يكتشف أنّ الحياة حلوة، أنّ الشمس بوسعها أن تنشطر فعلاً إلى إشعاعات، وتكفّ عن كونها تلك الكرة المدوّرة المملّة التي لا يسعنا حتّى النظر إليها مباشرةً. وفي اليوم التالي، ترجع إلى العمل في قطار يعجّ بالناس ذوي النظرات الخاوية، أكثر خواءً من كلّ عيون هؤلاء الناس هنا. يُفكّر الجميع في العودة إلى المنزل، في إعداد العشاء، في تشغيل التلفاز، في الهروب من الواقع. لكن يا رجل: الواقع هو هذا المسحوق الأبيض، لا التلفاز!

كلّما استرسل الشاب الأكبر سنًا في الكلام، تعاظم شعور باولو بغواية أن يجرّب المخدّر مرّة، ولو مرّة فقط. وأدرك الآخر ذلك جيدًا.

ـ الحشيشة، أعرف أن ثمة عالمًا لا أنتمي إليه، شأنه شأن LSD. لكنّ الهيروين، يا رجل، الهيروين أنا. بفضله تستحقّ الحياة أن تُعاش، بمعزل عمّا يقال في الخارج. ثمّة مشكلة واحدة فقط...

لحسن الحظّ أن ثمّة مشكلة. أراد باولو معرفتها من فوره، لأنّه كان قيد أنملة من رأس الإبرة وتجربته الأولى مع الهيروين.

ـ ... المشكلة أنّ الجسم يُنمّي القدرة على تحمّله. بدأتُ بتعاطي ما قيمته خمسة دولارات في اليوم. واليوم أحتاج إلى عشرين دولارًا لأبلغ الجنّة.

سبق أن بعتُ كلّ ما لديّ، سيكون التسوّل في الشوارع الخطوة التالية. وبعد التسوّل سأُكرَه على السرقة، لأنّ الشيطان لا يحبّ من عرفوا الجنّة. أعرف ما سوف يحدث لي، لأنّه حدث لكلّ من هم هنا اليوم. لكن، لا أهمية لذلك.

يا للغرابة. لكل امرئ منظوره للبوّابة المُفضية إلى الجنّة.

ـ أعتقد أنّ الدقائق الخمس قد انقضت.

ـ نعم، أحسنت الشرح جيدًا وأشكرك على ذلك.

ـ عندما تضمّن كتابك ما أفضيتُ به، لا تفعل كغيرك ممّن يهدرون حياتهم في إدانة ما لا يفهمونه. كُن صادقًا. املأ الفراغات بخيالك.

وإذ انتهى الحديث، لزم باولو مكانه. لم يُزعج ذلك الشاب الأكبر سنًّا على ما يبدو. حشر المال في جيبه، وفكّر: بما أنّ باولو قد دفع له، فإن له الحق في المشاهدة.

وضع قليلاً من المسحوق الأبيض والماء على الملعقة الملويّة اليد، وسخّن أسفلها بلهب قدّاحته. شيئًا فشيئًا، أخذ الخليط يتحوّل إلى سائل ويفور. طلب إلى باولو مساعدته على لفّ المرقاة لكي ينفر العِرق تحت الجِلد.

ـ لم يعد لدى البعض مكان في ساعد اليد، لذلك أصبحوا يشكّون أنفسهم في القدم أو ظاهر اليدّ. أما أنا، فبفضل الله، لا تزال الدرب طويلة أمامي.

ملأ الحُقنة بالسائل، وكما سبق أن شرح تمامًا في بداية كلامه، غرز الإبرة مرّات عدّة، مُستبقًا لحظة فتح البوّابة الشهيرة. أخيرًا، حقن نفسه بالجرعة. وتحوّل القلق إلى بهجة صافية في عينيه اللتين فقدتا كلّ ألق بعد مدة راوحت بين خمس دقائق وعشر، وراحتا تُحدّقان إلى نقطة ما في الفضاء، حيث طاف بوذا وكريشنا ويسوع على حدّ زعمه.

نهض باولو، وتوجّه إلى المخرج، خطا بكلّ تؤدة فوق الشباب الراقدين على الفرش المتّسخة. غير أنّ الحارس الحليق الشعر وقف في وجهه.

ـ وصلت من فورك، وتخرج الآن؟

ـ نعم. لا أملك مالاً.

ـ أنت كاذب. رآك أحدهم تدسّ بعض الدولارات إلى تيد (لا بُدّ أنّه اسم الشاب الأكبر سنًا الذي حادثه). هل جئت تبحث عن زبائن جدد؟

ـ أبدًا. لم أحادث سوى شخص واحد، ويُمكنك أن تسأله لاحقًا عمّا دار حديثنا.

حاول باولو المرور من جديد، غير أنّ المارد منعه بجسمه. راح القلق يتسلّل إليه، رغم معرفته أنّ مكروهًا لن يصيبه، فقد قالت كارلا إن الشرطة في الخارج، عند النوافذ، تُبقي عينها على المكان.

أضاف المتنمّر، مُشيرًا إلى باب في آخر الصالون: «يودّ صديق لي محادثتك». كان واضحًا من نبرته أنّ لا مجال أمام باولو سوى الإذعان. لعلّ قصّة الشرطة مجرّد خيال ابتكرته كارلا لئلا يقلق.

وإذ وجد أن لا خيار أمامه حقًّا، توجّه نحو الباب المشار إليه. وقبل أن يبلغه، انفتح على رجلٍ بلباس رزين، له تسريحة شعر ألفيس برسلي وسالفيه. طلب إليه الرجل بمودّة أن يدخل ويجلس.

لم يكن المكتب يُشبه بشيء ما تعوّد باولو رؤيته في الأفلام السينمائيّة: فتيات مغريات، شامبانيا، أشخاص يضعون نظّارات معتمة مدجّجون بالسلاح من العيار الثقيل. على العكس، كانت الغرفة بسيطة: بعض اللوحات المقلّدة الرخيصة الثمن معلّقة على الجدران المطليّة بالأبيض، وهاتف فحسب على طاولة المكتب. وتمامًا خلف المكتب، خلف قطعة الأثاث العتيقة هذه لكن المحفوظة جيدًا، عُلّقت صورة ضخمة.

قال باولو من دون أن يدرك أنّه تكلّم بلغته الأم: ـ برج بيليم.

أجاب الرجل بالبرتغالية أيضًا: ـ بالضبط. فمنه انطلقنا لغزو العالم. أترغب في شرب شيء؟

ـ «لا، شكرًا». لم يكن قلبه قد سَكَن بعد.

تابع الرجل: ـ «حسنًا، أتصوّر أنّك شخص مشغول». أتت تلك الجملة خارج السياق، لكنّها أفصحت مع ذلك عن لطف. وأكمل: ـ لاحظنا أنّك دخلت، وها أنت تغادر، بعد محادثة زبون واحدٍ فقط من زبائننا، ولا تبدو عليك هيئة شرطي سرّي، بل شخص، بلغ هذه المدينة، بعد جهد جاهد، للاستمتاع بكلّ ما تقدّمه.

ظلّ باولو ساكتًا.

ـ ولم تُبدِ كذلك أيّ اهتمام بالمادّة الممتازة التي نعرضها هنا. هل تُمانع أن تُريني جواز سفرك؟

بالطبع كان يُمانع، لكن كيف له أن يرفض؟ دسّ يده في المحفظة المشدودة .لى حزامه، أخرج منها الجواز، ومدّ به إلى مخاطبه، ونَدِمَ على ذلك من فوره: ماذا لو أبقاه الرجل بحوزته؟

غير أنّ الرجل الغامض قلّب صفحات الجواز فقط، ابتسم، وأعاده إليه.

ـ آه. قليل من البلدان فقط. عظيم. البيرو، بوليفيا، تشيلي، الأرجنتين، إيطاليا، وهولندا، طبعًا. أتصوّر أنّك عبرت الحدود بلا أي مشكلة.

ـ بلا أيّ مشكلة.

ـ وإلى أين ستذهب الآن؟

ـ إلى إنجلترا.

كانت تلك الإجابة الوحيدة التي خطرت له، مع أنّه لم يكن في نيّته قط أن يُحدّد لهذا الرجل مساره الكامل.

ـ أودّ اقتراح عرض عليك. عليّ نقل بضاعة، تعرف نوعها على ما أحسب، إلى دوسّلردوف في ألمانيا. كيلوغرامان فقط، يُمكن تخبئتهما بسهولة تحت قميصك. سوف نشتري لك كنزة أكبر بالطبع. الجميع يرتدون كنزات في الشتاء. في المناسبة، لن تسعفك سترتك هذه طويلاً، فالخريف على الأبواب.

اكتفى باولو بالإصغاء إلى العرض.

ـ سوف ندفع لك خمسة آلاف دولار، ألفين وخمسمئة في أمستردام وألفين وخمسمئة بعد تسليمك البضاعة لمورّدنا في ألمانيا. لن يكون أمامك سوى حدود واحدة تعبرها. وستكون إقامتك في إنجلترا مريحة أكثر بلا أدنى شك. هناك العملاء الجمركيّون متشدّدون جدًّا في العادة؛ بالمبدأ، يسألون «السائح» عن مقدار المال الذي بحوزته.

لم يصدّق ما بلغ سمعه. كان الأمر مغريًا جدًّا. سيسمح له مبلغ مماثل بالسفر لمدّة سنتين.

ـ أحتاج فقط إلى ردّ منك في أسرع وقت ممكن. والأمثل أن يأتيني في الغد. اتّصل من فضلك عند الرابعة بعد الظهر على رقم الهاتف العمومي هذا.

أخذ باولو البطاقة التي مدّ بها إليه. كان الرقم عليها مطبوعًا. لا بُدّ من أنّهم يشهدون ازدهارًا في تسليم البضائع، أو أنهم يخشون أن تفضحهم خطّوط أيديهم عبر تحليلها.

ـ أرجو المعذرة، عليّ العودة إلى العمل. شكرًا جزيلاً على قدومك إلى

مكتبي المتواضع. كلّ ما أفعله، هو إتاحة الفرصة للناس كي يعرفوا السعادة.

نهض الرجل، وفتح الباب، ووطأ باولو مجدّدًا الغرفة التي اتّكأ الناس على جدرانها، أو استلقوا على الفرش القذرة. مرّ بالحارس، الذي ابتسم له هذه المرّة ابتسامة معرفة.

خرج إلى رذاذ المطر، سائلاً الله أن يعينه، أن ينوّره، ألاّ يتركه في هذه اللحظة.

كان في حيّ يجهله من المدينة، لم يعرف سبيل العودة إلى وسطها، لم يكن معه خارطة، لم يكن معه أيّ شيء. تستطيع سيّارة الأجرة، بالطبع أن تحل المشكلة في حالات الطوارىء، لكنّه شعر بالحاجة إلى المشي تحت هذا الرذاذ، الذي تحوّل سريعًا إلى زخّات بدت أنّها لم تغسل شيئًا، لا الهواء من حوله، ولا ذهنه الذي استحوذت عليه الدولارات الخمسة الآف.

سأل كيف يمكنه بلوغ ساحة «دام»، غير أنّ الناس عبروه، هو مجرّد هيبيّ آخر حطّ هنا وعجز عن اللحاق بقومه. أخيرًا، قام «سامريّ صالح»، رجل عند كشك صحف كان يفرد صحف اليوم التالي، ببيعه خارطة، وأشار إلى الاتّجاه الذي عليه أن يسلكه.

وصل إلى النُزل، أضاء البوّاب الليلي مصباحه الخاص الذي يُستخدم للتحقّق من أن النزيل قد دفع أجرة اليوم؛ كان الختم ختمًا لامرئيًا يُطبع دومًا على الجلد قبل الخروج. غير أنّ ختمه كان من أمس. فقد صرف أربعًا وعشرين ساعة في الخارج بدت أزليّة. توجّب عليه دفع أجرة ليلة إضافيّة. قال للبوّاب: أرجوك، لا تضع الختم الآن، عليّ أن أستحمّ، عليّ أن أغتسل، أنا قذر بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

وافق البوّاب شرط أن يعود بعد نصف ساعة كحد أقصى، لأنّ نوبته ستنتهي بحلول ذلك الوقت. دخل باولو إلى الحمّام المختلط، كان الجميع يتحادثون بصوتٍ عالٍ، ثمّ عاد إلى غرفته. أخذ البطاقة التي تحمل رقم الهاتف ورجع إلى الحمام عاريًا، والبطاقة في يده. كان تمزيقها أوّل ما فعله، قطّعها إربًا، بلّلها بحيث يستحيل جمعها، ورماها على الأرض. تذمّر أحدهم قائلًا: لا يجوز رمي الأشياء على الأرض، عليك باستخدام سلل المهملات الموضوعة تحت المغاسل. توقّف آخرون وقد تفرّست عيونهم هذا الهمجي الذي لا يعرف كيفيّة احترام المكان. لم ينظر إليهم باولو ولم يبرّر تصرُّفه، اكتفى بالإذعان، هو الذي لم يذعن لأحد منذ وقت طويل.

بعد ذلك، رجع إلى الحمام وشعر بالطمأنينة. أمكن له أن يعود متى شاء إلى «بيت الشمس الشارقة» والحصول على الرقم من جديد، لكنّه عرف أنّه سيُمنع من الدخول. أتته الفرصة وأضاعها.

ومنحه ذلك سرورًا عظيمًا.

تمدّد على السرير. فقد رحلت شياطينه الآن. عَلِمَ ذلك عِلم اليقين، تلك الشياطين التي توقّعت أن يقبل عرضها لكي تأتي بأعيان جدد إلى مملكتها. استسخف التفكير هكذا. ففي النهاية، يمكن القول إن المخدّرات قد مُنحت في الأساس طابعًا شيطانيًا. لكن في هذه الحالة، بدا الناس على حقّ. كان تفكيره سخيفًا فعلاً، فهو الذي طالما دافع عنها على أنّها نوع من مضخّمات الوعي، تمنّى الآن أن تحظر الشرطة الهولنديّة تلك البيوت، وأن توقف كلّ من يديرونها وتُبعدهم أقصى ما يمكن عن أولئك الذين أرادوا السلام والحب فقط في العالم.

وإذ لم يطمئنّ جنبه إلى نومٍ، راح يحدّث الله، أو ملاكًا. توجّه إلى

الخزانة حيث وضع أغراضه. نزع المفتاح الذي علّقه في عنقه، وأخذ دفترًا أحبّ أن يخطّ فيه بعضًا من الخواطر والتجارب. مع ذلك، لم يكن في نيّته أن ينسخ كلّ ما رواه له تيد. فهو، على الأرجح، لن يكتب عن الموضوع مستقبلاً. خربش الكلمات القليلة التي تصوّر أنّ الله أملاها عليه:

لا فرق أبدًا بين يـمّ وموج،

عندما تتشكّل الموجة، فمن ماء تكون،

وعندما تتكسّر عند الرمل، من الماء نفسه تكون.

قل لي يا ربيّ: لـِمَ هما سيّان؟ أين الغموض والنهاية؟

يجيبه الربّ، كلّ الأشياء وكلّ الناس سواء، هذا هو الغموض والنهاية.

عندما وصلت كارلا، كان باولو هناك. كان الاسوداد تحت عينيه شديدًا، كما لو أنّه ظلّ ساهدًا طول الليل أو أنّه.... فضّلت ألاّ تفكّر في الاحتمال الثاني، الذي عنى أنها لن تتمكّن من الوثوق به بعد الآن. وقد سبق لها أن تعوّدت حضوره ورائحته.

ـ إذن، فلنذهب لرؤية طاحونة هواء، أحد المعالم الهولنديّة

نهض على مهل، وتبعها بصمت. أقلّهما الباص متوجّهًا خارج أمستردام. أشارت إليه بضرورة شراء بطاقة، فثمة آلة مثبّتة في الحافلة، لكنّه آثر تجاهل تحذيرها. هو لم ينم جيدًا، كان تعِبًا من كلّ شيء، ويحتاج إلى استعادة طاقته. أحسّ أنّ قوته ترجع إليه شيئًا فشيئًا.

كان المنظر الطبيعي واحدًا: سهول شاسعة تقطعها حواجز صخريّة وجسور متحرّكة ترتفع على قنوات تمرّ بها مراكب لنقل البضائع إلى مكان ما. لم تَلُح أمامه أيّ طواحين هواء، لكنّه النهار، والشمس قد سطعت من جديد، واقعٌ نادر حثّ كارلا على التعليق عليه: ففي هولندا، ينهمر المطر دومًا.

قال باولو: «كتبتُ شيئًا أمس». وسحب الدفتر من جيبه وقرأ ما كتبه بصوت مسموع. لم تعلّق سلبًا أو إيجابًا.

ـ أين البحر؟

ـ كان البحر هنا. يقول مثل قديم: «صنع الله العالم وصنع الهولنديون هولندا». لكنّ البحر بعيد من هنا، لا يُمكننا أن نراه ونرى الطاحونة في اليوم نفسه.

ـ لا. لا أريد رؤية البحر. ولا طاحونة الهواء. وهي شيء أتصوّر أنه يُدهش السيّاح، فأنا لا أسافر لهذا الهدف، لا بُدّ أنّك تدركين ذلك.

ولمَ لم تقل هذا من قبل؟ سئمتُ من اتّخاذ الطريق القديمة نفسها دومًا لكَي أُري أصدقائي الأجانب شيئًا لم يعد يخدم وظيفته الأساسيّة حتّى. بمقدورنا أن نلازم المدينة.

.... والذهاب حالًا إلى نقطة بيع تذاكر الباص. هكذا فكّرت في سرّها. لكنّها احتفظت بتلك الفكرة لنفسها. كان عليها أن تتحيّن اللحظة المناسبة لتُلقي الطعم في الماء.

ـ لم أقل شيئًا آنذاك لأنّني....

.... ورغمًا عنه، أفلتت منه قصّة بيتِ الشمس الشارقة كلّها.

أنصتت كارلا، وقد شعرت بالارتياح والقلق في آن. أكان ردّ فعله متطرّفًا؟ أكان باولو من النوع الذي ينتقل من الانشراح إلى الكآبة والعكس؟

عندما فرغ من روايته، شعر بحالٍ أحسن. استمعت إليه الفتاة بصمت من دون أن تُدينه. من الواضح أنّها لمَ تر أنّه قد أضاع خمسة آلاف دولار برميها في سلّة مهملات الحمّام. ولم تعدّه ضعيفًا. وهذا بحدّ ذاته جعله يشعر أنّه أقوى.

وصلا أخيرًا إلى طاحونة الهواء، حيث استمعت مجموعة من السيّاح إلى مُرشد: «تقع الطاحونة الأقدم في...... (اسم يصعب لفظه)، وتقع الأعلى ارتفاعًا في...... (اسم آخر يصعب لفظه). استُخدمت هذه الطواحين لجرش الذرة، وبذور القهوة، وحبوب الكاكاو، ولإنتاج الزيت. وساعدت مُستكشفينا على تحويل الألواح الخشبيّة الكبيرة إلى سفن تمكّنا بفضلها من بلوغ أماكن قصيّة، وتوسيع الإمبراطوريّة.....».

تناهى إلى باولو صوت محرّك الباص يُشغَّل. أمسك بيد كارلا

وناشدها الإسراع في العودة إلى المدينة على متن الباص نفسه. ففي غضون يومين، لن يتذكّر لا هو ولا السيّاح ما كانت جدوى طاحونة الهواء. هو لم يسافر هذه المسافة كلّها ليتعلّم هذا النوع من الأمور.

في طريق العودة، في إحدى المحطّات، صعدت إلى الباص سيّدة، وضعت على ذراعها شارة كُتب عليها «جباية التذاكر». وراحت تتحقّق من تذاكر الركّاب. عندما وصل الدور إلى باولو، أدارت كارلا وجهها إلى الناحية الأخرى.

قال: ـ لا أملك واحدة. اعتقدتُ أنّ الباص مجانيّ.

لا بُدّ من أن جابية التذاكر قد سمعت هذا النوع من الأعذار ملايين المرّات، ذلك أنها ردّت بجواب جاء وكأنّه حُفظ عن ظهر قلب أنّ هولندا سخيّة جدًّا لا محالة، لكن أصحاب الذكاء المتدنّي جدًّا وحدهم يحسبون أنّ وسائل النقل فيها مجّانيّة.

ـ هل سبق أن رأيت هذا في مكانٍ ما في العالم؟

ـ بالطبع لا. لكنّه لم يرَ كذلك.... لكزته كارلا بساقها ليَكُفّ عن الجدال، فصمت. دفع جزاءً فاق قيمة التذكرة عشرين مرّة، ورشقه الركّاب الآخرون بنظرات محمّلة بالبغض، هم الكالفينيون، النزهاء، الذين يحترمون القانون، وليسوا ممّن يتردّدون على ساحة «دام» ومحيطها.

شعر باولو بالاستياء بعد أن ترجّلا من الباص. أكان يفرض وجوده على هذه الفتاة التي كانت ودودة كلّ الوقت رغم عزمها على نيل ما تريده؟ ألم يحن الوقت ليودّعها ويدعها تذهب في سبيلها؟ هما بالكاد يعرف أحدهما الآخر، ومع هذا فقد صرفا من الوقت معًا أربعًا وعشرين ساعة ونيّفًا، وكأنّ هذا الأمر أكثر الأمور طبيعية.

لا بُدّ من أن كارلا قد قرأت أفكاره، إذ دعته كي يرافقها إلى الوكالة، لشراء تذكرة الباص المتوجّه إلى نيبال.

تذكرة باص!

كانت تلك أكثر الأفكار جنونية التي أمكنه تصوّرها.

كانت الوكالة المزعومة عبارة عن مكتب صغير يعمل فيه موظّف واحد عرّف بنفسه أنّه «لارس... فُلان»، فكان اسم شهرته من تلك الأسماء التي يستعصي حفظها.

سألته كارلا عن موعد انطلاق «الباص السحري» التالي (هذا كان اسم الحافلة).

ـ في الغد. لم يبقَ من متّسع سوى لراكبين، وسوف يؤخذ المقعدان لا محالة. وإذا لم تحجزاهما، فسوف يوقفنا شخص ما في طريقنا ليركب معنا.

حسنًا، آن لها الكفّ عن اللف والدوران.

ـ أليس من الخطر أن تسافر امرأة وحدها؟

ـ لا أعتقد أنّك ستبقين وحدك لأكثر من يوم. فقبل وصولك إلى كاتماندو، ستكونين قد سلبت قلوب كلّ الركّاب الذكور. شأنك شأن كلّ المسافرات وحدهنّ.

من الغرابة أن كارلا لم يسبق لها قط أن فكّرت في هذا الاحتمال. هدرت وقتًا جمًّا تبحث عن رفيق درب وسط لفيف من الفتيان المذعورين الذين لم يكونوا على استعداد سوى لاستكشاف ما سبق لهم معرفته، والذين حتّى أميركا اللاتينية شكّلت مصدر خطر لهم على الأرجح. راق لهم الادّعاء بأنّهم أحرار ماداموا على مسافة آمنة من أمّهاتهم. لاحظت كارلا أنّ باولو يجهد لإخفاء اضّطرابه، وسُرّت لذلك.

ـ أودّ تذكرة ذهاب. سأفكّر في العودة لاحقًا.

ـ إلى كاتماندو؟

في الواقع، كان الباص السحريّ يتوقّف عند عدد من المحطّات ليُقلّ ركّابًا أو يُنزلهم: ميونيخ، أثينا، اسطنبول، بلغراد، طهران أو بغداد (بحسب الطريق السالكة).

ـ إلى كاتماندو.

ـ أواثقة أنّك لا تريدين استكشاف الهند؟

لاحظ باولو أنّ كارلا ولارس يتغازلان. وإن يكن؟ هي لم تكن حبيبته، بل مجرّد واحدة من معارفه الجدد، لطيفة بالتأكيد، لكنّها حافظت على مسافة بينهما.

ـ ما ثمن التذكرة إلى كاتماندو؟

ـ سبعون دولارًا أميركيًا.

سبعون دولارًا للذهاب إلى الطرف الآخر من العالم؟ أيّ نوع من الباصات كان هذا؟ لم يصدّق باولو ما سمعه.

أخرجت كارلا المال من حزامها، وقدّمته إلى «وكيل السفريات». ملأ لارس ذاك إيصالاً يُشبه إيصال المطاعم، ولم يحدّد فيه سوى اسم الشخص، ورقم جوازه، ووجهته النهائيّة. ثم ملأ قسمًا من الإيصال بأختام لا طائل منها، لكنّها أعطت التذكرة بعض الوقار. وقدّمه إلى كارلا مع خارطة للطريق.

ـ لا يُستردّ المال إذا كانت الجمارك مغلقة، أو في حال وقوع الحوادث الطبيعيّة، أو النزاعات المسلّحة على الدرب، أو أيّ حوادث من هذا النوع.

فهمت ذلك تمامًا.

تدخّل باولو مخترقًا صمته ورقاده: ـ ومتى ينطلق الباص السحريّ المقبل؟

ـ بحسب الظروف. فنحن لسنا خطّ نقل منتظمًا، كما لك أن تخمّن. حملت نبرة لارس نفحة من العدائيّة، وتوجّه إلى باولو وكأنّه أخرق.

ـ أعلمُ ذلك جيدًا، لكنّك لم تُجبني عن سؤالي.

ـ من حيث المبدأ، إذا سار كلّ شيء على ما يرام، فلا بُدّ من أن يرجع

كورتيز بباصه إلى هنا خلال أسبوعين. يرتاح بعض الوقت، وينطلق من جديد قبل نهاية الشهر. لكن لا يسعني أن أضمن أيّ شي. فكورتيز، شأنه شأن كثير من سائقينا....

يخال المرء، إزاء استخدامه كلمة سائق بصيغة الجمع، أنّها شركة كبيرة، وهو أمر قد نفاه منذ قليل.

ـ ... يُرهقون من اتّخاذ الطريق نفسها على الدوام. وبما أنّهم أصحاب مركباتهم، فإن من الممكن لكورتيز أن يختار الانطلاق باتجاه مراكش مثلاً، أو باتّجاه كابول. هو يحدّثني عنهما دومًا.

استأذنت كارلا وغادرت، وقد رمت السويدي بنظرة قاتلة.

قال لارس، ردًا على مجاملة كارلا الصامتة: ـ لو لم أكن مشغولاً، لاصطحبتكِ بنفسي! وهكذا... لكنّا تعارفنا بشكل أفضل...

من الواضح أنّه لم ير وجودًا للرجل الذي رافق كارلا.

سوف تكون لنا فرصٌ أخرى. لدى عودتي، يُمكننا أن نتناول القهوة ونرى كيف سيتطوّر الأمر بيننا.

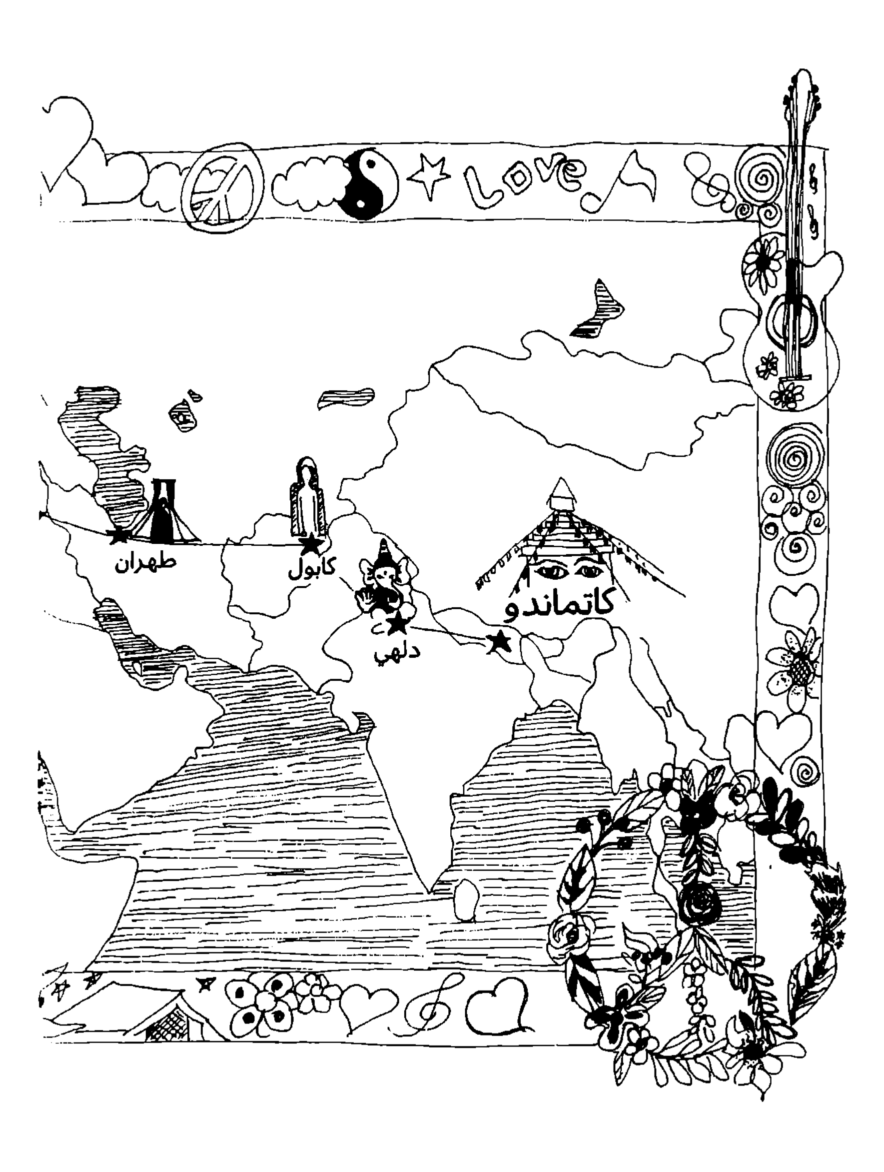
أضاف لارس، وقد بدّل نبرة صوته المتغطرسة، وكأنّه سيد العالم، الأمر الذي فاجأهما.

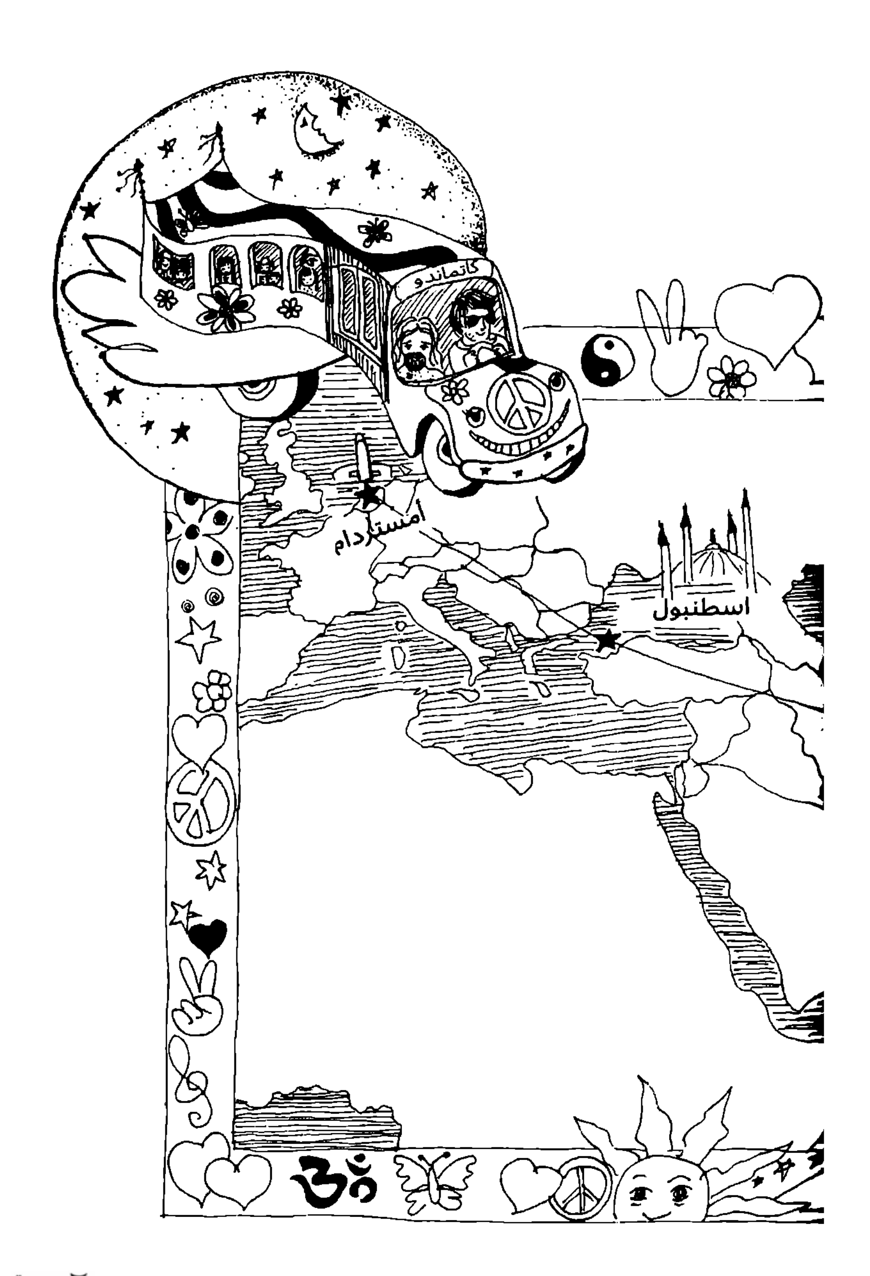
ـ من يبلغ النهاية، يُفضِ به الأمر إلى البقاء، لسنتين أو ثلاث على الأقل. في أي حال، هذا ما يقوله السائقون.

خطف؟ اعتداء؟

ـ على الإطلاق. تُلقّب كاتماندو بـ «شانغريلا» أي وادي الجنّة. لحظة يتعوّد المرء الارتفاع، يجد فيها كلّ ما يحتاج إليه في الحياة. ويُرجّح أنّه لن يرغب في العودة للعيش في المدينة.

وهو يقدِّم التذكرة إليها، زوّدها أيضًا بخارطة تشير إلى كلّ محطّات التوقّف.


Love
طهران
كابول
دلهي
كاتماندو


كاتماندو
أمستردام
اسطنبول

ـ غدًا عند الحادية عشرة تمامًا، ينبغي للجميع أن يكونوا هنا. من يصل متأخرًا، يفوته الباص.

ـ لكن أليس الوقت مبكرًا قليلاً؟

ـ سوف يكون لديك الوقت كلّه للنوم في الباص.

كانت كارلا، التي امتازت بالعناد والإصرار، قد قرّرت أمس، بعد أن عاودت لقاء باولو في ساحة «دام» وفي خلال النزهات اللاحقة، أنّ عليه الذهاب معها إلى نيبال. أحبّت رفقته، مع أنّهما لم يصرفا من الوقت معًا سوى أربع وعشرين ساعة ونيّف. طابت لها فكرة أنّها لن تغرم أبدًا بهذا البرازيلي، لكنّ أمرًا غريبًا راح يخالجها تجاهه، وعليها أن تتخلّص من شعورها في أسرع وقت. بالنسبة إليها، الوسيلة الفضلى تكمن في صرف الوقت مع شخص ما قبل أن يتبدّد سحره، في أقلّ من أسبوع.

إذا استمرّت الأمور على هذا النحو، وذهبت وحدها وتركت خلفها في أمستردام هذا الرجل الذي وجدته مثاليًا، فسوف تُفسِد ذكراه المتواصلة الرحلة. وإن واصلت تضخيم صورة هذا الرجل المثالي في ذهنها، فسوف تعود أدراجها في منتصف الدرب وينتهي بها الأمر إلى الزواج به، وهو أمر لم يندرج إطلاقًا ضمن مشروعاتها في هذه الحياة. أو أنهما سيذهبان إلى بلاد بعيدة، غريبة، ممتلئة بالهنود، والأفاعي الزاحفة في طرقات مدنها الكبيرة (مع أنّها خالت في الواقع أنّ هذا الشقّ الأخير مجرّد أسطورة، على غرار الكثير من الحكايات التي شاعت عن بلادها).

كان باولو في نظرها مجرّد شخصٍ مناسب في الوقت المناسب. لم يكن لديها أدنى نية في أن تُحوّل رحلتها إلى نيبال كابوسًا، بأن ترفض عروض هذا أو ذاك. كانت عازمة على الرحيل. فهذه المغامرة تُعدّ الأكثر تهوُّرًا، وتفوق حدودها كثيرًا، هي التي كانت الحدود شبه منتفية في نشأتها.

لن تتبع الهاري كريشنا أبدًا في الشوارع، لن تنجرّ على غير هدى وراء أحد المعلّمين الروحانيين الهنود الكثيرين الذين التقتهم، والذين لم يُجيدوا سوى تعليم الناس كيفيّة «إفراغ أذهانهم». كما لو أنّ ذهنًا فارغًا، فارغًا تمامًا، يسمح بالتقرّب من الله. منذ أن عرفت تجاربها الأولى المحبَطة في هذا السياق، آثرت أن تكون علاقتها مباشرة مع الخالق العظيم، الذي خشيته وعبدته في آن. كلّ ما همّها كان العزلة والجمال، والتواصل المباشر مع الله، وأن تكون على مسافة آمنة بشكلٍ خاص من عالمٍ عرفته تمام المعرفة، ولم يعد يثير اهتمامها.

ألم تكن يافعة للتفكير والتصرّف على هذا النحو؟ يُمكنها أن تبدّل رأيها لاحقًا متى شاءت، لكن كما قالت لويلما في المقهى *coffeeshop*، الجنّة، كما رآها أهل الغرب، كانت سخيفة، ومتواترة، ومضجرة حتى الموت.

جلس باولو وكارلا على ترّاس مقهى كان يقدّم القهوة والبسكوت فقط، وليس المنتجات التي تتوافر في «المقاهي» الأخرى. أدارا وجهيهما نحو الشمس. فقد حلّ يوم جميل آخر بعد ليل أمس الماطر، مدركَين أنّها بركة قد تختفي بين لحظة وأخرى. لم يتبادلا أي كلمة مذ غادرا «وكالة السفريات» بحجمها الصغير الذي أدهش حتّى كارلا، التي توقّعت أن تجد مكانًا أكثر مهنيّة.

ـ إذن... قد يكون هذا اليوم هو الأخير الذي نقضيه معًا. أنت ذاهبة إلى الشرق وأنا ذاهب إلى الغرب...

ـ ميدان «البيكاديللي». نعم أعرف، سوف تجد هناك نسخة عن كلّ ما رأيته هنا، الفرق الوحيد هو ما ستجده وسط الميدان. لكن من المؤكّد أنّ تمثال إيروس فيها أجمل كثيراً من الرمز القضيبي هنا في «دام».

لكن بعد المحادثة التي دارت في «وكالة السفريات»، ورغم جهل كارلا ذلك، كان باولو يستميت لمرافقتها، أو تحديدًا لاكتشاف أماكن لا نراها سوى مرّة في العمر، وكلّ ذلك مقابل سبعين دولارًا فقط. رفض أن يتقبّل فكرة أنّه كان يقع في غرام تلك الشابّة الماثلة إلى جانبه، لأنّها ببساطة لم تكن حقيقيّة، بل مجرّد إمكانيّة فحسب. فهو لن يُغرم بمن لا تُظهر له أيّ رغبة في مبادلته الحبّ.

راح يعاين الخارطة، يجتازان جبال الألب، ثم بلدين شيوعيين على الأقلّ، ليبلغا البلد المسلم الأوّل الذي سيزوره للمرة الأولى في حياته. كان قد قرأ الكثير عن الدراويش الذين يرقصون ويدورون، وهم يشرّعون أنفسهم للأرواح. حتّى أنّه حضر استعراضًا لمجموعة كانت تجول البرازيل، في أحد مسارح المدينة الأساسيّة. أمكن أن يصبح حقيقة كلّ ما كان حتّى حينه مجرّد حبر على ورق.

مقابل سبعين دولارًا يمضي برفقة أشخاص لديهم حسّ المغامرة مثله.

نعم، لم يكن ميدان «البيكاديللي» سوى ساحة دائرية يتحلّق حولها ناس بثياب زاهية، في بلد لا يحمل فيه عناصر الشرطة أسلحة، وتُقفل الحانات فيه عند الساعة الحادية عشرة ليلاً. ويقتصر الجاذب فيه على الآثار التاريخيّة، وأشياء من هذا القبيل.

كان قد بدّل رأيه بعد دقائق، فالمغامرة أكثر تشويقًا من ساحة في مدينة. جاء عن الأقدمين أنّ التغيّرات دائمة وثابتة، لأنّ الحياة قصيرة. ولو كان كلّ شيء ثابتًا، لانتفى العالم.

أنّى له أن يبدّل رأيه بهذه السرعة؟

كثيرة هي الانفعالات التي تحرّك القلب البشري عندما يختار أن

يكرّس نفسه لدرب الروحانيّات. قد يكون دافعه نبيلاً مثل الإيمان، أو حبّ القريب أو الإحسان. وقد يتلخّص في نزوة، في الخوف من الوحدة، في الفضول، أو في رغبة أن نُحَبّ.

لكن لا أهميّة لأيٍ من كلّ هذا. فالدرب الروحانية الحقيقيّة لهي أقوى من الأسباب التي تدفعنا إليها. تُفرض علينا شيئًا فشيئًا، وتحمل معها الحبّ، والانضباط، والكرامة. وتحلّ لحظة نستحضر فيها ما ولّى، ونتذكّر ما كنّا عليه في بداية رحلتنا، فنضحك على أنفسنا. استطعنا أن نكبر وإن مشينا الدرب لأسباب وجدناها مهمّة، غير أنّها كانت تافهة في الحقيقة. استطعنا أن نغيّر مسارنا لحظة اقتضى الأمر ذلك.

إن محبّة الله لهي أقوى من الأسباب التي تدفعنا إليها. آمن باولو بذلك بكلّ جوارحه. فقدرة الله معنا في كلّ آن. علينا بالشجاعة لتتجلّى هذه القدرة في أرواحنا، في مشاعرنا، في تنفّسنا، علينا بالشجاعة لنغيّر رأينا عندما ندرك أنّنا لسنا سوى أداة بسيطة لمشيئته، وأنّ مشيئته هي ما علينا الوفاء به.

ـ أفترض أنّك تريدين أن أوافق، بالنظر إلى أنّك كنت منذ البارحة في «باراديسيو» تنصبين لي الشِرك بتأنٍّ.

ـ أنت مجنون!

ـ دومًا.

نعم، رَغِبَتْ جدًّا أن يرافقها. لكنّها، ككلّ امرأة على دراية بعقليّة الرجال، لم تستطع قول شيء. لو قالت شيئًا، لشَعَرَ أنّه في موقع قوّة، بل أسوأ: في موقع ضعف. كان حينها قد فهم لعبتها الصغيرة، التي سمّاها «شركًا».

ـ أجيبي عن سؤالي: أتريدين أن آتي؟

ـ لا أبالي.

أسرّت لنفسها: أرجوك تعال. ليس لأنّك شاب مثير للاهتمام على وجه التحديد، فسويدي «الوكالة» كان في الحقيقة أشدّ حزمًا وعزمًا، بل لأنّني معك أشعر بحالٍ أفضل. وقد زهوتُ بك فخرًا عندما تبعت نصيحتي، وخلّصت الكثير من الأرواح، عندما قرّرت ألاّ تنقل الهيرويين إلى ألمانيا.

ـ لا تبالين؟ أتقصدين أنّ الأمر سيّان؟

ـ صحيح.

ـ وفي هذه الحالة، إذا نهضتُ في هذه اللحظة عائدًا إلى «وكالة السفريات»، واشتريت التذكرة الأخيرة، ألن يسرّك ذلك ولو قليلاً؟

نظرت إليه وابتسمت. أمِلَت أن تُفصح ابتسامتها عن كلّ شيء: أنّها ستُسرّ جدًّا أن يكون رفيق دربها في السفر، لكنّها لم تستطع، بل لم تُرِد التعبير عنه بالكلمات.

قال، وهو ينهض: ـ أنت من سيدفع ثمن القهوة. لقد أنفقت ثروة اليوم بسبب غرامة الباص.

كان باولو قد قرأ ابتسامتها، حاجتها إلى أن إخفاء فرحها. ولذلك، تفوّهت بأوّل ما خطر ببالها:

ـ هنا تشارك النساء على الدوام في دفع الحساب. لم تجرِ تربيتنا كأغراض جنسيّة. وقد دفعت غرامة لأنّك لم تُصغ إليّ. لكن لا بأس، قلّما يهمّني أن تصغي إليّ، واليوم أنا من سيُسدّد الحساب.

يا لها من امرأة نكدة! لديها رأي في كلّ شيء! أسرّ باولو بذلك لنفسه.

غير أنّه حقيقةً كان يعشق طريقتها في تأكيد استقلاليّتها عند أيّ فرصة.

سألها، وهما يعودان إلى الوكالة، إن كانت تعتقد حقًّا بإمكانية بلوغهما نيبال، ذلك البلد البعيد جدًّا، بتذكرة بهذا الثمن الزهيد.

ـ ساورتني الشكوك قبل أشهر، حتّى بعد أن رأيتُ إعلان الباص المتوجّه إلى الهند، أو نيبال أو أفغانستان، والذي تراوحت تكلفة تذكرته على الدوام بين سبعين دولارًا ومئة. ثمّ قرأت في «الأرك»، وهي صحيفة بديلة، قصّة شخص سافر ورجع، ومذاك أستميت لفعل ما فَعَل.

لكنّها تحفّظت عن القول إنّها تنوي الذهاب فقط، وعدم العودة إلاّ بعد سنوات قليلة. فقد يستنكر باولو فكرة أن يرجع قاطعًا ملايين الكيلومترات التي تفصلهما عن وجهتهما.

لكن سيكون عليه أن يتأقلم. فالتأقلم مرادف للحياة.

لـم يكن «الباص السحريّ» سحريًا في شيء، ولـم يُشبه ذاك الذي رأته في إعلانات الوكالة، لم يكن حافلة مطليّة بألوان زاهية تغطّيها رسوم وعبارات. كان مجرّد باص، على الأرجح أنّه استُخدم في وقتٍ ما لنقل التلاميذ إلى المدرسة، بمقاعد لا تنحني إلى خلف، ويعلوه إطار حديدي رُبطت به عبوات وقود وعجلات احتياطيّة.

جمع السائق الركّاب وكانوا عشرين راكبًا بدوا وكأنّهم خرجوا من الفلم السينمائي نفسه. تتفاوت أعمارهم، بين قاصرين فارّين من منازلهم (كانت ثمّة فتاتان يانعتان، ولـم يُطلب إليهما إبراز أي مستند شخصي) ومن هم أكبر سنًا، كرجل كان يُجيل بنظره في الفضاءطوال الوقت، على محيّاه هيئة من حظي بالتنوير الذي طالما رجاه، وقرّر حينها أن يغادر في رحلة طويلة.

كان ثمّة سائقان: واحد ينطق بلكنة إنجليزيّة، وكان الآخر، بلا ريب، هنديًا.

ـ مع أنّني أكره الأنظمة، فإن علينا أن نمتثل لبعضها. الأولى: المخدّرات محظورة في الباص لدى اجتياز الحدود. ففي بعض البلدان، يُعادل ذلك السَجن، وفي بعضها الآخر، كما في إفريقيا، قد يعني الموت بقطع الرأس. آمل أن تكونوا قد أوليتم كلامي آذانًا صاغية.

توقّف السائق عن الكلام للتحقّق من ذلك. فجأة، بدا أنّه لفت انتباه الجميع.

ـ أسفل الباص، أحتفظ، بدلاً من الحقائب، بحاويات ماء وإعاشات كتلك التي توزَّع على العساكر. تحتوي كلّ إعاشة على هريس اللحم والمقرمشات وألواح الحبوب بحشوة الفواكه ولوح شوكولاتة بالمكسّرات أو الكاراميل، ومسحوق عصير البرتقال وسكر وملح. تحضّروا لتناول الطعام باردًا لجزء كبير من الرحلة، بعد عبورنا تركيا.

تُمنح التأشيرات عند الحدود، وهي تأشيرات عبور. ليست مجانيّة لكنّها غير باهظة. وبحسب البلد، يُمنع الترجّل من الباص، كما في بلغاريا، ذات النظام الشيوعي. إذن، اقضوا حاجتكم قبل بلوغ الحدود، فلن أتوقّف لحاجات خاصّة.

نظر السائق بشكل خاطف إلى ساعة يده.

ـ حان وقت الانطلاق. أبقوا حقائب الظهر معكم داخل الباص. آمل أن تكونوا قد جلبتم أكياسًا للنوم. سنتوقّف ليلاً، أحيانًا في محطّات وقود أعرفها، وفي الريف أحيانًا كثيرة، على مقربة من الطريق. ومتى استحال ذلك، كما في اسطنبول، سننزل في فنادق رخيصة.

ـ ألا يمكننا أن نضع حقائب الظهر على السقف، لكي يكون لدينا متسع أكبر لأرجلنا؟

ـ بالطبع يمكنكم ذلك. لكن لا تُفاجأوا إذا اختفت لدى التوقّف من أجل القهوة. في الداخل، في مؤخّر الباص مكان للحقائب. مكان واحد لكل شخص، وهذا مدوّن على ظهر البطاقة مع خارطة الطريق. وماء الشرب غير مشمول في سعر التذكرة. آمل أن تكونوا قد أحضرتم عبوات للماء. يُمكنكم دومًا إعادة ملئها متى توقّفنا من أجل الوقود.

ـ وإذا وقع مكروه؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ إذا مَرِضَ أحدنا مثلاً.

ـ لديّ علبة إسعافات أوّليّة. لكن، كما يُشير اسمها، هي أوّليّة وتُسعف إلى حين التمكُّن من بلوغ مدينة ما وإنزال المرضى فيها. لذا اعتنوا كلَّ العناية بصحّتكم البدنيّة كما تحبّذون الاعتناء بأرواحكم. أفترض أنّ الجميع ملقّحون ضدّ الحمّى الصفراء والجُدري.

كان باولو مُحصّنًا باللقاح الأول. فقد توجّب على كلّ برازيلي أن يُحقن به قبل مغادرة البلاد، إذ اعتقد الأجانب بلا شك أنّ البرازيليين يحملون طيفًا من الأمراض المُعدية. لكنّه لم يكن محصّنًا ضدّ الجُدري: ففي بلاده، سرى الاعتقاد بأنّ الإصابة بالحصبة التي تحدث في الصغر، تُحصّن المرء طبيعيًّا ضدّ الجُدري.

وفي أي حال، لم يطلب السائق أيّ دفتر لقاح من أحد. أخذ الركّاب يصعدون ويختارون مقاعدهم. قام أكثر من شخص بوضع حقيبته على المقعد المجاور، لكنّ السائق كان يصادرها على الفور، ويقذف بها إلى مؤخّر الباص.

ـ سوف يصعد ركّاب آخرون في طريقنا أيها الحمقى.

جلست الفتاتان، اللتان بدتا قاصرتين وتحملان على الأرجح جوازي سفر مزيّفين، متجاورتين. وجلس باولو إلى جانب كارلا أيضًا. وكان أوّل ما فعلاه اتّباع نظام للتناوب على المقعد الملاصق للنافذة. اقترحت أن يتبادلا المقعد كلّ ثلاث ساعات، وأنّها ليلاً، ستجلس ناحية النافذة لكي يتمكّنا من النوم نومًا هانئًا. وجد اقتراحها لاأخلاقيًا ومُجحفًا، لأنّ ذلك سيُمكّنها من أن تُسند رأسها. قرّرا في النهاية أن يتناوبا كلّ ليلة على الجلوس بمحاذاة النافذة.

شُغِّل المحرّك، وانطلق الباص المدرسي الذي لا يمتّ إلى الرومنسيّة بصلة، باستثناء الاسم الذي حمله، الباص السحري، في رحلته لعبور آلاف الأميال التي كانت ستُفضي بهم إلى الطرف الآخر من العالم.

أسرّ باولو إلى رفيقته: «عندما كان السائق يتكلّم، بدا لي وكأنّنا ذاهبون إلى الخدمة الإلزاميّة كما في البرازيل، وليس إلى خوض مغامرة». تذكّر عندها الوعد الذي قطعه على نفسه عندما نزل من جبال الأنديز بالباص، والمرّات الكثيرة التي لم يفِ به فيها.

أغاظ هذا التعليق كارلا، لكن لا يُفترض بها أن تجادله، ولا أن تغيّر مكانها، ولم يكن قد مضى على انطلاق الرحلة سوى خمس دقائق. أخرجت كتابها من حقيبة يدها وراحت تقرأ.

ـ إذن أنت مسرورة لذهابنا إلى حيث أردت الذهاب؟ بالمناسبة، لقد كذب علينا الشاب في «الوكالة»، ذلك أن ثمّة مقاعد لا تزال شاغرة.

ـ لم يكذب علينا: لقد سمعت السائق جيّدًا، إذ قال إن ثمة ركابًا آخرين سنقلّهم في طريقنا. ولستُ ذاهبة إلى حيث أردت الذهاب، بل أرجع إليه.

لم يستوعب باولو ردّها، الذي لم تسترسل في تفسيره، وقرّر أن يدعها وشأنها، وأن يركّز في المساحات المسطّحة المحيطة به، والتي عبرتها قنوات من كل حدب وصوب.

لمَ صنع الله العالم وصنع الهولنديون هولندا؟ أليست بلاد الأرض واسعة، وتنتظر من يأهلها؟

بعد ساعتين، تصادق الركّاب كلّهم، أو تعارفوا على الأقل. كان ثمّة مجموعة من الأستراليين الذين، رغم ودّهم وابتساماتهم العريضة،

لم يرغبوا كثيرًا في التحادث. وكارلا كذلك، ادّعت قراءة الكتاب الذي سبق أن نسيت اسمه، لا بُدّ من أنّها كانت تفكّر في وجهتهم، في الوصول إلى هيمالايا، مع أن آلاف الأميال لم يجرِ اجتيازها بعد. عرف باولو عن تجربة الشعور بالقلق الذي تولّده حالات مماثلة، لكنّه ارتأى السكوت: مادامت لا تفرغ مزاجها السيّئ عليه، كان كلّ شيء على ما يرام. وإن حدث، فسوف يُبدّل مقعده.

جلس خلفهما فرنسيّان، أب وابنته، بدا عليهما التوتّر وبدت الحماسة. وإلى جانبهما، جلس ثنائي إيرلندي. عرّف الشاب بنفسه على الفور، واستغلّ الظرف ليُخبرهما أنّها رحلته الثانية، وأنّه هذه المرّة قد اصطحب حبيبته. وهو يرى أن كاتماندو، «إذا بلغناها طبعًا»، مكان لا بُدّ من المكوث فيه سنتين كحدٍ أدنى. في زيارته الأولى، لم يمكث فيها تلك المدّة بسبب عمله. لكنه، هذه المرّة، ترك كلّ شيء. باع مجموعة صمديات السيارات، جنى مالاً وفيرًا منها (أيُمكن لمجموعة الصمديات أن توفّر كلّ هذا المال؟)، وترك شقّته. ثمّ دعا حبيبته إلى مرافقته، وقد رسم على ثغره ابتسامة عريضة.

تناهت إلى كارلا جملة «مكان لا بُدّ من المكوث فيه سنتين كحدٍ أدنى»، وخرجت عن ادّعائها القراءة لتسأل عن سبب ذلك.

أوضح رايان، هذا هو اسمه، أنه في نيبال شعر وكأنّه خرج من الزمن، ودخل واقعًا موازيًا، حيث كلّ شيء ممكن. لم يبدُ أنّ حبيبته ميرث، التي لم تكن لا محبّبة ولا سمجة، على قناعة بأنّ هذا البلد هو المكان الذي ينبغي للجميع أن يعيشوا فيه للسنوات المقبلة. لكن من البديهي أنّ حبّها لرايان قد انتصر عليها.

ـ ماذا تقصد بواقع موازٍ؟

ـ تلك الحالة الروحيّة التي تستحوذ على جسدك وروحك عندما تشعرين بالسعادة، بالحب وقد ملء قلبك. فجأة، كلّ ما يشكّل جزءًا من يومك، يكتسي معنى جديدًا، تُصبح الألوان أكثر بريقًا، وما كان يُزعجك، من برد، أو مطر، أو عزلة، أو دراسة، أو عمل، يتّخذ هيئة جديدة. لأنّك لهُنيهة على الأقلّ، تكونين قد دخلت روح الكون وذُقت كوثر الآلهة.

بدا الإيرلندي مسرورًا، وهو يعبِّر بالكلمات عمّا لا يُمكن الشعور به إلاّ باختباره. بدا أنّ ميرث لم تستحبّ كثيرًا مخاطبته الهولّنديّة الجميلة. كانت تدخل واقعًا موازيًا مُضادًّا، واقعًا جعلَ كلّ شيءٍ يبدو فجأةً قبيحًا وثقيل الوطأة.

تابع رايان، وكأنّه خمّن ما كان يجول في ذهن حبيبته: ـ هناك الوجه الآخر أيضًا، عندما تتحوّل تفاصيلنا اليوميّة الصغيرة إلى مشكلات من لا شيء. ثمّة واقعات موازية. نحن في هذا الباص لأنّنا اخترنا ذلك، أمامنا آلاف الأميال، ولنا أن نختار كيف نسافر: بالسعي إلى حلم بدا مُستحيلاً ذات يوم، أو بالتفكير في أنّ المقاعد غير مريحة وأنّ الجميع لا يُطاقون. كلّ ما نتصوّره الآن، سوف ينعكس على ما تبقّى من الرحلة.

ادّعت ميرث أنّها لم تفهم أنّ الرسالة موجّهة إليها.

ـ عندما كنتُ في نيبال للمرة الأولى، بدا الأمر وكأنّني عقدتُ اتّفاقًا مع هولندا، اتّفاقًا لم يُفسَخ. تردّد في ذهني صوتٌ متواتر: «عِش اللحظة الآن، استفد من كلّ ثانية لأنّك سترجع إلى موطنك قريبًا. ولا تنسَ أن تلتقط صورًا تُريها لأصدقائك كي تُظهر لهم أنّك كنت مقدامًا وشجاعًا، أنّك عشت تجارب يودّون عيشها لكنّهم يفتقرون إلى الشجاعة»، إلى أن ذهبتُ

ذات يومٍ إلى كهف في هيمالايا برفقة أشخاص آخرين. لدهشتنا الكبيرة، رأينا زهرة صغيرة في مكان لا ينمو فيه أيّ شيء عمليًا. كانت بحجم إصبع تقريبًا. رأينا فيها معجزة، إشارة. ولكي نقدّم إليها احترامنا، أمسك بعضنا بأيدي بعض، وأنشدنا المانترا. في غضون ثوانٍ، راح الكهف يهتزّ. لم يعد البرد يُزعجنا، والجبال البعيدة بدت فجأةً أقرب. لمَ؟ لأنّ من عاشوا هناك خلّفوا وراءهم ذبذبة حبّ نابضة شبه ملموسة، كانت قادرة على اكتناف كلّ شخص وكلّ شيء في ذلك المكان. وهذا تمامًا كبذرة الزهرة تلك التي كانت قد حملتها الرياح، كما لو أنّ رغبتنا، رغبتنا الحرّى في رؤية العالم عالمًا أفضل، قد تجسّدت، وأثّرت في كلّ شيء في دربها.

لا بُدّ من أن ميرث غالبًا ما سمعت هذه القصّة، غير أنّ باولو وكارلا كانا مأخوذين بكلام رايان.

ـ لا أدري كم من الوقت امتدّ ذلك. لكن عندما عدنا إلى الدير حيث مكثنا، وأخبرنا عمّا حدث، قال لنا أحد الرهبان إنّ شخصًا اعتبروه قدّيسًا عاش في ذلك الكهف. أضاف الرهبان أيضًا أنّ العالم كان يتغيّر، وأنّ الأهواء، كلّها بلا استثناء، لَسوف تشتدّ. سيشتدّ الكره، ويكون أكثر تدميرًا وسوف يُشرق وجه الحبّ.

قاطع السائق الحديث قائلاً إن عليهم، نظريًا، متابعة السير حتّى لوكسمبورغ، والمكوث فيها ليلاً. لكن إذا تبيّن أنّ لا أحدًا يهتمُّ بالإمارة، فسوف يواصلون الرحلة، والنوم لاحقًا في الهواء الطلق قرب مدينة ألمانية اسمها دورتموند.

ـ سنتوقّف بعد قليل لتناول الطعام، والاتصال بالمكتب، لكي يُخبروا الركّاب التالين أن يستعدّوا للانطلاق مبكرًا. إذا لم يذهب أحد إلى لوكسمبورغ، فسوف نوفّر أميالاً قيّمة.

رحب الجميع باقتراحه. كانت ميرث ورايان يهمّان بالعودة إلى مقعديهما، عندما أوقفتهما كارلا:

ـ خِلتُ أنّ بلوغ واقع موازٍ ممكن فقط عبر التأمّل وتسليم قلبك إلى الإله الواحد.

ـ هذا ما أفعله كلّ يوم. لكنّني أفكّر أيضًا في الكهف كلّ يوم، في هيمالايا، في الرهبان. أعتقد أنّني أتمْمتُ إقامتي في ما نسمّيه «الحضارة الغربية». أبحثُ عن حياةٍ جديدة. وبما أنّ العالم الآن في صدد التغيّر، فإنّ العواطف الإيجابيّة والسلبيّة أيضًا ستُصبح أقوى، كما أنّني، بل نحن جميعًا في الواقع، لسنا على استعداد لمواجهة الوجه المظلم للحياة.

ـ «لا داعيَ إلى ذلك»، قالتها ميرث، وقد دخلت على الحديث بقولها للمرّة الأولى، مُثبتةً أنها نجحت في النجاة من سُمّ الغيرة في غضون دقائق قليلة.

عرف باولو، بطريقة ما، كلّ ما قاله رايان. فقد سبق له أن خبر تجارب مماثلة. وفي أغلب الأوضاع كان له الخيار بين الانتقام والحب، فاختار الحب. لم يكن خياره الأفضل دومًا، فقد نعتوه بالجبان أحيانًا. وأحيانًا، كان هو بنفسه، يشعر أنّه ينزع إلى الخوف أكثر من نزوعه إلى الرغبة الصادقة في جعل العالم مكانًا أفضل. كان إنسانًا بكلّ ما في الإنسان من هشاشة. لم يفهم كلّ ما حدث له في حياته، لكنّه رغب رغبة عارمة أن يؤمِن بأنّه يبحث عن النور.

للمرّة الأولى، منذ انطلاق الرحلة، فهم أنّ الأمر مكتوب: انبغى له أن يمضي في هذه الرحلة، أن يلتقي هؤلاء الأشخاص، أن يقوم بأمر دَرَجَ على التبشير به ولم يتحلّ دومًا بالشجاعة لتحقيقه: أن يُسلّم أمره إلى الكون.

بمرور الوقت، راح الركّاب ينقسمون مجموعات، أحيانًا بسبب اللغة المشتركة، وأحيانًا أخرى لغاية ليست لغويّة، كالجنس مثلاً. لذلك، مرّت الأيام الخمسة الأولى سريعة على الجميع ما عدا الفتاتين، اللتين كانتا أغلب الظنّ قاصرتين، وبقيتا على مسافة من كلّ شخصٍ ومن كلّ شيء، لأنّهما اعتقدتا خطأً أنّهما محور الانتباه العام، وهكذا عبر تبادل القصص استكشف كلٌّ من الركّاب نفسه في غيره. ولم يكن الضجر حاضرًا، وكان هذا الإيقاع يشهد انقطاعًا عندما يتوقّفون في محطّات الوقود لملء خزّان الوقود وعبوات الماء، وشراء الشطائر والمشروب وقضاء الحاجات في الحمّامات. أما الوقت الباقي، فقد انقضى في التحادث والتحادث والتحادث أكثر.

ناموا تحت النجوم، قاسوا البرد معظم الوقت. لكنّهم كانوا ممتنّين لأنّهم استطاعوا تأمّل السماء، وعرفوا أنّ بإمكانهم محادثة السكون، والنوم برفقة ملائكة شبه مرئيّين، والكفّ عن الوجود لبضع لحظات، بل هُنيهات، إذ شعروا بالأبديّة واللانهاية تحيطان بهم.

تقرّب باولو وكارلا ورايان وميرث. وتوخّيًا للدقّة، يمكن القول إن ميرث قد انضمّت إليهم رغمًا عنها، فقد سبق أن سمعت قصّة الواقعات الموازية هذه عشرات المرّات. فاقتصرت مشاركتها إذن على مراقبة حبيبها بشكل متواصل لئلا تضطرّ إلى العودة في منتصف الطريق، لأنّها أخفقت في أمر بسيط: الاستمرار في جذب اهتمامه حتّى بعد مرور سنتين قضياها معه.

لاحظ باولو هو أيضًا اهتمام الإيرلندي الذي سأله، حالما سنحت له الفرصة، عن طبيعة علاقته بكارلا. أجابت كارلا بكلمتين:

ـ لا علاقة.

ـ صديقان مقرّبان إذن

ـ ولا حتّى هذا. مجرّد رفيقين في السفر.

ألم تكن هذه الحقيقة؟ قرّر باولو أن يتقبّل الأمور كما هي عليه، وأن ينسى أمر رومنسيّة لا جدوى منها. كانا أشبه بملاّحَين يُبحران إلى بلاد ما، وإن شغلا المقصورة ذاتها، نام أحدهما على السرير العلوي والآخر على السفلي.

وكلّما ازداد اهتمام رايان بكارلا، اضّطربت ميرث واغتاظت من دون أن تفضح نفسها طبعًا، وإلاّ لكان ذلك دليلاً مردودًا على الخنوع. وتقربّت من باولو، بالجلوس إلى جانبه أثناء الحديث، وإسناد رأسها إلى كتفه أحيانًا، فيما روى رايان كلّ ما تعلّمه مذ عودته من كاتماندو.

«يا للروعة!»

بعد ستّة أيام من السفر برًا، نفذ الضجرُ إلى الجوّ، وخيّم فوق الحماسة. والآن بعد أن فرغ الجميع من أيّ جديد على ألسنتهم، راحوا يفكّرون كيف أنّ أيّامهم اقتصرت على الأكل، والنوم في العراء، ومحاولة الجلوس في وضعية مريحة أكثر في مقاعدهم، وفتح النوافذ وإغلاقها لطرد دخّان السجائر، والشعور بالملل من قصّ حكاياتهم والتكلّم مع الآخرين، الذين لم يفوّتوا ولو فرصة في طرح التعليقات اللاذعة هنا أو هناك، أسوة بباقي البشر عندما يجتمعون في ثلّة، حتّى ولو كانت صغيرة وعارمة بالنيّات الحسنة كهذه المجموعة.

بقي الأمر كذلك إلى أن ظهرت أمامهم الجبال. والوادي. والنهر الذي شقّ الصخور العملاقة. سأل أحدهم عن موقعهم، أجاب السائق الهندي إنّهم دخلوا النمسا من فورهم.

ـ سوف نترجّل قريبًا، ونتوقّف قرب النهر الجاري في الوسط لكي نغتسل. لا شيء أفضل من الماء البارد ليُذكّرنا بأنّ دمًا يجري في عروقنا، وأنّ أفكارًا تراودنا علينا أن نطرحها جانبًا.

تحمّس الجميع لفكرة التعرّي تمامًا، هذه الحريّة المطلقة، هذا الرابط بلا وسيط مع الطبيعة.

التفّ السائق عند طريق حجريّة، وراح الباص يترجّح وبعض الركّاب يصرخون خشية أن ينقلب، ولم يسع السائق إلاّ الضحك. بلغوا ضفّة جدولٍ أخيرًا، أو بالأحرى ذراعًا من النهر انشقّت عنه، وشكّلت التواءً ركنت إليه المياه، قبل أن تعود وتنضمّ إلى التيّار الجاري.

ـ أمامكم نصف ساعة. استفيدوا لغسل ملابسكم.

هرع كل منهم إلى حقيبته. كان كلّ هيبّي يحمل في حقيبته منشفة يد صغيرة، وفرشاة أسنان، وألواح صابون، بالنظر إلى أنّ الأمر كان ينتهي بهم دومًا إلى التخييم، بدلاً من النزول في الفنادق.

ـ من الطريف أن يفكّر الناس أنّنا لا نستحمّ. قد نكون أنظف حتّى من أغلبيّة الأُسَر برجالها ونسائها، أولئك الذين يُلصقون بنا هذه التُهم.

التُهَم؟ وما همّنا من ذلك؟ إن مجرّد الإقرار بالانتقاد يُكسبه طابع القوّة. رشق قائل ذاك التعليق الجميع بنظرات غضبى. فهم لم يولوا يومًا أقوال الآخرين أدنى انتباه. كان ذلك صحيحًا جزئيًا، إذ راق لهم أن يشدّوا الانتباه إلى ملبسهم وأزهارهم وشهوانيّتهم الاستفزازيّة والمُعلَنة، وملابس الفتيات المجوّفة التي أسفرت عن نهود بلا حمّالات، وسوى ذلك. والتنانير الطويلة أيضًا، فهذه كانت أكثر إغواء وأكثر أناقة. هذا على الأقلّ ما أكّده مَن عيّنوا أنفسهم مختصّي الأزياء في المجموعة، الذين لم يسمع بهم أحد. في أيّ حال، لم يكن الإغواء في نظر النساء وسيلة لجذب الرجال، بل لإظهار أنّهن فخورات بأجسادهنّ، والحرص أن يلاحظ الجميع ذلك.

ومن لم يحملوا معهم مناشف، تناولوا بلوزات قصيرة الأكمام، بلوزات بأكمام، وبلوزات قطنيّة، أو ملابس داخليّة، أيّ، باختصار، قِطع قماش احتياطيّة تمكّنهم من تجفيف أجسادهم. وسرعان ما هبطوا إلى النهر

عُراة وهم يجرون إليه، ما عدا الفتاتين اليانعتن طبعًا، اللتين أبقت كل منهما على الكيلوت وحمّالة الصدر.

هبّت ريح قويّة إلى حدٍّ ما. وشرح السائق قائلاً إنّ الموقع الذي هم فيه جاف ومرتفع جدًا، وإنّ كلّ شيء يجفّ بسرعة في هذه البقعة، بفضل تيّار الهواء.

ـ لهذا اخترتُ هذا المكان.

من الطريق، لم يكن بوسع أحد أن يرى ما يحدث في الأسفل، فقد حجبت الجبال الشمس، لكن كان المكان جميلاً هكذا. فعلى مدار أولئك المسافرين انتصبت الصخور، وارتفعت أشجار الصنوبر عند الضفاف، وصقلت الحجارةَ قرونٌ من التعرية. لذلك ارتموا دفعة واحدة في الماء البارد من دون تفكير، وراحوا يصرخون ويتراشقون بالماء، وحلّت لحظة من المشاركة بين أفراد المجموعات المختلفة وكأنّهم يقولون: «لهذا السبب نحيا حجّاجًا، لأنّنا ننتمي إلى عالم يكره الركود».

أسرّ باولو لنفسه: إن صمتنا كلّنا لساعة، سوف نتمكّن من سماع الله. وإن صرخنا ابتهاجًا، سيسمعنا الله أيضًا، وسيحلّ بيننا ليباركنا.

ترك السائق ومساعده المجموعة. لا بُدّ أنّهما تعوّدا رؤية الأجساد العارية لشباب يتجرّأون على تعرية أنفسهم ملايين المرّات. وذهبا للاستحمام. ورجعا ليتفقّدا من ثـمّ ضغط العجلات والزيت.

كانت المرّة الأولى التي يرى فيها باولو كارلا عارية وانبغى له أن يلجم نفسه عن الغيرة. كان نهداها متوسّطي الحجم، كنهدي الفتاة التي شهدت جلسة التصوير في ساحة «دام». لكن كانت كارلا أجمل، أجمل كثيرًا.

غير أنّ الملكة الحقّة بينهنّ جميعًا كانت ميرث، بفخذيها المشوقَين، ومقاييسها المتناسقة، لكأنّها إلهة نزلت إلى وادٍ وسط جبال الألب النمساويّة. ابتسمت لباولو، عندما لاحظت أنّه كان يرصدها، وردّ لها الابتسامة، عارفًا تمام المعرفة أنها لم تكن سوى لعبة منها لاستثارة غيرة رايان وإقصائه عن الغاوية الهولنديّة. لكنّنا نعلم جميعًا أنّ لعبة بدوافع ضمنيّة قد تتحوّل مع ذلك إلى حقيقة. وللحظة، حلم بها باولو وقرّر أنّه من الآن فصاعدًا سيبذل مجهودًا أكبر مع هذه المرأة التي ترنو منه أكثر فأكثر بمحض إرادتها.

غسل المسافرون ملابسهم. والفتاتان اليانعتان المزعجتان اللتان ادّعتا أنّهما لا تريان العراة العشرين إلى جانبهما، بدتا فجأة وقد وجدتا موضوع حديث مشوّق. غسل باولو قميصه وسرواله الداخلي وعصرهما. فكّر في غسل بنطلونه وارتداء البنطلون الاحتياطي في حقيبته، ثمّ فكّر أن يترك ذلك للحمام الجماعي التالي، فكان بنطلون الجينز مفيدًا في كلّ الأحوال، باستثناء أنّه لم يكن يجفّ بسرعة.

لمح ما بدا أنّه معبد كَنَسي على إحدى قمم الجبال المحيطة، وكذلك الأخاديد التي ثلمت بساط الخضار، وقد حفرها الجريان المتواصل للمياه الموسميّة التي كانت تتدفّق كلّ ربيع بعد انصهار الثلوج. والآن، لم تعد سوى خطوط رمليّة.

كان الباقي فوضى مطلقة، فوضى صخر أسود تداخل بسواه من الصخور، بلا انتظام، بلا تنبّه للمظهر. وهذا تحديدًا ما جعله بهيًّا. لم يسع إلى شيء، ولا حتّى إلى اتّباع ترتيب ما، أو التشكّل بطريقة تُحسّن من مقاومته لهجمات الطبيعة المتواصلة. أمكن له أن يكون هنا منذ ملايين السنين أو من أسبوعين فقط. كانت ثمّة لافتات على الطرقات تُحذّر

السائقين من خطر انزلاق الصخور. وعنى ذلك أنّ تلك الجبال لا تزال في طور التشكّل، حيّة نابضة، وأن الصخور تبحث إحداها عن الأخرى تمامًا كالبشر.

وكانت هذه الفوضى جميلة، كانت ينبوع الحياة، كانت تُشبه تصوّره للكون ما بعد هذا المكان، وتصوّره لأغوار روحه. لم ينبثق هذا الجمال من المقارنات أو الصلوات أو الرغبات، بل ببساطة من عيش حياة طويلة على شكل صخر أو شجر صنوبر، شجر كان مُهدّدًا بأن ينقلع من الجبال، ويسقط، ولا بُدّ أنه هنا منذ سنين، لأنّه عرف أنّه مرحّب به، وقد استساغه الصخر، ونظر كلّ منهما إلى الآخر بإجلال.

قال أحدهم: ـ ثمّة كنيسة أو معبد فوق.

نعم، كلّهم لاحظوا ذلك، واعتقد كلٌّ منهم على الأرجح أنّه أوّل من اكتشف الأمر، وأدرك الآن خلاف ذلك، وأسرّ لنفسه متسائلاً: أمأهول ذلك المعبد أم مهجورٌ منذ سنوات؟ ولمَ كانت جدرانه مطليّة بالأبيض في محيط صخر أسود؟ وكيف تمكّن أحدهم أساسًا من تسلّق هذا العلو وتشييده فوق؟ في النهاية، كان هذا المعبد هناك، نشازًا في الفوضى المحيطة القائمة.

وقفوا جميعًا هناك، يتأمّلون شجر الصنوبر والصخر، يحاولون تحديد القمّة العليا في تلك الجبال، قبل أن يرتدوا ملابسهم النظيفة ويدركوا، مرّة أخرى، أنّ للاستحمام القدرة على مداواة مآسٍ تأبى أن تفارق أذهاننا.

دوّى الزمّور من ثمّ. حان وقت استئناف الرحلة، وهو أمر غفلوا عنه تمامًا وسط روعة المكان.

من الواضح أنّ كارلا كانت مهووسة بموضوعات معيّنة.

ـ لكن كيف بلغتَ هذه المعرفة عن الواقعات الموازية؟ فأن تعرف ظهورًا في كهفٍ أمرٌ، وأن تجتاز آلاف الأميال للعودة إليه أمر آخر. يُمكننا أن نختبر التجارب الروحانيّة أينما كنّا، فالله موجود في كل مكان.

ـ نعم، الله موجود في كل مكان. هو يرافقني كلّما تنزّهت في حقول دورادويل، مهد عائلتي منذ قرون، أو كلّما ذهبت لرؤية البحر في ليميريك.

كانوا جالسين في مطعم محاذٍ للطريق قرب الحدود اليوغوسلافيّة، حيث وُلدت وترعرعت إحدى من أُغرم بهنّ باولو غرامًا عظيمًا. حتّى الآن، لم يواجه أحد، ولا حتّى باولو، أيّ مشكلات بشأن التأشيرات. لكن بما أنّ يوغوسلافيا كانت بلدًا شيوعيًّا، فقد انتابه الغمّ، رغم محاولة السائق طمأنة الجميع، ذلك أن يوغوسلافيا، خلافًا لبلغاريا، لم تكن قابعة خلف الستار الحديدي. كانت ميرث تجلس إلى جانب باولو وكارلا إلى جانب رايان، وبدا على الأربعة أنّ «كل شيء على ما يرام»، رغم الاحتمال الوشيك بتبادل الشركاء. سبق لميرث أن أعلنت أنّها لم تكن تنوي المكوث في نيبال إلى أجل غير مسمّى، وزعمت كارلا أنّها قد لا تعود منها على الأرجح.

تابع رايان:

ـ عندما كنت أعيش في دورادويل، وهي مدينة عليكما باكتشافها

حتّى ولو كان المطر ينهمر فيها معظم الوقت، اعتقدتُ أنّه مقدّر لي أن أصرف ما تبقّى من حياتي فيها، مع والديّ اللذين لم يذهبا يومًا لزيارة دبلين حتّى، عاصمة بلدهما. أو كجدّيّ اللذين عاشا في الريف، ولم يذهبا يومًا لرؤية البحر. وخالا أنّ ليميريك مدينة «كبيرة جدًّا». على مدى أعوام، فعلتُ كلّ ما طلباه: المدرسة، العمل في متجر بقول، المدرسة، تمرين كرة الرُكبي، إذ كان ثمّة فريق محلّي، رغم جهوده، لم ينجح يومًا في التأهّل للدوري الأوّل، وارتياد الكنيسة الكاثوليكيّة، لأنّها كانت جزءًا من ثقافة بلدي وهويّته، خلافًا لمن عاش في إيرلندا الشماليّة.

تعوّدتُ كلّ ذلك، وكنت أذهب لرؤية البحر نهاية كل أسبوع. كنت أشرب الجعّة قبل أن أبلغ السن القانونيّة، لأنّني كنت أعرف مالك الحانة، ورحت آلف فكرة أنّ هذا كان مصيري. في النهاية، لم يكن من خطب في عيش حياةٍ هادئة ويسيرة، في النظر إلى صفوف المنازل المتشابهة التي صمّمها على الأرجح المهندس المعماري نفسه، لدى خروجي بين حين وحين مع فتاة، واصطحابها إلى الإسطبلات خارج القرية واكتشاف الجنس، جيدًا كان أو رديئًا، كان في النهاية جنسًا انتهى برعشات، حتّى ولو كنت أخشى أن ألج الفتاة، ويُعاقبني أهلي أو الله على فعلتي.

في قصص المغامرات، يسعى الجميع خلف أحلامهم، يقصدون أراضي مُذهلة، يُواجهون المشقّات، لكنّهم يعودون دومًا ظافرين ليُخبروا عن قصص معاركهم، في الأسواق، في المسارح، أو في الأفلام، أي باختصار، أينما كان جمهور يُنصت. نقرأ هذه الكتب ونفكّر: أنا أيضًا، سيكون لي هذا المصير. سأخلص إلى امتلاك العالم، سأغتني، سأرجع إلى دياري ظافرًا، وسيحسدني الجميع ويحترمونني على نجاحي. سوف تبتسم النساء لدى

مروري، ويحني لي الرجال رؤوسهم، يتوسّلونني أن أروي لهم للمرّة الألف ما جرى لي في هذه الحالة أو تلك، وكيف تمكّنتُ من اغتنام تلك الفرصة الوحيدة التي أدرّت عليّ ملايين الدولارات. لكن كلّ هذا، لا يحدث إلّا في كتب المغامرات.

أتى الرجل الهندي (أو العربي) الذي يتناوب على القيادة مع السائق الأساسي، وجلس إلى طاولتهم. تابع رايان حكايته:

ـ وأسوة بغالبيّة الفتيان في وطني، خدمتُ في الجيش. كم لك من العمر يا باولو؟

ـ ثلاث وعشرون سنة. لكنّني لم أؤدِّ الخدمة. حصلتُ على تأجيل منها، إذ تدبّر والدي وضعي في ما يسمّونه «الفئة الثالثة» أي احتياطي الردفاء، والآن يُمكنني صرف هذا الوقت مسافرًا. أعتقد أنّ البرازيل لم تنخرط في حرب منذ مئتي عام.

قال الرجل الهندي: ـ أنا خدمت. منذ أن نلنا الاستقلال، وبلادي في حرب مستمرّة، حرب غير معلنة، مع البلد المجاور. وكلّ هذا بسبب الإنجليز.

قال رايان مؤيّدًا: ـ الإنجليز هم دومًا السبب. فهم لا يزالون يحتلّون القسم الشمالي من بلادي. والسنة الفائتة فقط، قرابة عودتي من الجنّة التي اسمها نيبال، تصاعدت التوتّرات. إيرلندا، الآن، على أهبّة الحرب، بعد التصادمات بين الكاثوليك والبروتستانت، والإنجليز يرسلون عساكرهم إليها.

قاطعته كارلا: ـ أكمل قصّتك الأخرى. ما الذي أفضى بك إلى نيبال؟

ـ «تأثيرات سيئة»، قالتها ميرث ضاحكة. وضحك رايان أيضًا.

ـ لديك كلّ الحقّ. كَبِرَ من كانوا من جيلي، وراح رفاقي في المدرسة يهاجرون إلى أميركا، حيث الجالية الإيرلنديّة هائلة، وحيث لكل إيرلندي صديق أو عمّ أو أفراد عائلة آخرون.

ـ لا تقل إنّ هذا أيضًا بسبب الإنجليز!

تدّخلت ميرث، فقد حان دورها للانخراط في الحديث: ـ هذا أيضًا بسبب الإنجليز. حاولوا أن يميتوا شعبنا جوعًا مرّتين. في المرّة الثانية، في القرن التاسع عشر، أنبتوا فطرًا في محاصيل البطاطا، غذائنا الأساسي، وراح عدد السكان يتضاءل. يُقدّر أنّ ثُمن السكان ماتوا من الجوع. من الجوع! واضطر مليونا إيرلندي إلى الهجرة بحثًا عن الطعام. بفضل الله، رحّبت بنا أميركا أحسن ترحيب، مرّة أخرى.

هذه الفتاة التي بدت مثل «ديفا» آتية من كوكب آخر، راحت الأنظار تلتفت إليها في نقاشها أمر المجاعتين الكبريين اللتين لم يسمع بهما باولو من قبل. آلاف الناس الذين تعرّضوا للهلاك، الشعب الذي تُرك بلا عون، لخوض كفاحات من أجل الاستقلال، وسواها.

قالت: أنا مُجازة في التاريخ. بيد أن كارلا حرفت المحادثة إلى ما يهمّها، إلى نيبال والواقعات الموازية، لكنّ ميرث لم تكلّ إلى أن لقّنتهم كلّ ما كانت إيرلندا قد قاسته، وبمئات ملايين الناس الذين قضوا جوعًا، وكيف أُعدِم كبار ثوريّي البلاد بإطلاق النار عليهم، بعد محاولتهم الانتفاض مرّتين، وأخيرًا بالطريقة التي تمكّن بها أميركي (نعم أميركي أصيل!) من تنظيم معاهدة سلام لوضع حدّ لحرب بدت لامتناهية .

ـ لكن لن يتكرّر ذلك أبدًا. بالمطلق. فالمقاومة أقوى الآن. ولدينا

الجيش الجمهوري الإيرلندي. وسوف ننقل حربنا إليهم، بوساطة القنابل، والاغتيالات، وكلّ ما هو ممكن. وعاجلاً أم آجلاً، ما إن يجدوا ذريعة مناسبة، حتى يكون عليهم رفع أقدامهم القذرة عن جزيرتنا.

التفتت إلى الهندي وقالت: ـ كما فعلوا عندكم.

أخذ الرجل الهندي، واسمه راهول، يروي ما حدث في بلاده، غير أنّ كارلا تدخّلت بنبرة أقوى وأكثر سلطويّة:

ـ هلاّ تركنا رايان يُنهي قصّته؟

ـ إن ميرث على حق، ثمة تأثيرات سيّئة أودت بي إلى نيبال في المرّة الأولى. عندما كنت أؤدّي الخدمة العسكريّة في الجيش، كنت أتردّد على حانة في ليميريك قريبة من الثكنة. كان في الحانة كلّ شيء، السهام المريشة، والبليارد، والكباش. أراد كلُّ مرتاد أن يُظهر رجولته للآخر، وأراد الجميع أن يُظهروا جاهزيّتهم لدفع كلّ التحديّات أمامهم. كان ثمّة رجل يرتاد الحانة بانتظام، آسيوي لم يكن ينطق بكلمة، كان يحتسي كأسين أو ثلاثًا من الجعّة الداكنة المسمّاة غينّس، فخرنا الوطني، ويرحل قبل أن يرنّ المالك الجرس مُعلنًا أنّ الساعة دنت من الحادية عشرة، وأنّ الحانة توشك أن تقفل.

ـ كلّ هذا بسبب الإنجليز.

في الواقع، كان الإنجليز هم من وضعوا القانون الذي يقضي بالإقفال عند الحادية عشرة في بداية الحرب، تفاديًا لإقلاع الربابنة السُّكارى عن الهجوم على ألمانيا، وتفاديًا لتأخّر الجنود غير المنضبطين بالاستيقاظ وإحباطهم بالتالي للمعنويات.

ذات يوم، عندما ضاق بي سماع الجميع يتحدّثون عن استعدادهم

للرحيل إلى أميركا حالما تسنح لهم الفرصة، استأذنتُ الشرقي في الجلوس إلى طاولته. يُرجّح أنّ نصف ساعة قد مرّت من دون أن نتبادل أيّ كلمة. اعتقدتُ أنّه لم يكن يتكلّم الإنجليزيّة، ولم أشأ إحرجه. لكن، قبل أن أهمّ بالمغادرة يومها، نطق بجملة لم تبرح ذهني: «قد تكون هنا، لكنّ روحك في مكان آخر، في بلادي. اذهب بحثًا عن روحك».

أومأتُ موافقًا، ورفعتُ له كأسي تحيّة له، لكنّني تجنّبتُ الدخول في التفاصيل. كان تعليمي الكاثوليكي الصارم يُحجم خيالي عن تصوّر أيّ مشهد، باستثناء جسد وروح متّحدين سيُلاقيان المسيح بعد الممات. قلتُ لنفسي إنّ أهل الشرق لمهووسون بفكرة الروح تلك.

قال الهندي: نعم، نحن كذلك.

وإذ أدرك زلّته التي أهانت الرجل، حاول رايان تصويبها بالفكاهة.

ـ نحن الكاثوليك، لأسوأ حتّى، لأنّنا نؤمن بأنّ جسد المسيح موجود في القربان. لا تسىء فهمي.

جاء راهول بحركة من يده، وكأنّه يقول: «لا تقلق». وتمكّن رايان أخيرًا من إنهاء قصّته، بل جزء منها فقط، إذ إنّ طاقات سلبيّة كانت ستعاكسهم قريبًا.

ـ لذلك، كنت، في أيّ حال، عازمًا على العودة إلى دياري لأدير العمل الأُسَري، وتحديدًا مزرعة والدي للألبان والأجبان، في حين كان باقي رفاقي يعبرون الأطلسي ويلقون ترحيبًا من تمثال الحرّية. مع ذلك، وفي تلك الليلة، ظلّت كلمات الرجل تدور في ذهني وتدور. ففي الواقع، كنتُ أحاول إقناع نفسي بأنّ حياتي على ما يرام، أنّني سأجد فتاة ذات يوم وأتزوّج بها وأرزق بأطفال، بعيدًا عن التلوّث والشتائم حيث عشت، مع أنّني

لم أعرف من المدن سوى ليميريك ودورادويل. لم يراوذني الفضول الكافي يومًا لأتوقّف في طريقي، وأتنزّه في إحدى البلدات الصغيرة، أو بالأحرى الكفور التي امتدّت فيما بين المدينتين. حينذاك، خلتُ أنّ السفر عبر الكتب والأفلام كان كافيًا وأكثر أمانًا وأقلّ تكلفة. واقتنعتُ أنّ لا أحد على الأرض قاطبة متّع ناظريه بحقول أجمل من تلك التي أحاطت بي. مع ذلك، عُدت إلى الحانة في اليوم التالي، جلستُ إلى طاولة الرجل المنعزل، ورغم علمي بأنّ من المجازفة طرح أسئلة يرجّح جدًّا أن يجيب عنها، سألته عن مقصده أمس ذاك اليوم، وأين يقع بلده؟

نيبال.

ـ يعرف كلّ من بلغ التعليم الثانوي أنّ ثمّة بلدًا اسمه نيبال، ولا بُدّ أنّ يكون قد تعلّم اسم عاصمته لكنّه، نسيها. والأمر الوحيد الذي يذكره أنّها بلاد بعيدة جدًا، يحتمل أنها تقع في أميركا الجنوبيّة، أستراليا، إفريقيا، آسيا، لكن ليس في أوروبا بكل تأكيد، وإلاّ لكان صادف شخصًا ما جاء منها، أو شاهدها في فِلم، أو قرأ كتابًا عنها.

سألته عمّا قصده أمس ذاك اليوم. رجاني أن أذكّره بما قاله لي، فقد عجز عن تذكّره بنفسه. بعد أن ذكّرته، ظلّ يُحدّق لحظة مطوّلة إلى كأس الغينّس، بصمت، ثمّ كسر صمته فجأةً وقال: «إذا كنتُ قد قلتها، فالأجدر بك إذن أن تذهب إلى نيبال. فسألته:

ـ وكيف السبيل إليها؟

أجابني: «كما جئتُ منها، بالباص». وغادر. في اليوم التالي، عندما سألته الجلوس إلى طاولته لمعرفة المزيد عن قصّة روحي التي كانت في انتظاري بعيدًا جدًّا. أفهمني أنّه يفضّل البقاء وحيدًا، كحاله كلّ مساء.

وقلتُ لنفسي: «بما أنّها بلاد يُمكن بلوغها بالباص، فمن يدري، قد يُفضي بي الأمر إلى زيارتها، متى وجدت من يرافقني في سفري إليها».

وحدث آنذاك أن التقيتُ ميرث، في ليميريك، تجلس في المكان نفسه الذي كنت أتّخذه في العادة لتأمّل البحر. فكّرت أنّها لن تهتمّ بفتى من الريف لم يكن مقدّرًا له ارتياد «ترينيتي كولدج في دبلين»، حيث كانت تُحصّل تعليمها، بل «أوكانل دايري» في دورادويل. لكنّنا، عقدنا الصلة سريعًا. وفي أحد أحاديثنا، أخبرتها عن الرجل الاستثنائي المتحدّر من نيبال، وعمّا قاله لي. لكنّني كنتُ سأعود إلى دياري قريبًا. وكلّ من ميرث، والحانة، وأصدقائي المجنّدين، وسواهم، لن يكونوا سوى مرحلة من حياتي. لكن سحرتني رقّة ميرث وذكاؤها و.... جمالها. وهذا الأمر لا بُدّ من قوله. وإن ظنّت أنّني جدير برفقتها، فسوف يعزِّز ذلك من طمأنتي وثقتي بنفسي في المستقبل.

وفي إحدى عطل نهاية الأسبوع التي سبقت أسبوعي الأخير في الخدمة العسكريّة، اصطحبتني إلى دبلين. أرتني المكان الذي عاش فيه مؤلّف «دراكولا»، وكذلك ترينيتي كولدج، حيث كانت تدرس، فوجدتها أكبر ممّا أمكن لخيالي أن يتصوّر. في إحدى الحانات القريبة من الجامعة، شربنا حتّى رنّ المالك الجرس مُعلنًا وقت الإقفال. جلستُ أنظر إلى الجدران التي ملأتها صور لكتّاب دمغوا تاريخ أرضنا: جيمس جويس، أوسكار وايلد، جوناثان سويفت، ويليام باتلر ييتس، صامونيل بيكيت، جورج برنارد شو. في نهاية حديثنا، ناولتني ورقة تُبيّن كيفيّة بلوغ كاتماندو. كان ثمّة باص ينطلق كلّ خمسة عشر يومًا من محطّة أنفاق توتريدج وويتستون.

خلتُ أنّها أرادت التخلّص منّي، أن تُرسل بي بعيدًا، بعيدًا جدًا. أخذت الورقة ولا نيّة لديّ البتّة في الذهاب إلى لندن.

في أثناء روايته القصّة، ادّعى رايان تجاهل ما بلغ سمعه من أصوات هدير محرّكات لدرّاجات ناريّة تَركُن. وصلت جملة من الدرّاجين. وحيث جلست المجموعة، استحال على أفرادها أن يحدّدوا عدد الدرّاجين، غير أنّ تلك الجعجعة بدت عدائيّة وخارج المألوف. قال مدير المطعم إنّ موعد الإقفال وشيك، غير أنّ الجميع الذين يشغلون الطاولات الأخرى لم يأتوا بحركة، وتابع رايان:

ـ ثمّ فاجأتني ميرث بقولها: «عدا عن الوقت الذي يستغرقه السفر، والذي لن أحدّده لك الآن لئلا أُثبط عزيمتك، أريدك أن ترجع بعد قضاء أسبوعين بالضبط هناك. سأكون هنا في انتظارك. إذا لم تعد في اليوم المحدّد، لن تراني بعد الآن».

ضحكت ميرث. هي لم تستخدم تلك الكلمات تحديدًا، فقد كانت أقرب إلى: «اذهب بحثًا عن روحك، فأنا سبق أن وجدت روحي». وما لم تقله ذاك اليوم، ولن تعترف به حاضرًا كان: «أنت روحي. سأصلّي كلّ ليلة لتعود سالمًا، لنلتقي من جديد، لترغب في البقاء بقربي إلى الأبد، لأنّك تستحقّني وأنا أستحقّك». أكانت ستنتظرني حقًا؟ أنا، رب العمل المستقبلي «لأوكانل دايري ميلك»؟ ماذا ترى في رجل قليل الثقافة، وقليل الخبرة؟ ولمَ كان من المهمّ جدًا لها أن أعمل بنصيحة غريب التقيته في حانة؟ مع هذا، كانت تعرف ما تفعله. فما إن وطأتُ ذاك الباص، بعد أن كنتُ قد قرأت كلّ ما أمكنني إيجاده عن نيبال، وكذبتُ على أهلي قائلاً إنّ الجيش

مدّد خدمتي عقابًا لي على سوء سلوكي، وإنّه سيبعث بي إلى قاعدة نائية في هيمالايا، حتّى تحوّلتُ إلى شخص آخر. غادرتُ أحمق وعُدت رجلاً. وأتت ميرث لملاقاتي، نمنا في بيتها، ولم نفترق مذاك.

قالت ميرث، التي أدرك جميع من تحلّقوا حول الطاولة أنّها صادقة:

ـ هذه هي المشكلة بالضبط! من الطبيعي أنّني لا أريد أحمق إلى جانبي، لكنّني لم أتوقّع أن يرمي الكرة في ملعبي، ويطلب إليّ أن أرافقه بالعودة إلى هناك.

ضحكت أكثر.

ـ والأسوأ أنّني قبلتُ!

لم يكن باولو يشعر بالارتياح لجلوسه إلى جانبها، وتلامُس فخذيهما ومداعبتها ليده بين حين وآخر. أمّا كارلا، فقد تبدّلت النظرة في عينيها. من الواضح أنّه لم يكن الرجل الذي تبحث عنه.

ـ والآن، هلاّ تكلّمنا عن الواقعات الموازية؟

لكن في هذه الأثناء، اقتحم المطعم خمسة أشخاص بلباس أسود، حليقي الشعر، مزنّرين بسلاسل، وعلى أجسامهم وشوم، تمثّل سيوف نينجا ونجومها. اقتربوا من طاولة المجموعة، وطوّقوها من دون التفوّه بكلمة.

قال مدير المطعم: ـ حسابكم.

احتجّ رايان قائلًا: ـ لكنّنا لم ننتهِ بعد من تناول الطعام، ولم نطلب الفاتورة حتّى.

ـ أنا من طلبها، قالها أحد الدرّاجين الذي دخلوا من فورهم.

همّ الهندي بالنهوض، غير أنّ أحدهم دفعه من جديد على كرسيه.

ـ قبل أن ترحلوا، يريد أدولف أن تقطعوا وعدًا بأنّكم لن تطأوا هذا المكان ثانيةً. نحن نمقت الاستغلاليين. ويحبّ شعبنا النظام والقانون. النظام والقانون. والغرباء ليسوا موضع ترحيب هنا. عودوا من حيث أتيتم، بمخدّراتكم وحبّكم الحرّ.

غرباء؟ مخدّرات؟ حبّ حرّ؟

ـ سوف نرحل عندما نُنهي وجبتنا.

اغتاظ باولو لتعليق كارلا: ما الداعي لاستفزازهم أكثر؟ طوّقهم أشخاص عرَفَ أنّهم يمقتون كلّ ما مثّلوه، أشخاص بسلاسل منسدلة من بنطلوناتهم، وأكّف درّاجيهم التي كانت مساميرها المتنوّعة المختلفة كلّ الاختلاف عن مسامير الزينة التي اشتراها في أمستردام. كانت مساميرهم مُسنّنة ومصمّمة للتهويل، والجَرح، بل للإيذاء البليغ، متى قرّروا استخدام قبضاتهم للضرب.

استدار رايان لمواجهة من بدا أنّه الزعيم، الذي كان بداهة أكبر سنًّا من الآخرين، وتعلو التجاعيد وجهه، وكان يراقب المشهد بصمت.

ـ نحن ننتمي إلى قبائل مختلفة، لكنّ كفاحنا واحد. سوف نُنهي وجبتنا ونرحل. لسنا أعداءكم.

من الواضح أنّ الزعيم كان يُعاني مشكلة في الحبال الصوتيّة إذ إنّه قرّب من عنقه مكبِّر صوت صغيرًا قبل أن يُجيب.

قال بصوتٍ حديدي: ـ نحن لا ننتمي إلى أيّ قبيلة. اخرجوا من هنا في الحال.

ساد صمت أزلي، في حين حدّجت النسوة عيون الغرباء بنظرات مباشرةً، ووازن الرجال خياراتهم، وانتظر الدرّاجون بصمت، باستثناء واحد منهم، التفت إلى مالك المطعم، وصرخ:

ـ عقَم هذه الكراسي بعد رحيلهم. لا بُدّ من أنّهم قد جلبوا معهم الطاعون، والأمراض المنتقلة جنسيًّا، ومن يدري ما جلبوه أيضًا!

بدا الزبائن الآخرون أنّهم لا يراعون ما كان يجري. لعلّ واحدًا منهم اتصل بهذه المجموعة، واحدًا ممّن اعتبر مجرّد وجود أشخاص أحرار في العالم إهانةً شخصيّة.

ـ «اخرجوا من هنا أيّها الجبناء». قالها درّاج آخر وصل من فوره، كان يرتدي سترة جلديّة سوداء عليها تطريز له شكل جمجمة. تابع قائلًا:
ـ سيروا حالًا، وعلى بعد أقل من كيلومترين، سوف تجدون بلدًا شيوعيًا يُرحّب بكم بلا شكّ. لا تأتوا إلى هنا وتؤثّروا سلبًا في شقيقاتنا وأُسَرنا. هنا، نحن مسيحيون، وحكومتنا لا تتساهل مع المشكلات، نحن هنا نحترم الآخرين. وضّبوا أمتعتكم سريعًا، واخرجوا من هنا!

كان رايان يغلي. والهندي غير مبالٍ، فلعله شَهِدَ أمرًا مماثلًا، أو أن تعاليم كريشنا تقضي بألاّ نُدير ظهورنا للقتال متى كنّا في ميدان المعركة. رشقت كارلا بنظرها أصحاب الرؤوس الحليقة، وتحديدًا من قالت له إنّهم لم يفرغوا بعد من تناول طعامهم. لا بُدّ من أنّها الآن متعطّشة للدم، إذ اكتشفت أنّ الرحلة أقلّ تشويقًا ممّا تصوّرت.

كانت ميرث أوّل من تحرّك من مكانه: تناولت حقيبتها، احتسبت ما عليها تسديده، ووضعت المال على الطاولة برويّة. توجّهت من ثمّ إلى الباب. عرقل أحد الدرّاجين مرورها، ها هو استفزاز آخر لم يُرِد أيّ من أفراد المجموعة أن يتحوّل إلى شجار، لكنّها دفعته، بلا لباقة، بلا خوف، وتابعت طريقها.

وقف الآخرون، سدّد كلٌّ منهم حصّته من الحساب، وغادروا، ما أثبت

نظريًا أنّهم كانوا جبناء فعلاً، قادرين على المضي في رحلة طويلة حتّى نيبال، لكنّهم يهربون من أبسط تهديد حقيقي. كان رايان الوحيد الذي بدا مستعدًا لمواجهة الدرّاجين، غير أنّ راهول أمسكه بذراعه وجرّه، في حين أخذ أحد الرؤوس الحليقة يفتح سكين الجيب الذي بحوزته، ويُغلقه.

وقف الفرنسيان، الأب وابنته، أيضًا، سدّدا ما عليهما من الفاتورة، وغادرا عقب الآخرين.

قال الزعيم بصوته الحديدي عبر مكبّر الصوت: يُمكنكما البقاء، سيدي.

ـ في الواقع، لا، لا يُمكنني. أنا معهم. من العار ما حدث للتو، هنا، في هذا البلد الحرّ بمناظره الطبيعيّة الخلاّبة. سيكون الانطباع الأخير، الذي سيُلازمنا عن النمسا، ذاك النهر الذي يشقّ الصخر وجبال الألب وجمال فيينا وروعة دير مِلك. أما زمرتكم أيّها الزعران الـ....

جذبته ابنته من ذراعه، لكنّه تابع الكلام:

ـ ... الذين لا يُمثّلون هذا البلد، فسوف ننساكم سريعًا. لم نأتِ من فرنسا من أجل هذا.

اقترب درّاج من ورائه ولكمه على ظهره. وقف السائق الإنجليزي بينهما، وقد ارتسمت الحدّة على عينيه. حدج الزعيم ببصره من دون أن ينطق بكلمة، كانت الكلمات غير مُجدية، فحضوره في هذه اللحظة بدا أنّه يروّع الجميع. راحت ابنة الفرنسي تصرخ. همّ من بلغوا عتبة الباب بالرجوع، غير أنّ راهول أوقفهم. ذلك أن المعركة خاسرة سلفًا.

عاد أدراجه إلى داخل المطعم، أخذ الأب وابنته من ذراعيهما، ودفع باقي المجموعة إلى الخارج. توجّهوا جميعًا إلى الباص. كان السائق آخر من غادر مُحملقًا، بلا مهابة، في زعيم زمرة السفّاحين.

ـ فلنرحل من هنا، سنرجع أدراجنا بضعة كيلومترات، وننام في بلدة أخرى.

ـ تعني أن نهرب منهم؟ ألهذا السبب سافرنا كلّ هذه المسافة، لكي نهرب عند أوّل شجار؟

كان هذا كلام الرجل الأكبر سنًا في المجموعة. وبدت الفتاتان اليانعتان الآن مرتاعتين.

قال السائق، وهو ينطلق: ـ بالضبط. فلنهرب. في المرّات القليلة التي قدت فيها هذا الرحلة، هربت من أمور كثيرة، ولا أرى في ذلك مذلّة. هذا أفضل من أن نصحو في الغد على عجلات مثقوبة، ونعجز عن مواصلة الرحلة، لأنّني لا أملك سوى عجلتين احتياطيتين.

بلغوا البلدة، وتوقّفوا في شارع بدا هادئًا. كان الجميع متوتّرين ومخضوضين بعد ما جرى في المطعم، لكنّهم الآن، شكّلوا مجموعة قادرة على صدّ أيّ اعتداء. ومع ذلك، قرّروا النوم في الباص.

حاولوا جاهدين أن يناموا، لكن بعد ساعتين، برقت أنوار ساطعة أنارت داخل الباص.

«POLIZEI».

فتح واحد من عناصر الشرطة الباب وردّد بضع كلمات. وإذ كانت كارلا تُجيد الإلمانيّة، فقد شرحت للجميع أنّ عليهم الترجّل كما هم في ثيابهم فقط، من دون جلب أيّ شيء. في تلك الساعة من الليل، كان البرد قارسًا، غير أنّ عناصر الشرطة، رجالاً ونساءً، منعوهم من أخذ أيّ شيء. كانوا يرتجفون من البرد والخوف، لكن بدا أنّ أحدًا لا يُبالي بهم.

صعد عناصر الشرطة إلى الباص، وفتحوا كلّ الحقائب وحقائب الظهر وأفرغوا محتوياتها على الأرض. وجدوا غليون ماء يُستخدم عمومًا لتدخين الحشيشة.

صادروه.

طالبوا بكلّ الأوراق الثبوتيّة للمجموعة، وعاينوها ورقة ورقة في ضوء المصباح، تحقّقوا من أختام الدخول، وقلّبوا كلّ صفحة بحثًا عن

أيّ تزوير، كانوا يُسلّطون الضوء على الصورة، على الجواز، ويرفعونه من ثمّ إلى وجه الشخص المعني. عندما وصلوا إلى الفتاتين «الراشدتين» على ما يُزعم، توجّه أحد العناصر إلى سيّارة الشرطة، وأذاع أمرًا ما عبر اللاسلكي. انتظر قليلاً، أومأ برأسه ثمّ رجع إلى الفتاتين.

وتولّت كارلا الترجمة.

ـ علينا أخذكما إلى مكتب خدمات القاصرين. سوف يأتي أهلكما لاصطحابكما. قريبًا، في غضون يومين أو أسبوع، هذا رهن قدرتهم على قطع تذاكر السفر جوًا أو برًا بالباص، أو على استئجار سيّارة.

كانت الفتاتان واقعتين تحت أثر الصدمة. شرعت إحداهما بالبكاء، غير أنّ الشرطيّة تابعت بنبرة متواترة: ـ لا أدري ما الذي تحاولان فعله، وليس يعنيني. لكنّ رحلتكما تنتهي هنا. أتعجّب كيف تمكّنتما من اجتياز كثير من الحدود من دون أن يدرك أحد أنّكما فارّتان.

التفتت إلى السائق.

ـ يُمكننا مصادرة باصك بسبب ركنه غير المشروع. لكن السبب الوحيد الذي يمنعني من ذلك هو أنّني أريدكم أن تغادروا في أقرب وقت ممكن وأبعد ما يكون. ألم ترَ أنّ الفتاتين قاصرتان؟

ـ رأيتُ ما بدا في جوازيهما، وهو أمر مختلف عمّا تُلمحين إليه سيّدتي.

كانت الشرطيّة ستُكمل كلامها لتوضح كيف أنّ الفتاتين زوّرتا الوثائق، وكيف يبدو واضحًا للعيان أن كلًّا منهما قاصرة، وأنّهما فرّتا، لأنّ إحداهما زعمت بأنّ الحشيشة في نيبال أفضل مما هي في اسكتلندا. هذا على الأقل ما كان مدوّنًا في الملف، وما أُذيع عبر اللاسلكي. كان أهلهما يائسين. لكنّها قررت فضّ الحديث عند ذاك الحدّ، ففي النهاية، هي لا تُدين بالتبرير إلاّ لرؤسائها.

صادرت الشرطة جواز سفر كلّ من الفارّتين، وطُلب إليهما أن تتبعانهم من دون الأخذ باحتجاجاتهما. غير أنّ الشرطيّة المسؤولة لم تُولهما أي اهتمام. هما لا تتكلّمان الألمانيّة. وبالمقابل، رفض أفراد الشرطة الآخرون الذين لا بُدّ من أنهم يعرفون الإنجليزيّة، الكلام بلغة غير لغتهم.

أشارت إليهما الشرطيّة بالصعود إلى الباص. وطلبت إليهما أن تأخذا متاعهما من بين فوضى الأمتعة، الأمر الذي استغرق بعض الوقت، فيما تجمّد الآخرون في الخارج. أخيرًا، خرجتا، واقتيدتا إلى سيارة شرطة.

قال ملازم أبقى عينيه على المجموعة: ــ هلّموا، ارحلوا الآن.

سأل السائق: ــ بما أنّكم لم تجدوا شيئًا، فلمَ علينا الرحيل؟ هل من مكان يجوز فيه الركن من دون خطر مصادرة باصنا؟

ــ ثمّة موقف على مقربة، قُبَيل مدخل المدينة. يُمكنكم النوم هناك، لكن يُفضَّل أن ترحلوا مع بزوغ الفجر. ذلك أن رؤية مناظركم تزعجنا.

اصطفّ المسافرون ليستعيد كلٌّ منهم جواز سفره، وتوجّهوا من ثمّ إلى الباص. غير أنّ السائق وسَنَده راهول لم يحرّكا ساكنًا.

ــ ما جريمتنا؟ لماذا لا يحقّ لنا المكوث هنا ليلاً؟

ــ لستُ مضطرًا إلى الردّ عليك. فإذا كنتَ تفضّل أن أصحبكم جميعًا إلى المركز، حيث سيكون علينا التواصل مع بلاد كلّ منكم وأنتم تنتظرون في زنزانة لا تدفئة فيها، فلا مانع لدينا البتة. وأنت، سيدي، قد تُتَّهم بخطف قاصرتين.

انطلقت إحدى سيّارات الشرطة التي نقلت الفتاتين، ولم يعرف أيّ من الرّكاب الآخرين عنهما شيئًا بعد ذلك.

حدّق الملازم إلى السائق، وحدّق السائق إلى الملازم، وحدّق راهول إليهما كليهما. استسلم السائق أخيرًا، وثب في الباص وأداره منطلقًا.

لوّح لهم الملازم مودّعًا بابتسامة ساخرة. لا يستحقّ هؤلاء الناس حتّى أن يكونوا أحرارًا، يطوفون العالم من طرف إلى آخر، ناثرين فيه بذور الثورة. ما جرى في فرنسا في أيار من العام ١٩٦٨ كان كافيًا، ووجَبَ قمع انتشار المعارضة بأيّ ثمن.

بالطبع لم يكن للهيبيين وأشباههم أي دخل بأيار ١٩٦٨، غير أنّ الناس تمكّنوا من خلط الأمور، ومن محاولة إنهائها مهما يكن.

لم يودّ السائق بأي شكل من الأشكال أن يذهب معهم: كانت لديه أسرة، وبيت، وأولاد، وطعام، وأصدقاء في سلك الشرطة. كما لو أنّ وجودهم على أبواب بلد شيوعي لم يكن بحدّه كافيًا، كان أحدهم قد كتب في الصحيفة أن السوفيت قد غيّروا التكتيك لديهم، وشرعوا الآن في تكريس الناس لإفساد الأعراف والتقاليد، وتأليبهم ضدّ حكومات بلادهم. أما هو، فكان هذا القول في رأيه جنونيًا نوعًا ما وغير منطقيّ، لكن فضّل عدم المجازفة.

تحادثوا١ جميعًا في شأن الجنون الذي اختبروه من فورهم، باستثناء باولو الذي بدا أنّه فقد القدرة على الكلام، وتبدّل لونه. سألته كارلا إن كان بخير، ذلك أن من المستحيل أن تسافر مع شخص أبدى جُبنه عند أوّل ظهور للشرطة. أجابها أنّه على خير ما يرام، وأنّه أسرف قليلاً في الشرب، وبدأ يشعر بالسقم. عندما توقّف الباص في الموقف الذي أشار إليه الشرطي، كان باولو أوّل من ترجّل. تقيّأ إلى جانب الطريق، بعيدًا عن الأنظار، من دون أن يلاحظ أحد. فوحده يعلم بما مرّ به، بماضيه في «بونتا غروسّا»، بالأهوال التي كانت تستحوذ عليه عند عبور كلّ حدود. والأسوأ، أهوال معرفته أنّ مصيره وجسمه وروحه سترتبط دومًا بكلمة «شرطة». لن يشعر يومًا بالأمان. كان بريئًا عندما أُلقي به في السجن وعُذِّب. لم يرتكب جرمًا في حياته كلّها إلّا جرم تعاطي المخدّرات من وقت إلى آخر. لكنّه لم يحملها يومًا، حتّى في أمستردام، التي لم يكن لذلك فيها أي عواقب بالمطلق.

في النهاية، كان سجنه وتعذيبه أمرًا ماضيًا من منظور حسّي، لكنّهما بقيا حاضرين في واقعٍ موازٍ ما، في إحدى الحيوات الكثيرة التي عاشها بالتزامن.

وإذ لم يُنشد سوى الصمت والعزلة، فقد جلس بعيدًا عن الجميع. دنا منه

راهول وهو يحمل كوبًا من أحد أنواع الشاي الأبيض البارد. شربه باولو وكان له طعم اللبن الزبادي الفاسد.

ـ سوف تتحسّن حالك بعد قليل. لا تستلقِ ولا تحاول النوم الآن. ولا تقلق بشأن تبرير ما فعلت. بعض الأجسام أكثر حساسيّة من سواها.

جلسا هناك بعض الوقت بلا حراك. بدأت المادّة تعطي مفعولها بعد ربع ساعة. نهض باولو لينضمّ إلى المجموعة التي أوقد أفرادها نارًا، وراحوا يرقصون حولها على صوت مذياع الباص. رقصوا ليطردوا شياطينهم، رقصوا ليُظهروا أنّهم أقوى الآن، شاءوا أم أبوا.

قال راهول: ـ ابقَ قليلاً بعد. ينبغي لنا أن نصلّي معًا.

ردّ باولو: ـ «لا بُدّ أنّه كان تسمّمًا بالغذاء». لكنّه عرف، من التعابير التي ارتسمت على وجه راهول، أنّه لم يصدّقه البتّة. جلس باولو من جديد، وجلس الآخر قبالته.

ـ فلنقل إنّك محارب في جبهة قتال، وإنّ الرب المنوّر حلّ ليُشاهد المعركة. لنقل إنّك تُدعى أرجونا وإنّه يطلب إليك ألا تتراجع، أن تمضي قدمًا، وأن تحقّق قدرك، لأنّ من غير الممكن لأحد أن يَقتل ولا أن يموت، ولأنَ الوقت أزلي. وقد سبق لك، أنت البشريّ، أن مررت بوضع مماثل في أحد أسفارك السابقة عبر دولاب الزمن، وأنّك ترى الوضع يتكرّر. حتّى ولو كان مختلفًا، فإنّ عواطفك تبقى نفسها. ذكَرني باسمك.

ـ باولو.

ـ إذن يا باولو أنت لست أرجونا، القائد الجبّار الذي خشي أن يجرح أعداءه، لأنّه كان رجلاً صالحًا، ولم يرق لكريشنا ما تناهى إليه، لأنّ أرجونا كان ينسب إلى نفسه قدرة غير مقدّرة له. أنت، أنت باولو، جئتَ

من بلدٍ بعيد، وتمرّ، كما نمرّ جميعًا، بلحظات شجاعة ولحظات جُبن. وفي لحظات الجُبن، يتملّكك الخوف.

غير أنّ الخوف، خلافًا لما تظنّه الأغلبيّة، مُتجذّر في الماضي. يقول بعض المعلّمين الروحيين من بلادي: «في كلّ خطوة تخطوها إلى أمام، سينتابك الخوف إزاء ما ستجده». لكن كيف لي أن أخاف إزاء ما سأجده، ما لم أختبر الألم يومًا، والفراق، والعذاب الداخلي أو الخارجي؟

أتذكر حبّك الأوّل؟ دخل من باب يفيض نورًا وتركته يحتلّ كلّ شيء، يُنير حياتك، يملأ أحلامك، إلى أن حلّ يومٌ، كما هي دومًا حال الحب الأول، رحل فيه. لا بُدّ أنّك كنت في السابعة أو الثامنة من عمرك، أحببت فتاةً صغيرة جميلة بمثل سنّك. وجدت لنفسها حبيبًا أكبر منك، وبقيت وحدك، تتعذّب، تُقسم بأنّك لن تحبّ يومًا فتاةً أخرى في حياتك، لأنّ الحب يعني الفَقد.

مع ذلك، أحببت من جديد، لأن من المستحيل تخيّل حياة مجرّدة من هذا الشعور. وواصلت الحب والفَقد، إلى أن التقيت إحداهنّ...

لم يسع باولو سوى التفكير في أنّهم سيدخلون غدًا البلد الذي تأتي منه إحدى النساء اللائي فتح لهنّ قلبه، التي أُغرم بها والتي، مرّة أخرى، فقدها. هي التي علّمته الكثير من الأمور، بما فيه ادّعاء الشجاعة في أوقات اليأس. الحقّ أنّ دولاب الحظّ يدور في دائرة، يسلب أفراحًا ويُعطي أتراحًا، يسلب أتراحًا ويُعطي أفراحًا أُخَر.

أبقت كارلا عينًا على الرَجُلَين المتسامرَين، وعينًا على ميرث لئلا تقترب منهما. كان الحديث مطوّلاً. لـمَ لم ينضمّ باولو إليهم بعد ويرقص قليلاً

حول النار، لكي يطرد الذبذبة السيئة التي خيّمت في المطعم ولازمتهم حتّى البلدة حيث ركنوا الباص؟

قرّرت أن ترقص قليلاً بعد، فيما أبرقت الشرارات المتطايرة من النار سماء ليل بلا نجوم.

كان الاهتمام بالموسيقا من اختصاص السائق الذي كان هو أيضًا يتعافى من أحداث الليلة، رغم أنّها لم تكن المرّة الأولى التي يختبر فيها أمرًا مماثلاً. كلّما صدحت الموسيقا وارتفع إيقاعها على إيقاع الرقص، كان أفضل. خطر له احتمال عودة الشرطة لزجرهم، لكنّه قرّر أن يسترخي. لـم يكن يريد أن يعيش بخوف بسبب أشخاص اعتبروا أنفسهم أصحاب السلطة، وبالتالي تسلّطوا على غيرهم، وحاولوا أن يُفسدوا عليه يومًا من حياته. يومٌ واحد قد يبدو تافهًا، لكنّ يومًا واحدًا كان أغلى ما لديه على هذه الأرض. يوم واحد فقط، توسّلت والدته أن يُنعم عليها به وهي على فراش الموت. يومٌ واحد كان أثمن من ممالك الأرض جمعاء.

منذ ثلاث سنوات، أقدم مايكل، وهو السائق، على أمرٍ لا يُمكن تصوّره. بعد أن حاز شهادة في الطبّ، قدّم إليه والداه سيارة فولسفاكن مستعملة. وبدل أن يختال بها أمام الفتيات أو أن يزهو بها أمام أصدقائه في أدنبره، انطلق بعد أسبوع في سفرة إلى جنوب إفريقيا. كان قد ادّخر من المال ما يكفيه لسفر سنتين أو ثلاث، وذلك بالعمل طبيبًا مقيمًا في عيادات خاصّة. حَلُمَ باستكشاف العالم، إذ كان قد استوفى معرفته لجسم الإنسان ورأى هشاشته.

بعد أيامٍ لا تُحصى، عَبَرَ خلالها سلسلة من المستعمرات القديمة، فرنسية وإنجليزية، يعتني بالمرضى ويُواسي المنكوبين، تعوّد فكرة الموت الوشيك، وقطع عهدًا على نفسه ألاّ يدع يومًا الفقراء بلا عناية، ولا المتروكين بلا عزاء. واستخلص أنّ للإحسان مفعولًا مُنقذًا وحمائيًا: لم يُعانِ الضيق مرّة، ولم يشعر بالجوع مرّة. ولم تكن سيّارته الفولسفاكن المصنوعة منذ اثنتي عشرة سنة، مُعَدّة لهذا النوع من الأسفار، لكنّها صمدت، باستثناء ثقب أصاب عجلتها. تلك البلدان التي كانت في حالة حرب دائمة. ومن دون أن يدري، راح الخير الذي قدّمه مايكل، يسبقه أينما حلّ. كان يُستقبَل على أنّه المُنقذ في كلّ بلدة توقّف بها.

وبمحض المصادفة، وقع على مركز للصليب الأحمر في قرية جميلة قرب بركة في الكونغو. ولما كان صيته قد ذاع فيها، فقد زوّدوه باللقاحات

ضدّ الحمّى الصفراء، والضمّادات، والأدوات الجراحيّة، وطلبوا إليه بحزم ألاّ ينخرط في النزاع، وأن يقصر شأنه على معالجة الجرحى من الطرفين. «هذا هدفنا»، شرح له أحد الشبّان في المركز، «نشفي فقط ولا نتدخّل».

والسفرة التي خطّط مايكل لإتمامها في شهرين، امتدّت سنة تقريبًا. كان يجتاز أميالاً، ونادرًا ما كان وحيدًا. وغالبًا ما نقل معه نسوة عجزن عن مواصلة السير بعد أيام كثيرة على الطريق أمضينها هربًا من العنف والحروب القَبَليّة الدائرة في كل مكان. وبينما كان يعبر نقاط تفتيش لا تُحصى، كان يشعر وكأنّ قوّة غامضة تُعينه.. وبمجرّد النظر إلى جوازه كانوا يدعونه يمرّ، لأنّه ربّما شفى أخًا، ابنًا، صديقَ صديق.

أثّر به ذلك كثيرًا. ونذر نذرًا لله وتضرّع إليه أن يسمح له بالعيش كلّ يوم خادمًا، ويومًا، يومًا واحدًا، على صورة المسيح، الذي كرّس له نفسه بتمامها. فكّر في أن يُصبح كاهنًا بعد بلوغه الطرف الآخر من القارّة الإفريقيّة.

عندما وصل إلى كايب تاون، قرّر أن يستريح قبل أن يبحث عن دير ليدخله مُبتدئًا. كان معبوده القدّيس إغناطيوس دي لويولا، الذي تَبِعَ مسيرًا يشبه مسيره، وسافر إلى جزء من العالم قبل أن يؤسّس الرهبنة اليسوعية بعد ذهابه إلى باريس بهدف تحصيل العِلم.

وقع مايكل على فندق متواضع ورخيص. وعَقَدَ العزم على الاسترخاء أسبوعًا لكي يخرج من جسمه كلّ الأدرينالين، ويعمّه السلام من جديد. حاول ألاّ يُفكّر في ما رآه. فلا طائل من العودة إلى الماضي، لأنّ الماضي لا يخدم سوى في تكبيل أقدامنا بأغلال وهميّة، والقضاء على كلّ أثر بالأمل في الإنسانيّة.

لذا، حوّل انتباهه إلى المستقبل، فكّر في كيفيّة بيع سيّارته، وكان يتأمّل منظر البحر من نافذته من الصباح حتّى المساء. راقب تدرّجات لون الشمس والمياه تتبدّل بحسب الساعة، وكذلك الرجال البيض البشرة الذين يتنزّهون بقبّعاتهم الاستكشافيّة عند الشاطىء، يُدخّنون الغليون، إلى جانبهم نساؤهم اللواتي تأنّقن وكأنّهن في البلاط الملكي بلندن. لم يكن من شخص أَسْوَد واحد على الجادّة المحاذية للشاطىء، بل البيض فقط. أحزنه ذلك إلى أبعد حدّ، كان العزل العرقي رسميًا في البلاد. لكن في الوقت الحالي لم يكن في وسعه سوى الصلاة.

صلّى من الصباح إلى المساء ملتمسًا الوحي، مُهيّئًا نفسه، للمرة العاشرة، لممارسة التمارين الروحيّة التي اتّبعها القديس إغناطيوس. أراد أن يكون مُستعدًا عندما تحين اللحظة.

صباح اليوم الثالث، وبينما كان يتناول الفطور، دنا من طاولته رجلان يرتديان قميصين فاتحين.

قال أحدهما: ـ أنت إذن الرجل الذي يكرّم اسم الإمبراطوريّة البريطانيّة!

الإمبراطوريّة البريطانيّة؟ هي لم تعد موجودة، فقد حلّ محلّها الكومونويلث. غير أنّ كلمات الرجل أخذته على حين غرّة.

أجاب من دون أن يراعي استيعابهما: ـ جُلّ ما قمت به هو تكريم كل يوم بيومه.

وفي الواقع، لم يفهما شيئًا، إذ اتّخذ الحديث المنحى الأشدّ خطورة الذي أمكن أن يتصوّره.

ـ أنتَ محبوب ومحترم أينما حللت. الحكومة البريطانيّة في حاجة إلى أمثالك.

لو لم يُضف الرجل عبارة «الحكومة البريطانيّة»، لخال مايكل أنّه كان يُعرض عليه العمل في المناجم أو المزارع أو معامل تحويل المعادن، بصفة رئيس عمّال أو طبيب. غير أنّ «الحكومة البريطانيّة» عنت أمرًا آخر. كان مايكل رجلاً صالحًا، لكنّه لم يكن ساذجًا.

ـ لا، شكرًا. لديّ مخطّطات أخرى.

ـ مثل ماذا؟

ـ أن أصبح كاهنًا. أن أخدم الله.

ـ ألا تعتقد أنك ستخدم الله بخدمة بلادك؟

فَهِمَ مايكل أنّه لم يعد بمقدوره المكوث أكثر في المكان الذي عانى طويلاً لبلوغه. كان مُكرهًا على العودة إلى اسكتلندا على متن الرحلة الجويّة التالية. لحسن الحظ، كان يملك المال.

نهض من دون أن يُفسح للرجل مجال مواصلة الحديث. عرف ما كان «يدعوانه» إليه بكل لطف، أن يُمسي جاسوسًا.

ربطته علاقة جيّدة بالجيوش القَبَليّة، والتقى الكثير من الناس، وكان أمرًا محسومًا: يستحيل أن يخون من وثقوا به.

جمع أغراضه، أعلم المدير أنّه يودّ بيع سيّارته، وترك له عنوان صديق يُرسل إليه ثمنها. توجّه إلى المطار، وبعد إحدى عشرة ساعة، ترجّل من الطائرة التي حطّت في لندن. وبينما كان ينتظر القطار المتوجّه إلى المدينة، قرأ لوحة الإعلانات المبوّبة، لفته إعلان محدّد كان غارقًا وسط إعلانات تطلب عاملات تنظيف وزملاء سكن ونُدُلًا وفتيات يرمْن العمل في نوادٍ ليليّة. «مطلوب: سائقون مستعدّون للذهاب إلى آسيا». وقبل الذهاب إلى المدينة، انتزع الإعلان عن الحائط وتوجّه مباشرةً إلى العنوان المذكور

فيه. كان مكتبًا صغيرًا جدًا كُتب على لافتته: "Budget Bus" (الباص التوفيري).

أجابه شاب طويل الشعر، وهو يفتح النافذة لطرد رائحة الحشيشة التي عبق بها المكان: ـ لقد شُغِلت الوظيفة. لكنّني سمعتُ أنّهم في أمستردام يبحثون عن أشخاص جديرين. ألديك خبرة؟

ـ لا بأس بها.

ـ اذهب إذن قل لهم إنّك من قبل ثيو، هم يعرفونني.

مَدّ إليه بورقة عليها اسم أكثر حيويّة من ذاك الذي حمله الباص الحالي، كُتب عليها "Magic Bus":

زوروا بلادًا لم تتصوّروا يومًا أن تطأها أقدامكم. التكلفة: سبعون دولارًا للشخص الواحد، مقابل السفر فقط. اجلبوا الباقي معكم، باستثناء المخدّرات، وإلاّ ستُنحر أعناقكم قبل أن تتمكّنوا من بلوغ سورية.

أظهرت الورقة صورة باص بألوان فاقعة، أمامها صفّ من الأشخاص يؤدّون علامة السلام، إشارة النصر التي عُرف بها تشرتشل والهيبيّون. ذهب إلى أمستردام، ووظّفوه في الحال. من البديهي أنّ الطلب فاق العرض.

كانت هذه رحلته الثالثة، ولم يكلّ قط من اجتياز أخوار آسيا. بدّل الشريط الموسيقي، ووضع مكانه شريطًا بقائمة أغانٍ ولفّها بنفسه. كانت

الأغنية الأولى لداليدا، وهي مغنّية مصريّة تعيش في فرنسا، ولاقت نجاحًا في أوروبا كلّها. تحسّن مزاج الركّاب، فقد زال الكابوس.

لاحظ راهول أنّ صديقه البرازيلي قد تعافى تمامًا.

ـ رأيتُ كيف واجهتَ زمرة السفّاحين ذوي الملابس السود بقليل من الخوف. كنت على استعداد للقتال، لكن كان لذلك أن يورّطنا في مشكلة. نحن حُجّاج، ولسنا سادة الأرض. نحن رهن ضيافة الآخرين.

أومأ باولو برأسه موافقًا.

ـ مع ذلك، عندما جاءت الشرطة، تسمّرت. أأنت فارّ؟ هل قتلت أحدًا؟

ـ أبدًا، لكن لو أمكن لي ذلك منذ بضع سنوات، لفعلتها بالتأكيد. المشكلة أنّني لم أرَ قط وجوه ضحاياي المحتملين.

من دون الدخول في التفاصيل، شرع باولو يخبر راهول قصّة «بونتا غروسا» لئلا يظنّ أنّه يكذب. لم يُبدِ الرجل الهندي أيّ اهتمام خاص.

ـ آه، خوفك إذن شائع أكثر كثيرًا ممّا تظنّ: الخوف من الشرطة. الجميع يخافون الشرطة، حتّى أولئك الذين صرفوا حياتهم في الامتثال للقانون.

ساعدت الملاحظة باولو على الاسترخاء. لمح كارلا تقترب.

ـ لِمَ الانعزال؟ الآن بعد أن رحلت الفتاتان قرّرتما أن تحلاّ محلّهما؟

ـ نستعدّ للصلاة، هذا كلّ ما في الأمر.

ـ أيمكنني مشاركتكما؟

ـ رقصك أيضًا شكلٌ من أشكال تسبيح الله. ارجعي إلى الآخرين وواصلي ما كنت تفعلينه.

غير أنّ كارلا، ثاني أجمل النساء على متن الباص، لم تكن مستعدّة للاستسلام. أرادت أن تصلّي على غرار البرازيليين. أما الهنود، فسبق أن رأتهم في أمستردام، يصلّون متّخذين وضعيّات جسديّة لااعتياديّة، رأت البقعة الماثلة بين عينَيْ كلٍّ منهم، وتلك الهالة، وكأنّهم يصوّبون أنظارهم إلى اللانهاية.

اقترح باولو أن يُمسك الواحد بيد الآخر. ولحظة كانت على وشك تلاوة الآية الأولى من صلاة، قاطعها راهول.

ـ لندع هذه الصلاة اللفظيّة لوقت لاحق. الأفضل اليوم أن نصلّي بالجسد: فلنرقص.

رجع إلى النار، تبعه باولو وكارلا. رأى الجميع في الرقص والموسيقا سبيلاً للتحرّر من أجسادهم. في القول لأنفسهم: «هذه الليلة، نحن هنا معًا، سُعداء، رغم جهود قوى الشرّ التي حاولت تفريقنا. نحن هنا، معًا، وسنظلّ معًا على طول الدرب أمامنا، رغم سعي قوى الظلمات إلى عرقلة رحلتنا. اليوم، نجتمع هنا معًا. ويومًا ما، عاجلاً أم آجلاً، علينا أن نتبادل تحيات الوداع، حتّى ولو لم يتعرّف واحدنا إلى الآخر جيدًا، حتّى ولو تبادلنا من الكلام بعضه وليس كلّ ما أمكن أن نتبادله. نحن هنا معًا لدافع غامض لا ندركه. إنّها المرّة الأولى التي رقصت فيها المجموعة حول نارٍ، كما رقص الأقدمون في زمن ما، عندما كانوا أقرب إلى الكون، وشاهدوا السُحُب والعواصف، والنار والرياح تتحرّك بانسجام في السماء المرصّعة بالنجوم، وقرّروا أن يرقصوا احتفاءً بالحياة.

الرقص يُحوّل كلّ شيء، ويستدعي كلّ شيء، ولا يُدين أحدًا. الأحرار يرقصون، حتّى وإن وجدوا أنفسهم في زنزانة أو على كرسي مدولب، فليس الرقص تكرارًا لحركاتٍ معيّنة، بل هو تحادث مع كيان،

أكبر وأقدر من كلّ شيء وكلّ امرىء. الرقص هو النطق بلغة تتخطّى الأنانيّة والخوف.

وتلك الليلة في أيلول من العام ١٩٧٠، بعد أن طُردوا من المطعم وتعرّضوا لمذلّة من الشرطة، رقصوا وشكروا الله على منحهم حياةً آسرة جدًا، متحدّية جدًّا وممتلئة جدًّا بالغرائب.

اجتازوا بيُسرٍ كلّ الجمهوريّات التي تألّف منها البلد المسمّى يوغوسلافيا (حيث ركب معهم مسافران إضافيان، أحدهما رسّام والآخر موسيقيّ). وبينما كانوا يسيرون في بلغراد، العاصمة، تذكّر باولو بحنانٍ، وإنْ بلا حنين، حبيبته السابقة التي غادر البرازيل للمرة الأولى برفقتها، التي علّمته قيادة السيّارة وتكلُّم الإنجليزيّة وممارسة الحبّ. ارتحل في مخيّلته، وتصوّرها مع شقيقتها، تركضان في هذه الشوارع بحثًا عن ملجأ من القصف خلال الحرب العالميّة الثانية.

ـ ما إن تنطلق الصفّارات، حتّى ننزل إلى القبو. كانت أميّ تُجلسنا كلتينا على حضنها، تطلب إلينا أن نفتح فمينا وتغطّينا بجسمها.

ـ أن تفتحا فميكما؟ لماذا؟

ـ لئلا تنفجر طبلة الأذن جرّاء الصوت المدوّي، ونفقد السمع بقيّة حياتنا.

في بلغاريا، وبفضل اتّفاق متبادل بين السلطات والسائق، كانت تتبعهم باستمرار سيّارة تقلّ أربعة أشخاص من النوع الخطير . وبعد الفرح العارم الجَماعي الذي عرفه الجميع في البلدة الحدوديّة في النمسا، أخذت الرحلة تتوشّح بالرتابة. كان المخطّط أن يتوقّفوا أسبوعيًا في اسطنبول، لكنّ

الطريق أمامهم كانت لا تزال طويلة جدًا. وبالأرقام الدقيقة، كانوا على مسافة مئة وتسعين كيلومترًا منها، وهو رقم لا أهمّية له مقارنةً بالكيلومترات الثلاثة آلاف التي سبق اجتازوها.

بعد ساعتين، لاحت أمامهم مئذنتا مسجدَين كبيرين.

اسطنبول! لقد وصلوها!

سبق لباولو أن خطّط بالتفصيل لكيفيّة صرف وقته في هذه المدينة. كان قد شاهد عرض الدراويش وتنانيرهم تدورحولهم. وإذ أدهشه هذا الرقص، قرّر أن يتعلّمه، إلى أن أدرك أنّ الأمر لا يعدو كونه مجرّد رقص: كان وسيلة لمحادثة الله. أطلقوا على أنفسهم اسم المتصوّفين، وكان كل ما يقرأه عنهم، يزيده حماسة. فكّر في السفر ذات يوم إلى تركيا، للتدرّب على أيدي الدراويش أو المتصوّفين. لكن لطالما تصوّر ذلك مشروعًا للمستقبل البعيد.

وإذا به فيها! اقتربت الأبراج، وازدحمت الطريق بمزيد من السيارات، وازدحم السير. وازداد الصبر وازداد الانتظار. لكنّه سيكون بينهم قبل طلوع النهار.

أعلن مايكل: ـ ترقّبوا بلوغنا وسط المدينة في غضون ساعة. علينا المكوث لأسبوع، لا للسياحة. فأنتم تعلمونِ أننا، قبل مغادرتنا أمستردام....

أمستردام! وكأنّ قرونًا قد مضت على ذلك!

ـ .... تلقّينا تحذيرًا أننا في بداية الشهر، وجراء محاولة اغتيال ملك الأردن، سنجتاز من دربنا جزءًا أشبه بحقل ألغام. حاولتُ تتبّع الأحداث، ويبدو أنّ الوضع أهدأ قليلاً. لكن قرّرنا، قبل مغادرة أمستردام، ألّا نجازف.

لذلك سوف نسير وفق خطّتنا لفترة قصيرة أيضًا. ضقتُ وراهول ذرعًا بتكرار الأمر نفسه كلّ الوقت. نحن نحتاج إلى تناول الطعام والشراب، والاستمتاع قليلاً. هنا كلّ شيء رخيص، بل رخيص جدًا، والأتراك أشخاص مذهلون، والبلد، رغم كلّ ما سترونه في الشوارع، ليس مسلمًا بل إنه علماني. أقترح مع ذلك على جميلاتنا أن يتحاشين من اللباس ما يستفزّ، وعلى أحبائنا الشبّان ألاّ يثيروا أيّ شجار بذريعة أنّ أحدهم سخر من شعورهم الطويلة.

كانت الرسالة واضحة.

ـ وأمرٌ آخر: عندما اتّصلت من بلغراد لأعلمهم أنّ كلّ شيء بخير، أعلموني بأنّ ثمّة من اتّصل لإجراء مقابلة معنا، كي يعرف معنى أن يكون المرء هيبيًا. قالوا في الوكالة إنّها فرصة كي تروّج لخدماتها، ولم أكن في مزاج يسمح لي بالمجادلة. لذلك، كان الصحفيّ يعلم أين سنتوقّف لنملأ خزّان الوقود وبطوننا، وكان في انتظاري هناك. أمطرني بأسئلة لم أعرف تمامًا سبيلًا للإجابة عنها، واكتفيتُ بالقول إنّكم كالرياح أحرارٌ في الجسد والروح. أراد هذا الصحفي، الذي يعمل لمصلحة وكالة فرنسيّة كبيرة، أن يعرف إن كان بمقدوره أن يُرسل شخصًا من مكتب الوكالة في اسطنبول ليلتقي واحدًا منكم مباشرةً، فقلتُ إنّني لا أعرف، وإنّنا سننزل في أرخص فندق نعثر عليه، حيث كلّ غرفة تتّسع لأربعة...

قاطعه الفرنسي: ـ سأدفع أكثر. سأحجز غرفة لي ولابنتي فقط.

قال رايان: ـ ونحن أيضًا سنحجز غرفة لاثنين.

رمى باولو كارلا بنظرة استفهام، وأخيرًا قالت: ـ «غرفة لاثنين لنا أيضًا». راق للمُلهمة الثانية في المجموعة أن تُظهر أنّ البرازيلي النحيل رهن إشارتها.

حتّى ذلك الوقت، كانا قد أنفقا من المال أقلّ ممّا توقّعا، لأنّهما، في الدرجة الأولى تناولا الشطائر، وناما في الباص. قبل أيام، كان باولو قد أحصى ثروته: بقي في حوزته ٨٢١ دولارًا بعد أيامٍ لامتناهية من السفر. لانت كارلا قليلاً بسبب رتابة الأيام الأخيرة، وحدث بينهما مزيد من التلامس الجسدي، فقد نام أحدهما على كتف الآخر، وكان يشبكان أيديهما بين حين وحين. كان لديهم شعور بالاهتمام مُريح جدًّا، مع أنهما لم يتبادلا سوى قبلة، ولم يخوضا أيّ شكل آخر من أشكال الحميميّة.

ـ في أيِّ حال، توقّعوا وجود صحفي في انتظاركم. إذا لم تشاءوا الكلام، فلستم مجبرين على قول شيء. وأنا أنقل إليكم ما قيل لي.

أخذت الزحمة تتحرّك.

تابع مايكل بعد أن تهامس مع راهول: ـ ونسيتُ ذكر أمر مهم. يسهل إيجاد المخدّرات في الشوارع هنا: من الحشيشة إلى الهيرويين، سهولة إيجادها في أمستردام، أو باريس أو مدريد أو شتوتغارت. مع استثناء وحيد، هو أنّكم إذا أُوقفتم، فلن يستطيع أحد، لا أحد حقًّا، إخراجكم من السجن في الوقت المناسب لمواصلة الرحلة. وأُعذر مَن أُنذر. آمل أن يكون كلامي واضحًا جدًّا.

نعم أُنذروا. لكن لم يكن مايكل على يقين بأنّهم سيمتثلون، خصوصًا وأنّهم صرفوا ثلاثة أسابيع لم يلمسوا فيها أيّ نوع من المخدّرات. وإذ كان يُبقي عينًا على كلّ من ركّابه من دون علمهم، فقد لاحظ، في خلال الأسابيع الثلاثة التي صرفوها معًا، أنّ لا أحد منهم كان يُبالي بما يستهلكه كلّ يوم في أمستردام، أو سواها من المدن الأوروبيّة.

ومرّة أخرى، لم يكن على يقين من أمر آخر: لـمَ كان الجميع يُصرّون على القول إنّ المخدّرات تحثّ على الإدمان؟ بصفته طبيبًا، شخصًا جرّب خلال إقامته في إفريقيا عددًا من النباتات المُهلوسة على نفسه ليرى إن كان بإمكانه استخدامها لمداواة مرضاه، كان على علم بأنّ مُشتقّات الأفيون وحدها تولِّد إدمانًا.

آه، والكوكايين أيضًا، الذي ندر أن بلغ أوروبا، لأنّ الولايات المتّحدة كانت تستهلك عمليًا كلّ ما تنتجه الأنديز.

مع ذلك، فإن الحكومات قد أنفقت في كل مكان ثروة على الحملات الإعلانيّة لمكافحة المخدّرات، في حين أنّ التبغ والكحول كانا يُباعان بحريّة في كلّ مكان. لعلّ ذلك هو السبب الذي دعا الجميع إلى القول إنّ المخدّرات تحثّ على الإدمان: الأجندات السياسيّة، ميزانيّات الإعلانات، وأمور من هذا القبيل.

كان على علم بأنّ الإيرلنديّة التي طلبت غرفة لشخصين لها وللبرازيلي، قد غمّست صفحة من كتابها في محلول LSD، لأنّها أخبرت آخرين بذلك. في الباص، كان الجميع على علم بكلّ شيء، وكأنّ «البريد الخفي» قد انتقل إليه. كلّما وجدت الوقت ملائمًا، تمزّق قطعة من طرف الصفحة، وتعلكها وتبتلعها، بانتظار حدوث الهلوسات الناجمة عنها.

لكنّها لم تكن مشكلة. فحمض الليسرجيك، الذي اكتشفه ألبرت هوفمان في سويسرا وأشاعه في العالم أجمع تيموثي ليري وهو أستاذ في جامعة هارفرد، والذي جرى حظره كمادة غير مشروعة، كان يتعذّر كشفه.

استيقظ باولو وذراع كارلا فوق صدره. كانت لا تزال تغطّ في نوم عميق. بقي مستلقيًا يفكّر في كيفيّة تعديل وضعيّته من دون أن يوقظها.

كانت المجموعة قد وصلت إلى الفندق في وقت مبكر نوعًا ما. تناولوا جميعًا العشاء في المطعم نفسه. كان السائق على حقّ، كلّ شيء في تركيا رخيص جدًّا. وعندما صعد كلّ إلى غرفته، وجد باولو وكارلا أنّ غرفتهما بسرير لثنائي. من دون التفوّه بكلمة، استحمّا، غسلا ملابسهما وعلّقاها لتجفّ. ولشعورهما بالإرهاق، تهالكا على السرير. لم يفكّرا سوى في النوم للمرّة الأولى منذ أسابيع في سرير فعلي، غير أنّ جسديهما العاريين، اللذين تلامسا للمرّة الأولى، كانا عازمين على أمر آخر. وسرعان ما وجدا أنفسهما يتبادلان القُبَل.

صَعُب على باولو بلوغ الانتصاب، ولم تساعده كارلا، اكتفت بالتوضيح أنّها مستعدّة للمضاجعة فقط متى كان هو كذلك أيضًا. كانت المرّة الأولى التي تخطّت فيها الحميميّة بينهما القبل وشبك الأيدي؛ لكن هل كان مُجبرًا على إمتاع امرأة جميلة لمجرّد وجودها إلى جانبه؟ هل سيحسّ أنّها أقلّ جمالاً وأقلّ اشتهاءً إن لم يفعل؟

أما كارلا، ففكّرت: فليتعذّب قليلاً مُعتقدًا أنّني سأستاء إذا قرّر أن ينام بدل مضاجعتي. إن وجدتُ أنّ الأمور لم تتطوّر، فسوف أقوم بما يلزم، لكن الآن، فلأنتظر.

انتصب أخيرًا، ولجها، وارتعش وقذف أسرع مـمّا تصوّر أيّ منهما، رغم محاولته جاهدًا أن يحجم عن ذلك. في النهاية، كان قد انقضى وقت طويل قبل أن تشغل سريره امرأة.

كارلا، التي لـم تبلغ أيّ رعشة، وعرف باولو ذلك، ربّتت رأسه بعطف، كأم تُربّت رأس ولدها. مالت إلى الجانب الآخر من السرير وأدركت لحظتها مدى إحساسها بالإرهاق. نامت من دون أن تفكّر في ما كان يُساعدها في العادة لتغفو، وهو أيضًا.

عندما استيقظ، فكّر في ليل أمس، وقرّر أن ينسحب قبل أن يُجبر على التحدّث فيه. وعلى مهل، أبعد عنه ذراع كارلا، ارتدى البنطلون النظيف الاحتياطي الذي كان في حقيبة ظهره، انتعل حذاءه، ولبس سترته، وبينما كان يهم بفتح الباب، سمع صوتًا يقول:

ـ إلى أين؟ ألن تلقي عليّ تحية الصباح؟

ـ صباح الخير. لا بُدّ من أن اسطنبول مدينة مشوّقة جدًا، أنا متأكّد أنها ستعجبك.

ـ لِمَ لم توقظني؟

لأنني أعتقد أنّ النوم وسيلة لمحادثة الله عبر أحلامنا. هذا ما تعلّمته في بداية دراستي القوى الخفيّة.

ـ لأنني حسبتك تحلمين حلمًا جميلاً، أو حسبتك مرهقة. لستُ أدري.

كلمات. مزيد من الكلمات. كلمات لـم تُفلح سوى في تعقيد الأمور.

ـ أتذكر ماذا حدث ليل أمس؟

مارسنا الحب. ومن دون أن نسعى إليه، لأنّنا كنّا عاريين في السرير نفسه.

ـ نعم. وأردت الاعتذار. أعرف أنّ ما حدث لم يكن في حسبانك.

ـ لم يكن في حسباني أي أمر. أذاهب أنت لملاقاة رايان؟

عرف أنّ سؤالها كما قصدت يفترض أن يكون «أأنت ذاهب لملاقاة رايان وميرث؟

ـ لا.

ـ أتعرف إلى أين ستذهب؟

ـ أعرف ما أريد البحث عنه، لكنّني لا أعرف مكانه. عليّ أن أستعلم في صالة الاستقبال، آمل أن يتمكّنوا من إخباري.

أَمِلَ أن تكون قد انتهت من استجوابها له، ألاّ تُجبره على إيضاح ما كان يبحث عنه، عن مكان يجد فيه الدراويش، لكنّها سألته.

تابع قائلًا: ـ سأحضر مراسم دينيّة لها علاقة بالرقص.

ـ هل تقضي يومك الأول في مدينة على هذا القَدْر من الروعة، وفي بلد على هذا القَدْر من الخصوصيّة، في فعل الأمر نفسه الذي فعلته في أمستردام؟ أما كفاك هاري كريشنا؟ أما كفتك ليلة حول النار؟

بلى كانت كافية. لكن لأنّها أثارت حنقه، ورغبةً منه في استفزازها، أخبرها عن الدراويش الدوّراين الأتراك الذين كان قد رآهم في البرازيل. إنهم رجال يعتمرون قبّعات صغيرة، ويرتدون تنانير بيضاء لا غبار عليها، يبدأون بالدوران على مهل، كما لو أنّهم الأرض أو كوكب آخر. وبعد وقت، تُفضي بهم هذه الحركة إلى الدخول في حالة من الانخطاف. هم

ينتمون إلى طائفة خاصّة، معترف بها ومستنكرة في آن، في الإسلام مصدر وحيهم الأوّل. ينتمي الدراويش إلى طائفة المتصوفة التي أسّسها شاعر من القرن الثالث عشر وُلد في بلاد فارس ومات في تركيا.

يُقرّ التصوّف بحقيقة واحدة لا ثاني لها: لا شيء قابل للانقسام، الخفي واللاخفي واحد، وكلّ امرىء مجرّد خدعة بصرية من لحم وعظام. لهذا لم يهتمّ كثيرًا للنقاش الذي دار حول الواقعات الموازية عندما كانوا في الباص.

نحن كلّ شيء وكلّ واحد في آنٍ، آنّ غير موجود في أيّ حال. ننسى ذلك لأنّ الصحف، والراديو، والتلفاز، تمطرنا يوميًا بوابل من المعلومات. لكن إن اعترفنا بـ «وحدة الوجود»، فلن نحتاج إلى سواها. سنفهم للحظة وجيزة معنى الحياة، لكن هذه اللحظة الوجيزة ستمدّنا بالقوّة للبقاء حتى نعرف ما يُسمّى الموت، الذي هو في الواقع مَعبَر لنا إلى الزمن الحَلَقي.

ـ أفهمتِ؟

ـ تمامًا. من جهتي، سوف أذهب إلى البازار. أتصوّر أن من المحتّم وجود بازار في اسطنبول، حيث يعمل أشخاص ليل نهار ليُظهروا للسيّاح القلائل الذين يبلغون هذا المكان، التعبير الأصفى عمّا في قلوبهم: الفن. لا أنوي شراء شيء بكلّ تأكيد، ولا علاقة للمال بالأمر، بل لضيق الحيّز في حقيبتي. لكنّني سأبذل جهدًا، جهدًا حقيقيًا، لكي يفهموني، ويفهموا إعجابي واحترامي لعملهم. لأنّني أرى، رغم درس الفلسفة الذي لقّنتني إيّاه الآن، أن اللغة الوحيدة التي تهمّ اسمها لغة الجمال.

توجّهتْ إلى النافذة، وراح ينظر إلى قدّها العاري الذي بدأ ضوء الشمس يغمره. ومهما حاولت أن تكون مُزعجة، فقد كنّ لها احترامًا عميقًا. غادر

وهو يسأل نفسه إن كان من الأفضل الذهاب إلى بازار. سوف يكون أمرًا شاقًا ولوج عالم المتصوّفين المُغلق، مهما قرأ عنهم من قبل.

وظلّت كارلا عند النافذة تفكّر: لِمَ لم يدْعُها إلى مرافقته؟ ففي النهاية، أمامها ستّة أيام هنا، ولن يقفل البازار أبوابه، ولا بُدّ من أنّ مقاربة تقليد، كالتصوّف، سيكون تجربة لا تُنتسى.

كانا، مرّة أخرى، يرتحلان في اتّجاهين متعاكسين، رغم محاولتهما جاهدَيْن التلاقي.

وجدت كارلا معظم أفراد المجموعة في الأسفل، دعاها كلٌّ إلى جولة معيّنة، إلى المسجد الأزرق، وإلى آيا صوفيا، وإلى المتاحف الأثريّة. تطفح اسطنبول بالمعالم السياحيّة الفريدة، ففيها مثلًا حوض ماء أرضي ضخم يقوم فيه اثنا عشر صفًا من الأعمدة (مجموعها ثلاثمئة وستة وثلاثون، قال أحدهم مُحدّدًا)، كانت في الماضي خزّان مياه لحاجات الأباطرة البيزنطيين. غير أنّها اعتذرت قائلةً إنّ لديها مخطّطات أخرى، ولم يسألها أحد أيّ شيء، تمامًا كما لم يسألوها عن مشاطرتها الغرفة مع البرازيلي ليلاً. بعد أن تناول الجميع الفطور، ذهبت كلّ مجموعة إلى وجهتها.

كان الوجهة التي ستقصدها كارلا غير مُدرَجة نظريًا في أيّ من الأدلّة السياحيّة. سارت إلى ضفّة البوسفور ووقفت تُحدّق إلى الجسر الأحمر الذي يربط بين أوروبا وآسيا. جسر! جسر يربط بين قارّتين على قدر كبير من الاختلاف والبُعد! دخّنت لفافتين أو ثلاثًا، أرخت قليلاً عن كتفيها رباطي البلوزة البسيطة التي ارتدتها. واستفادت للحظة من الشمس، إلى أن قاربها ثلاثة رجال أو أربعة وحاولوا محادثتها. اضطّرت أن ترفع بلوزتها من جديد إلى كتفيها وتغيّر مكانها.

مُذ لفّ الضجر الرحلة، لجأت كارلا إلى الاستبطان، محاوِلةً الردّ على تساؤلها المفضّل: لمَ أُريد الذهاب إلى نيبال؟ فلّما آمنت بهذه الأمور، وتربيتي اللوثريّة لأقوى من أيّ بخّور أو مانترا أو وضعيّات جلوس أو تأمّل أو كتب

مقدّسة أو طوائف باطنيّة. هي لم تحتَج إلى الذهاب إلى نيبال كي تعثر على الإجابات، فقد سبق لها معرفتها. أضنتها حاجتها إلى أن تُظهر على الدوام قوّتها، وشجاعتها، وعدائيّتها المستعرة، وروح التنافس الجامح لديها. كلّ ما فعلته في حياتها كان يرمي إلى التقدّم على الآخرين، ولم تفلح يومًا في التقدّم على نفسها. ومع أنّها كانت يانعة، فقد تعوّدت ما كانت عليه.

أرادت لكل شيء أن يتغيّر، غير أنّها كانت عاجزة عن تغيير ذاتها.

أحبّت أن تقول للبرازيلي أكثر مما قالت له، أن تجعله يعتقد بأنّها أضحت تشغل حيّزًا أكبر من حياته بمرور كلّ يوم. خالجتها لذّة سقيمة لمعرفتها أنّه شعر بالذنب لإخفاقه في التجربة الجنسية المريعة ليلة البارحة، وأنّها لم تفعل شيئًا لتُطمئنه، وإن ببضع كلمات لطيفة. لم تقل: «لا تقلق حبيبي (حبيبي!)، هكذا هي المرّة الأولى دومًا، نحن نتعارف شيئًا فشيئًا.

غير أنّ الظروف منعتها من التقرّب إليه أكثر، وإلى غيره كذلك، إمّا لأنّها تفتقر إلى الصبر في تعاملها مع الآخرين، وإمّا لأنّ شركاءها لم يتعاونوا معها كثيرًا، لم يُحاولوا تقبّلها كما هي. كانوا يُبقون بينهم وبينها مسافة، عاجزين عن بذل أقلّ جهد لكسر حائط الجليد الذي تحتمي خلفه دومًا.

شعرت أنّها لا تزال قادرة أن تحبّ، من دون أن تتوقّع في المقابل لا تغيُّرًا ولا امتنانًا.

أحبّت مرّات عدّة في حياتها. وفي كلّ مرّة، كانت طاقة الحبّ تُبدّل الكون من حولها. ومتى تظهر هذه الطاقة، لطالما تفعل فعلها. غير أنّ الأمور كانت مختلفة في حالتها، فهي لم تحتمل أن تُحِبّ مطوّلاً.

كان بها توقٌ أن تكون إناءً يضع «الحب الكبير» أزهاره وثماره فيه، حيث المياه المنعشة ستُبقي عليها نضرة كما لو أنّها قُطفت للتوّ، لتُقدَّم إلى الذي يتحلّى بالشجاعة، نعم «الشجاعة» هي الكلمة الصحيحة، لينعم بها. لكن لم يأتِ أحدٌ من هذا القبيل، أو بالأحرى، كل الذين أتوا، رحلوا مذعورين. فهي لم تكن إناءً، بل عاصفة ممتلئة بالبرق، بالريح، بالرعد، قوّة طبيعيّة يستحيل ترويضها، يصح أكثر توجيهها لكي تحرّك الطواحين، وتُنير المدن، أو تبثّ الذعر.

تمنّت لو أمكن لهم أن يروا ما فيها من جمال، لكن لم يرَ أي منهم سوى الإعصار، ولم يحاولوا حتّى الاحتماء منه. فضّلوا الهروب إلى مكانٍ آمن.

انحرف فكرها من جديد إلى أسرتها. مع أنّ والديها كانا يُمارسان إيمانهما اللوثري، لم يحاولا مع ذلك يومًا أن يفرضا عليها معتقداتهما. وككلّ الأولاد في محيطها، بالطبع، تلقّت في صغرها، مرّة أو اثنتين، صفعة منهما، وجدتها طبيعيّة، ولم تحفر فيها أثرًا.

تفوّقت في دراستها، أبدعت في الرياضة، وكانت الأجمل بين زميلاتها في الصفّ (وكانت تعرف ذلك)، ولم يصعب عليها قط أن تجد لها حبيبًا. ورغمَ كلّ شيء آثرت الوحدة.

الوحدة متعتها الكبرى. منشأ حلمها في السفر إلى نيبال لإيجاد كهف، والبقاء فيه وحدها إلى أن يشيب شعرها، وتسقط أسنانها، ويكفّ القرويون المحلّيون عن جلب الطعام لها، ولتأمّل غروب الشمس الأخير لها على الثلج، لا أكثر.

وحدها.

حسدتها زميلاتها في الصفّ على يُسر تعاطيها مع الفتيان. وأُعجب زملاؤها في الجامعة باستقلاليّتها ومعرفتها ما تريده بالضبط. وذُهل زملاؤها في العمل لإبداعها. في النهاية، كانت المرأة الكاملة، ملكة الجبل، لبوة الأدغال، مخلّصة الأرواح التائهة. ما إن أتمّت الثامنة عشرة من العمر، حتى انهالت عليها طلبات الزواج من شتّى الرجال، الذين كانوا أغنياء في الغالب، دعموا طلباتهم بسلسلة من الامتيازات المضمونة، مثل المجوهرات (كان خاتمان مرصّعان بالماس، من الخواتم الكثيرة التي تلقّتها، كافيين لتسديد تكاليف تذكرتها إلى نيبال ولمدّها بمال وفير يمكّنها من الإنفاق لوقت طويل).

وكلّما تلقّت هديّة ثمينة، تحذّر طالب يدها من أنّها لن تعيدها إليه إذا افترقا. كان الرجال يضحكون؛ فقد أمضوا حياتهم يواجهون تحديات رجال أقوى منها، ولم يأخذوها على محمل الجدّ. كان يُفضي بهم الأمر إلى الوقوع في الحفرة التي حفرتها حولها. ويُدركون لحظتها أنّهم لم يدنوا في الحقيقة من هذه الفتاة المذهلة، بل وقفوا على جسر سلكي متزعزع لم يكن يحتمل ثقل التكرار اليومي. ويمضي أسبوع، شهر، وتحلّ لحظة الانفصال التي لا تحتاج إلى تبرير ولا يكون لدى أيّ منهم الشجاعة لاسترداد الهدايا.

ظل الأمر كذلك إلى أن فاجأها أحد طالبيها بعبارة لن تنساها يومًا، وكانا، في اليوم الثالث من علاقتهما، وكانا يتناولان الفطور على السرير في أحد فنادق باريس الفخمة التي قصداها لحضور إطلاق كتاب (لا يُمكن رفض سفرة إلى باريس، فهذا كان أحد مبادئها)، قال لها:

ـ أنت مكتئبة.

ضحكت. ذلك أنهما لم يكادا يتعارفان. فقد تناولا العشاء ليلة أمس في مطعم ممتاز، شربا أفضل النبيذ وأجود الشمبانيا، أوكان هذا ما لديه ليقوله لها؟

ـ لا تضحكي. أنت تعانين من الاكتئاب، أو القلق، أو كليهما. لكن من المؤكّد أنّكِ مع الوقت، ستتّخذين دربًا لا عودة لك منها. كلّما أبكرتِ في تقبّل ذلك، كان أفضل.

شعرت برغبة إخباره كم كانت محظيّة في حياتها: لديها أسرة رائعة، ومهنة تحبّها، تحظى بإعجاب الآخرين؛ لكن لم يكن هذا ما نطقت به.

ـ ما الذي يدعوك إلى قول كهذا؟

كانت نبرتها محمّلة بالسخرية. أجاب الرجل، الذي عاهدت نفسها أن تنسى اسمه ذاك العصر تمامًا، بأنّه يفضّل عدم الخوض في التفاصيل، وأنّه طبيب نفسيّ، لكنّه لم يكن معها بهذه الصفة.

أصرّت. لعلّه في أعماقه أراد خوض الموضوع. في تلك اللحظة، خالت أنّه كان يحلم أن يقضي باقي عمره معها.

ـ بأي حقّ تقول إنّني مكتئبة، ولم يمضِ على معرفتك لي سوى وقت وجيز؟

ـ لأنّ هذا الوقت الوجيز شكّل ثماني وأربعين ساعة بقربك. سنحت لي فرصة مراقبتك خلال جلسة إطلاق الكتاب يوم الثلاثاء، وأمس على العشاء. هل حدث أن وقعت في الحب يومًا؟

أحببت كثيراً من الأشخاص.

كانت كذبة.

ـ وما معنى أن تُحبّي؟

ارتاعت لهذا السؤال إلى درجة أنّها فكّرت بكلّ ما أمكن التفكير به للإجابة عنه. وإذ درأت خوفها، أجابت بصوتٍ موزون:

ـ هو أن تُجيز كلّ شيء، أن تكفّ عن التفكير كلّ الوقت في شروق الشمس أو الغابات المسحورة، ألاّ تسبح عكس التيار، وأن تدع الفرح يغمرك. هذا في نظري معنى أن نُحِبّ.

ـ تابعي.

ـ هو أن تصون حريّتك بصورة لا تدع الشريك يشعر أبدًا بأنّه عالق إزاءها. هو شعور هادىء، ساكن. وأستطيع القول إنّه متجرّد بشكل ما. هو أن نُحبّ من أجل الحبّ، لا لسبب آخر، كالزواج والأولاد والمال وأمور مماثلة.

ـ كلام مُرهَف. لكن ما دمنا معًا، أقترح أن تفكّري في ما قلته لك. لا ينبغي أن نُفسد إقامتنا في هذه المدينة المميّزة في أن أجعلك تشكّين بنفسك، وأن تجعليني أعمل.

حسناً، أنت على حقّ. لكن ما الذي دعاك إلى إخباري بأنني أعاني من الكآبة أو القلق؟ لـمَ لا تهتمّ ولو قليلاً بما لدّي لأقوله؟

ـ وما الذي يدعوني إلى الاكتئاب؟

ـ من الإجابات المحتملة أنّك لـم تحبّي يومًا حبًّا حقيقيًا. لكن في هذه المرحلة، قد تكون إجابة مماثلة غير كافية. أعرف الكثير من المُكتئبين الذين قصدوني لأنهم أفرطوا في الحبّ، لأنّهم سلّموا أنفسهم كليًا. أعتقد

بصريح العبارة، ولا يجدر بي قول ذلك، أنّ لكآبتك مصدرًا جسديًا. لا بُدّ من أنّ جسدك يفتقر إلى مادّة ما، ربّما كانت السيروتونين، أو الدوبامين. لكن في حالتك ليس النورأدرينالين بكل تأكيد.

الكآبة إذن مشكلة كيميائيّة؟

ـ بالطبع لا، هناك ملايين العوامل. لكن ما رأيك أن نرتدي ملابسنا ونذهب في نزهة على ضفاف السين؟

ـ بالطبع، لكن قبل أن نفعل ذلك، أنهِ فكرتك: أيّ عوامل؟

ـ قلتِ إن بمقدورنا أن نعيش الحبّ في العزلة. وهو أمر لا لبس فيه، لكنّه يصحّ في حالة أشخاص قرّروا أن يكرّسوا أنفسهم لله أو لجيرانهم فحسب، وهم القدّيسون، الرؤيويّون، الثوريّون. أما أنا، فأقصد الحبّ البشريّ الشكل، الذي لا يتجلّى سوى في حضرة المحبوب. الحبّ الذي يجعلنا نتألّم بشدّة متى أعجزنا التعبير عنه، أو متى لاحظنا عواطفنا. أنا واثق بأنّك مكتئبة لأنّك لست حاضرة بتمامك، تتنقّل عيناك من اتجاه إلى آخر، هما لا تلمعان، لا تعكسان سوى الإعياء. عشية إطلاق الكتاب، لاحظت أنّك تقومين بجهد خارق للتواصل مع الآخرين، لا بُدّ من أنّهم جميعًا بدوا باهتين، دونيين، متشابهين.

نهض من السرير.

ـ حسناً، هذا كافٍ. سوف أستحمّ. أتودّين أن تفعلي قبلي؟

ـ استحمّ. أريد توضيب حقيبتي. لا تستعجل، أحتاج إلى بعض الدقائق على انفراد، لأستوعب ما سمعته الآن. في الواقع، أحتاج إلى نصف ساعة أقضيها منفردة مع نفسي.

أطلق ضحكة وكأنه يسأل: «وما الذي قلته لكِ؟». لكنّه دخل الحمّام.

وفي غضون خمس دقائق، كانت كارلا قد وضّبت حقيبتها وارتدت ملابسها. فتحت الباب وأغلقته بلا ضجيج. اجتازت الردهة متخطّية مكتب الاستقبال، حيث مرّت بكلّ أولئك الذين رمقوها بنظرات استغراب. بيد أن الجناح الفاخر لم يكن محجوزًا باسمها، وبالتالي لم يطرح عليها أحد أيّ سؤال.

توجّهت نحو موظف الاستقبال لتسأل عن موعد الرحلة المقبلة التي ستقلع إلى هولندا.

ـ أيّ مدينة؟

ـ لا يهمّ، إنها بلادي، ولن أتوه.

ـ سوف تقلع الساعة الثانية والربع، على متن خطوط KLM. أتودّين أن أشتري لك تذكرة، وأُضيفها إلى حساب الفندق؟

تردّدت لهُنيهة، فكّرت أنها فرصة للانتقام من ذلك الرجل الذي قرأ روحها من دون استئذان، والذي ربّما كان مُخطِئًا في كلّ شيء.

لكنّها لم تفعل أجابت قائلة: «لا، شكرًا، لديّ مال بحوزتي». لم تسافر كارلا قط مُعتمِدةً على الرجال الذين كانوا يُقرّرون من وقتٍ إلى آخر مرافقتها.

عادت إلى الحاضر. ونظرت من جديد إلى الجسر الأحمر، تذكّرت كلّ ما كانت قد قرأته حول الكآبة. وتذكّرت أيضًا كلّ ما لم تقرأه، لأنّها أخذت ترتاع حقًا. وقرّرت أنها، من اللحظة التي ستجتاز فيها الجسر، سوف تُصبح امرأة جديدة. ستُجيز لنفسها الوقوع في حبّ الشخص الخطأ، أي شاب يجيء من الطرف الآخر للعالم. سوف تُجيز لنفسها أن تشتاق إليه متى

رحل، أو ستفعل كلّ ما في وسعها لتبقى إلى جانبه، أو ستتأمّل وتتذكّر وجهه في أي كهف من كهوف نيبال تختاره لتعيش فيه. لكن لم يعد في وسعها مواصلة هذه الحياة، حياة شخص يملك كلّ شيء ولا يسعه أبدًا الاستمتاع بأيِ شيء.

وجد باولو نفسه أمام باب ليس عليه لا لافتة ولا أيّ إشارة أخرى، في شارع ضيّق تحدّه منازل بدت مهجورة. بعد جهد جاهد وبعد طرح الأسئلة، تمكّن من تحديد موقع مركزٍ للتصوّف، حتّى ولو نازعه الشكّ في أن يعثر على دراويش دوّارين فيه. ليصل إلى مبتغاه، توجّه أولاً إلى البازار الكبير، حيث انتظر أن يصادف كارلا، لكن عبثًا، راح من ثمّ يقلّد الرقصة المقدّسة وهو يردّد كلمة «درفيش». ضحك عدد من الناس، وخاله آخرون مجنونًا. وبقي الجميع على مسافة منه، لئلا تصيبهم ذراعاه المبسوطتان.

حافظ على رباطة جأشه، رأى في عدد من المحلاّت الطربوش نفسه الذي اعتمره الدراويش، رأي تلك القبعات المخروطيّة الشكل التي نُسبت في العموم إلى الأتراك. اشترى طربوشاً اعتمره، وتابع السير ممرًّا تلو الآخر، مقلّدًا الرقصة، هذه المرّة بالطربوش، وسائلاً بالإشارات كيف يجد مكانًا يقوم فيه الناس بما يقوم به. هذه المرّة، لم يضحك أحد، حث المارّة خطاهم، رمقوه بنظرة جدّية، وقالوا شيئًا ما بالتركيّة. لكنّه أبى الاستسلام. أخيرًا، وجد رجلاً مُسنًا أشيب بدا أنّه يفهم ما يقول. كان لا يزال يُكرّر كلمة «درفيش» وأخذ يشعر بالسأم. لا تزال أمامه ستّة أيام، وربّما توجّب عليه أن يستفيد من وجوده هنا، ويستكشف البازار، غير أنّ الرجل الـمُسنّ دنا منه وقال:

ـ درويش.

هكذا إذن، لقد أساء لفظ الكلمة طوال الوقت!

راح العجوز بدوره يقلّد حركات الدراويش الدوّارين كما لو أنّه يُريد أن يجلي شكوك باولو. تحوّلت نبرة الرجل من ثمّ إلى إدانة بدلاً من التفاجؤ.

ـ You muslim? (*)

أومأ باولو برأسه نفيًا.

قال الرجل عندئذٍ: ـ No, only Islam (*)

انتصب باولو أمامه.

ـ Poet! Rumi! Darwesh! Sufi!. (*)

لا بُدّ من أن اسم الرومي، وهو مؤسّس الطائفة، وكلمة شاعر قد ليّنا قلب المُسنّ. فعلى الرغم من ادّعائه الانزعاج والممانعة، أمسك بذراع باولو وجرّه خارج البازار، واصطحبه إلى المكان الذي يوجد فيه الآن، وهو مبنى شبه متهدّم. وقف أمامه في حيرة لا يدري ما يفعله سوى الطرق على الباب.

طَرَقَه مرّات عدّة ولم يلقَ جوابًا. أدار قبضة الباب، فرأى أنّه غير موصد. أيدخل؟ أيُمكن أن يُتّهم بالتعدّي على ملك الغير؟ أولا يُقال حقًّا إنّ كلابًا شرسة توضع في المباني المهجورة لإبعاد المتسوّلين؟

وارَبَ الباب. وقف هناك ينتظر أن يسمع نباح كلاب، غير أنّه سمع صوتًا، صوتًا واحدًا، بعيدًا، يردّد شيئًا بالإنجليزيّة لم يتمكّن من فهمه. ولاحظ من فوره إشارة، أيقن منها أنّه في المكان الصحيح، إنها رائحة البخّور.

(*) هل أنت مسلم؟

(*) لا، فقط إسلام.

(*) شاعر! رومي! درويش! صوفي!

أرهَفَ سمعه ليُميّز ما ردّده صوت الرجل. كان مستحيلاً. وجب عليه الدخول. وأسوأ ما قد يحدث له هو أن يُطرد. هل لديه ما يخسره؟ كان في غفلة من الزمن قيد أنملة من تحقيق أحد أحلامه، أن يتواصل مع الدراويش الدوّارين.

كان عليه أن يُخاطر. دخل، أغلق الباب خلفه. وما إن ألف بصره الظلمة التي خيّمت نوعًا ما على المكان، حتى رأى أنّه في مستودع قديم فارغ تمامًا، بجدران مطليّة كلّها بالأخضر، وأرضيّة أتلفتها السنين، نفذ بصيص نور من بعض النوافذ المكسورة، وسمح له بأن يرى في إحدى زوايا المكان الذي بدا أوسع كثيراً مـمّا بدا عليه من مقدّمته، رجلاً مُسنًا يجلس على كرسي بلاستيكي، يُحدّث نفسه، فتوقّف عندما لـمح الزائر غير المنتظر.

تفوّه ببضع كلمات تركيّة، وهزّ باولو رأسه مشيراً إلى أنه لا يُجيد التركيّة. قلّده الـمُسنّ مُبديًا امتعاضه لوجود غريب قاطعه في خضمّ أمرٍ مهمّ.

سأله بإنجليزيّة اختلطت بلكنة فرنسيّة: ـ ماذا تريد؟

وهل أمامه سوى الحقيقة يجيب بها؟ مقابلة الدراويش الدوّارين.

ضحك الآخر.

ـ حسناً! أنت هنا للسبب نفسه الذي جاء بي عندما غادرت «تارب»، وهي بلدة صغيرة مغمورة في فرنسا بها مسجد واحد، طلبًا للمعرفة والحكمة. هذا ما تبتغيه، أليس كذلك؟ افعل ما فعلت عندما التقيتُ أحدهم. ادرس شاعرًا لألف يوم ويوم، احفظ عن ظهر قلب كلّ ما كتبه، أجب عن أيّ سؤال من أيّ يكن عن حكمة قصائده. آنذاك يُمكن أن يبدأ

تدريبك، لأنّ صوتك يكون قد بدأ يتوالف مع صوت «الـمُستنير» والأبيات التي خطّها منذ ثمانمئة عام.

ـ الرومي؟

عند ذِكْر الاسم، انحنى الـمُسنّ إجلالاً. جلس باولو على الأرض.

ـ كيف أتعلّم؟ سبق أن قرأتُ الكثير من أشعاره، لكن من دون أن أفهم كيف جسّدها.

ـ الإنسان الذي يبحث عن الروحانيّة لا يفقه الكثير، لأنّه يقرأ لكي يختزن في عقله ما يُعدّه حكيمًا. بِع كتبك مقابل الجنون والعَجَب، وسوف تدنو قليلاً مـمّا تبحث عنه. تزوّدنا الكتب بالآراء والدراسات، بالتحاليل والمقارنات، في حين أنّ شعلة الجنون المقدّسة تقودنا إلى الحقيقة.

ـ لا أحمل الكثير من الكتب. جئتُ كإنسان يبحث عن التجربة. تجربتي في هذه الحال، هي الرقص.

ـ ليست رقصًا، بل إنها بحث عن المعرفة. العقل هو ظلّ معرفة الله. وأيّ قوّة للظلّ أمام وجه الشمس؟ لا قوّة إطلاقًا. اخرج من الظلّ، اذهب إلى الشمس، ودع شعاعاتها تُلهمك بدلاً من كلام الحكمة.

أشار الـمُسنّ إلى بقعة نفذ إليها نور الشمس على بعد عشرات الأمتار من كرسيّه. نهض باولو وجلس فيها.

ـ رحّب بالشمس. دعها تُترع روحك. المعرفة وهم، النشوة الروحيّة هي الحقيقة الحقّة. تملؤنا المعرفة بالذنب، وتوحّدنا النشوة مع العَلي، الذي هو الكون، قبل وجوده وبعد فنائه. البحث عن المعرفة هو كمحاولة الاغتسال بالرمل، وبئر الماء العذب إلى جانبنا.

في هذه اللحظة بالذات، أخذت مكبّرات صوت المآذن ترنّم كلامًا، فملأ

الصوت المدينة بأكملها، وعرف باولو أنّها دعوة إلى الصلاة. كان باولو قد صوّب وجهه إلى الشمس، تمكّن من رؤية شعاع بفضل الغبار الذي يشغله. وأدرك من خلال الجلبة التي حدثت خلفه أنّ المُسنّ خرّ على ركبتيه. أدار وجهه نحو قبلة مكّة وبدأ يُصلّي. راح باولو يُفرغ عقله، الأمر الذي كان يسيرًا في مكان يخلو من أيّ أثاث، لم يكن فيه حتّى تلك الآيات القرآنية المدوّنة بالخطّ العربي الشبيهة باللوحات. بلغ الفراغ المطلق، بعيدًا عن بلاده، عن أصدقائه، عمّا تعلّمه، وما أراد تعلّمه. كان مترفّعًا عن الخير والشرّ. كان في الهُنا، في الهُنا فقط والآن.

انحنى، رفع رأسه، أبقى عينيه مفتوحتين، ورأى أنّ الشمس تخاطبه، لم تكن تسعى إلى تلقينه أيّ شيء، بل إلى مجرّد أن تدع نورها يغمر كلّ ما حوله.

أيا محبوبي، يا نوري، لتكن روحك دائمة السجود. في وقت ما، سوف تغادر هذا المكان لترجع إلى ذويك، لأنّ وقت اعتزال كلّ شيء لم يحن بعد. غير أنّ الهِبَة الأسمى التي تسمّى الحبّ، ستجعل منك أداة كلامي، ذاك الذي قلته وأنتَ فهمته.

إن أسلمتَ نفسك للصمت العظيم، ستتعلّم منه. قد يُنقل كلامًا لأنّ هذا سيكون قدرك. لكن متى حدث ذلك، لا تلتمس أيّ تفاسير، والتمس من الآخرين احترام الغموض.

أتريد الحجّ على درب النور؟ تعلّم إذن السير في الصحراء. تكلّم بقلبك لأنّ الكلمات محض مصادفة، وإن احتجت إليها لتتواصل مع الغير، إيّاك والتيه في المعاني والتفاسير. لا يسمع الناس إلاّ ما يريدون سماعه. لا تسعَ أبدًا إلى إقناع أحد. اكتفِ باتّباع قدرك بلا مهابة، وإن بمهابة، لكن اتبع دربك.

أترغب في بلوغ السموات وتأتي إليّ؟ تعلّم إذًا الطيران بجناحين، جناحَي الانضباط والرحمة.

تعجّ المعابد والكنائس والمساجد بأشخاص يخافون ممّا سيجدونه في الخارج، ويدعون أنفسهم تُلَقّن كلامًا ميتًا. معبدي هو العالم، لا تخرج منه. الزم العالم، وإن صَعُبَ عليك ذلك، وإن اقتضى أن تكون مهزلة الآخرين.

تكلّم مع الآخرين ولا تسعَ إلى إقناعهم. لا تدعهم يُصدّقون كلامك، أو يُمسون تلامذتك. فمتى حدث ذلك، لن يصدّقوا ما تقوله لهم قلوبهم، وهو في الحقيقة الخطاب الوحيد الذي عليهم أن يُنصتوا إليه.

ترافقوا على الدرب، اشربوا واستمتعوا بالحياة، لكن دعوا بينكم مسافات، لئلا يتبع الواحد فيكم الآخر. سقوطنا جزء من الرحلة، وعلينا جميعًا أن نتعلّم كيف ننهض بمفردنا.

سكتت المآذن. لم يعرف باولو كم انقضى على محادثته مع الشمس. أنار شعاعها الأوحد بقعة بعيدة عنه. استدار وأدرك أنّ الرجل الذي أتى من بلد قصي ليجد ما أمكن له إيجاده في جبال منطقته، قد رحل. كان باولو وحيداً هناك.

حان وقت الرحيل، فقد يُسلم نفسه شيئًا فشيئًا لشعلة الجنون المقدّسة. ليس مُضطرًا أن يوضح لأيّ يكن إلى أين ذهب، وأَمِلَ ألاّ تكون عيناه قد تبدّلتا. تمكن من الشعور ببريقهما. ومن شأن ذلك أن يلفت انتباه الآخرين.

أوقد عود البخّور الأخير الذي وجده إلى جانب الكرسي وغادر. أغلق الباب خلفه، لكنّه عرف أنّ الأبواب دومًا مفتوحة لمن يحاول اجتياز عتبتها. حسبنا أن نُدير المقبض.

بدا واضحًا أنّ الصحفيّة الموفدة من وكالة الأنباء الفرنسيّة كانت مستاءة من تكليفها إجراء مقابلة مع هيبّيين، هيبّيين! في وسط تركيا، وهم في طريقهم إلى آسيا في باص، على غرار الكثير من المهاجرين الذين جاءوا في الاتجاه المعاكس، بحثًا عن الثروات والفُرص في أوروبا. لم تكن تحمل أحكامًا مسبقة عن أيّ من الطرفين، لكن الآن، ومع نشوب نزاعات في الشرق الأوسط، لم يكفّ التِلِكس عن تقيّؤ الأنباء. سرت شائعات عن كتائب متقاتلة في يوغوسلافيا، وكانت اليونان على شفير الحرب مع الأتراك. وكان الأكراد يطالبون باستقلالهم، ولم يدر الرئيس ما عليه فعله، وباتت اسطنبول وكرًا للجواسيس جَمَعَ بين عملاء الاستخبارات السوفيتيّة وعملاء الاستخبارات الأميركيّة، وأطاح ملك الأردن بثورة، وتوعّد الفلسطينيّون بالثأر، فما الذي كانت تفعله بالضبط في فندق من الدرجة الثالثة هذا؟

كانت تطيع الأوامر. كانت قد تلقّت اتصالاً هاتفيًا من سائق «الباص السحري» المزعوم، وهو رجل بريطاني ودود مخضرم كان ينتظرها في ردهة الفندق. ومن البدهيّ ألّا يستوعب هو أيضاً مصلحة الصحافة الخارجيّة في الموضوع، لكنّه كان عازمًا على المساعدة ما أمكن.

سرّحت نظرها في الردهة. لم يكن فيها أيّ هيبي، باستثناء رجل كان يشبه راسبوتين، وآخر في الخمسين من العمر تقريبًا لا أثر للهيبّية فيه، كان جالسًا إلى جانب شابّة.

قال السائق مُشيرًا إلى الخمسينيّ الذي رافقه إلى هذا الحدّ من السفر بصحبة ابنته: ـ هو من سيُجيب عن أسئلتك. فهو يتكلّم لغتك.

من الجيّد أنّ باستطاعتهما التحادث بالفرنسيّة. هكذا ستكون المقابلة أسرع وأسهل. شرعت في تأطير الزمان والمكان (الاسم: جاك/ العمر: أربع وسبعون سنة/ مولود في: أميان، فرنسا/ المهنة: مدير سابق في إحدى الشركات الكبرى لمنتجات التجميل في فرنسا /الوضع العائلي: مطلّق.)

ـ أثق أنّكم أُعلمتم بأنّني هنا بغية إعداد تقرير لوكالة Agence France-Presse عن هذه الثقافة التي بحسب ما قرأته نشأت على أيدي الأميركيين...

امتنعت عن إضافة: «هؤلاء الأثرياء المنغمسين في الملذّات وليس لديهم من أمر آخر يفعلونه».

ـ... والتي انتشرت على امتداد الكرة الأرضيّة قاطبة.

صادق جاك على كلامها بإيماءة من رأسه، في حين أنّها أسرّت لنفسها من جديد: «أو بالأحرى انتشرت إلى المناطق التي يقطنها الأثرياء».

سألها، وقد ندم أنه وافق على إجراء المقابلة، بدل استكشاف المدينة والاستمتاع بوقته شأنه شأن باقي أفراد المجموعة: ـ ما الذي تريدين معرفته بالضبط؟

ـ إذن، نعلم أنّها حركة لا أحكام مسبقة فيها، تقوم مبادئها على المخدّرات والحفلات الموسيقيّة الضخمة في الهواء الطلق حيث كلّ شيء مباح، والأسفار، وإغفال من يُكافحون في هذه اللحظة من أجل فكرٍ مثالي، مجتمع حرَ وأكثر عدلاً، إغفالاً كاملاً ومطلقاً...

ـ مِنْ أمثال مَن؟

ـ من أمثال أولئك الذين يُحاولون تحرير الشعوب المضطهدة، والتنديد بالظلم، والمشاركة في الكفاح الطبقي الجوهري حيث يبذل الناس دماءهم وحياتهم لكي يصبح الأمل الأوحد للبشريّة، وهو الاشتراكيّة، حقيقة واقعة وليس مجرّد يوتوبيا.

صادق جاك على كلامها بإيماءة من رأسه. لا نفع من الردّ على هذا النوع من الاستفزاز، إذ لم يكن يُريد أن يهدر يومه الأوّل الثمين في اسطنبول.

ـ ونعلم أنّ أتباعها لديهم نظرة عن الجنس أكثر تحرّرًا، بل أكثر فسقًا، حيث لا مشكلة لدى الرجال المتوسّطي العمر أن يُشاهُدوا إلى جانب فتيات في سن بناتهم...

كان جاك سيغض الطرف عن هذه اللدغة أيضًا، غير أنّ صوتًا آخر اخترق الحديث.

ـ الفتاة التي هي في سن ابنته، والتي تقصدينني بها على ما أتصوّر، هي في الواقع ابنته. لم نتعارف بعد: أُدعى ماري، عمري عشرون سنة، وُلدت في ليزيو. أنا طالبة علوم سياسية ومُعجبة بكامو وسيمون دو بوفوار. ذوقي الموسيقي: دايف بروبك، غرايتفل ديد، رافي شانكار. وحاليًا، أُعدّ أطروحة عن الطريقة التي تحوّلت بها الجنّة الاشتراكيّة التي يفديها الناس بحياتهم، والمسمّاة أيضًا الاتحاد السوفيتي، إلى قمعيّة بكلّ ما فيها، شأنها شأن الديكتاتوريات المفروضة على العالم الثالث من البلدان الرأسماليّة مثل الولايات المتّحدة الأميركيّة، إنجلترا، بلجيكا، فرنسا. أتودّين معرفة أيّ أمر آخر؟

شكرتها الصحفيّة، ازدردت ريقها، سألت نفسها لبرهة إن كانت

هذه الفتاة تكذب، وقرّرت أنّها صادقة، وحاولت من ثمّ إخفاء دهشتها. واستنتجت أنّها وجدت بلا شكّ لُبّ مقالها: قصّة رجل، مدير سابق لشركة فرنسيّة متعدّدة الجنسيات، يقرّر، في لحظة أزمة وجوديّة، التخلّي عن كلّ شيء، واصطحاب ابنته في رحلة حول العالم، من دون أن يراعي المخاطر التي يُلقي بها على درب هذه الفتاة، أو بالأحرى، هذه الشابّة، أو بتعبير أدقّ المرأة التي سبقت سنّها نضجًا، بالحكم على طريقة حديثها. شعرت بأنّها تخسر الرهان، ووجب عليها أن تستعيد اتّخاذ المبادرة.

ـ هل سبق لك أن جرّبت المخدّرات؟

ـ بالطبع: الماريوانا، خلاصة الفطر المهلوس، وكذلك بعض المخدّرات الكيميائيّة التي أعيتني مثل LSD. لكنّني لم ألمس قط الهيرويين أو الكوكايين أو الأفيون.

رمقت الصحفية بنظرة من طرف عينها والد الفتاة، الذي كان يُصغي إلى ابنته بهدوء.

ـ وهل أنتِ من مُناصري الحبّ الحرّ؟

ـ ما دامت أقراص منع الحمل متوافرة، لا أرى من مانع أن يكون الحبّ حرًا.

ـ وهل تقومين بذلك حقًّا؟

ـ هذا لا يعنيك.

وإذ رأى جاك أنّهما مُقبلتان على مجابهة، بدّل الموضوع.

ـ ألسنا هنا للحديث عن الهيبّيين. لقد جئت بخلاصة ممتازة عن فلسفتنا، فما الذي تودّين معرفته فضلاً عن ذلك؟

فلسفتنا؟ رجل يقرب من الخمسين من عمره يتحدّث عن «فلسفتنا»؟

ـ أريد أن أعرف لماذا تقصدون نيبال بالباص. بحسب فهمي للأمور، وبحسب لباسكما، يبدو أنّكما تملكان ما يكفي من المال للسفر جوًّا.

ـ لأنَ الرحلة هي الأهمّ في نظري، أن أتعرّف أشخاصًا لن تسنح لي الفرصة أبدًا تعرّفهم بالسفر في الدرجة الأولى على متن Air France، كما فعلت غالبًا، حيث لا أحد يُوجّه الكلام إلى من يجاوره، حتّى ولو تجاورا لاثنتي عشرة ساعة.

ـ لكن ثمّة....

ـ نعم، ثمّة باصات مريحة أكثر من هذا الباص المدرسي القديم، المتآكل، بمكابحه الفظيعة ومقاعده التي لا تنحني. أفترض أنّ هذا ما أردت قوله. حدث في تجسُّدي السابق، أي في مسيرتي المهنيّة كمدير تسويق، أن قابلتُ كلّ من احتجتُ إلى مقابلته. والحقّ أقول لك، أن الواحد منهم كان نسخة طبق الأصل عن الآخر: التنافسات نفسها، المصالح نفسها، التباهي عينه، إنه وسط مختلف كليًا عن الوسط الذي عرفته ولدًا، حيث كنت أعمل في الحقول مع والدي قرب أميان.

راحت الصحفيّة تقلّب صفحات دفترها، من الواضح أنّها خسرت الرهان. كان من الصعب استفزاز هذين الاثنين.

ـ علامَ تبحثين؟

ـ عن الجملة التي دوّنتها حول الهيبّيين.

ـ لكنّك لخّصتنا أفضل تلخيص: الجنس والمخدّرات والروك أند رول والسفر.

تمكّن الفرنسي من إغاظتها أكثر ممّا تصوّر.

ـ ربّما كان هذا رأيكم في الأمر، لكنّ الواقع أبعد كثيراً من ذلك.

ـ أبعد كثيراً من ذلك؟ أتحفينا إذن، لأنّني عندما قرّرت أن أمضي في هذه الرحلة، بدعوة من ابنتي، لم أتمكّن إلا من معرفة مدى تعاستي، ولم أملك الوقت لأستعلم عن التفاصيل.

قالت الصحفيّة إنها راضية، وإنّها حصلت على ما أرادته، وفكّرت في نفسها أن بإمكانها أن تخترع كلّ ما تريده انطلاقًا من هذه المقابلة، من دون أن يدرك أحد ذلك. غير أنّ جاك بقي على إصراره. سألها إن كانت ترغب في تناول القهوة أو الشاي. («القهوة، سئمتُ شاي النعناع المحلّى»). «أتريدين قهوة تركيّة أم عاديّة»؟ («تركيّة، فأنا في تركيا. من السخافة تصفية السائل، يجب أن يكون البنّ موجودًا كذلك»).

ـ أعتقد أنّني أنا وابنتي نستحقّ أن نعرف المزيد بعد. نحن نجهل مثلاً أصل كلمة «هيبي».

من الواضح أنّه كان يسخر، لكنّها ادّعت عدم ملاحظة ذلك، وقرّرت المتابعة. كانت تستميت من أجل فنجان قهوة.

ـ لا أحد يعرف. لكن إذا كنّا سنقاربها انطلاقًا من كوننا فرنسيّين نحاول تعريف أصل كلّ شيء، فإنّ فكرة الجنس، والامتناع عن أكل اللحم، والحب الحرّ، والعيش المشترك، لها جذور في بلاد فارس، في طائفة أسّسها المدعوّ مَزْدَك الذي لا نعرف عنه الكثير. مع ذلك، ولمّا كنّا مضطرّين إلى الكتابة أكثر فأكثر عن الحركة، فقد اكتشف بعض الصحفيين لها منشأً مختلفًا لدى الفلاسفة الإغريق، يُعرف بمذهب الكلبيّين.

الكلبيّون؟

ـ الكلبيّون. ولا دخل للكلمة بالمعنى الحديث الذي ننسبه إليها. كان ديوجين الأشهر بين أقران المذهب. فبالاستناد إليه، يتوجَّب علينا جميعًا أن نردّ عنّا كلّ ما يفرضه علينا المجتمع، ذلك أننا ننشأ جميعًا على اقتناء أكثر ممّا يلزمنا، وأن نرجع إلى القيم البدائيّة. بعبارة أخرى، ينبغي لنا العيش وفق قوانين الطبيعة، من زهد في الحياة، وابتهاج بكلّ يوم جديد، وعزوف عن كلّ ما نشأنا عليه من سلطة وربح وطمع، وكل ما يدور في هذا الفلك. أما الكلبيون، فقد كان هدفهم الوحيد من الحياة هو التحرّر من الفائض، في إيجاد الفرح كلّ لحظة، كلّ دقيقة، في كلّ نَفَس. وتقول الأسطورة إنّ ديوجين يعيش في برميل.

اقترب السائق. لا بُدّ من أنّ الهيبي شبيه راسبوتين كان يتكلّم الفرنسيّة، لأنّه جلس على الأرض وراح يُصغي. وصلت القهوة، التي مدّت الصحفيّة بالطاقة لمتابعة عظتها. فجأة تبدّد جوّ العدائيّة العام، وأصبحت هي الآن محور الانتباه.

ـ شاعت هذه الفلسفة إبّان المسيحيّة، عندما كان الرهبان يقصدون الصحراء بحثًا عن السلام بغية التواصل مع الله. وهي لا تزال مستمرّة حتّى يومنا عبر فلاسفة مثل الأميركي ثورو والهندي غاندي. يقولون جميعًا: بسّطوا، بسّطوا الأمور وستكونون سعداء.

ـ لكن كيف تحوّلت، فجأة، إلى صيحة، إلى أسلوب لُبس، إلى الكلبيّة، بالمعنى الحالي للكلمة، من دون تصديق اليمين ولا اليسار، مثلاً؟

ـ لا علم لي بهذا الأمر. يقول بعض الناس إنّها بدأت مع حفلات الروك الموسيقيّة الكبرى مثل «وودستوك». ويقول آخرون إنّها تُعزى إلى موسيقيين معيّنين مثل جيري غارسيا، غرايتفل ديد، فرانك زابّا، ماذرز أوف إنفنشن،

الذين شرعوا في إقامة حفلات مجانية في سان فرانسيسكو. وهذا سبب وجودي هنا وأسئلتي لكما.

نظرت إلى ساعة يدها، ونهضت.

ـ عفواً، عليَّ الذهاب. لديَّ مقابلتان أخريان لليوم.

جمعت أوراقها، وعدّلت ملابسها.

قال جاك: ـ سأرافقك حتّى الباب.

كانت العدائيّة قد تبدّدت كليًا: كانت مجرّد محترفة تؤدّي عملها جيدًا، وليس عدوة جاءت لتنتقد من تُجري معهم مقابلة.

ـ لا داعي. ولا داعي للاستياء ممّا قالته ابنتك.

ـ سأرافقك في كلّ الأحوال.

غادرا معًا. سألها جاك عن موقع سوق البهارات. لم يكن مهتمًا برؤية أمور لم يكن ينوي شراءها، لكنّه كان تواقًا ليتنشّق عطور النباتات والأعشاب التي ربما استحال عليه تنشّقها في فرصة ثانية.

أشارت الصحفيّة إلى الطريق، وانطلقت بخطًى حثيثة في الاتجاه المعاكس.

فيما سار جاك إلى سوق البهارات، راح يفكِّر، وهو الذي قام عمله لسنوات عدّة على بيع منتجات لم يحتج إليها أحد، مُجبرًا أن يبتكر كلّ ستة أشهر حملة إعلانات جديدة لحثّ المستهلكين على شراء «منتج جديد» أُطلق لتوّه. فكّر أنّ اسطنبول في حاجة إلى وزارة سياحة أكثر فاعلية. فقد افتُتن جدًا بأزقّتها، بالمتاجر الصغيرة التي مرّ أمامها، بالمقاهي التي بدت متجمّدة في الزمن، بالديكور، بملابس الناس، بالشوارب. لمَ يُطلق الأتراك بغالبيّتهم العظمى شواربهم؟

اكتشف الإجابة بمحض المصادفة، عندما توقّف في مقهى، لا بُدّ من أنّه عرف أيامًا أفضل، وكان ديكوره بكلّيته من طراز الفن الجديد الذي لا تجده سوى في بعض الأماكن المغمورة والمنمَقة في باريس. قرّر أن يرتشف قهوته التركيّة الثانية لليوم، البنّ الممزوج بالماء، من دون تصفية، والذي كان يُقدّم في ركوة نُحاسيّة لها مقبض في طرفها، وهي إناء لم يسبق له أن رآه إلاّ هنا. أمِلَ أن يتبدّد أثر المشروب المحفّز من جسمه بحلول المساء لكي يهنأ بليلة أخرى من الراحة. وبما أنّ الحركة في المقهى كانت خفيفة إذ لم يكن سوى زبون آخر غيره، فقد شرع المالك في محادثته، وقد عرف أنه أجنبي.

سأله المالك عن فرنسا، وإنجلترا، وإسبانيا، وروى له قصّة مقهى السلام، وأراد أن يعرف رأي جاك في اسطنبول («وصلت لتوّي، لكن تبدو لي أنّها

مدينة تستحقّ أن يعرف الناس عنها»)، في المساجد الكبرى، وفي البازار الكبير («لم أزر أيًّا من هذا بعد، وصلتُ أمس»)، ثمّ راح يُثني على مزايا القهوة الممتازة التي يقدّمها إلى أن قاطعه جاك.

ـ لاحظتُ أمرًا أثار فضولي، وقد أكون على خطأ. لاحظتُ، على الأقلّ في هذا الجزء من المدينة، أن الجميع يطلقون شواربهم، بمن فيهم أنت سيدي. أهو تقليد؟ لست مجبرًا على الإجابة، إن لم تكن لك رغبة في ذلك.

غير أنّ مالك المقهى بدا مُتحمّسًا للإجابة.

ـ أنا مسرور أنّك لاحظت ذلك. أعتقد أنّها المرّة الأولى التي يطرح فيها أجنبي هذا السؤال عليّ. وغالبًا ما يأتي إلى مقهاي السيّاح القلائل الذين يزورون المدينة، بسبب قهوتي الممتازة، وبتوصية من الفنادق الفخمة.

ومن دون استئذان، جلس المالك إلى طاولة جاك، وطلب إلى مُساعِدَه، وهو فتى لا يكاد يجاوز سنّ البلوغ، أجرد الذقن، أن يُحضر له شاي النعناع.

القهوة وشاي النعناع. يبدو أنّهما المشروبان الوحيدان المُستهلكان في هذا البلد.

ـ أهو تديُّن إذًا؟

ـ أتقصدني أنا؟

ـ لا، أقصد الشارب.

ـ على الإطلاق! بل إنه يرتبط بواقع أننا رجال ذوو شرف وكرامة. تعلّمت هذا من والدي الذي كان لديه شارب يشذّبه بعناية، وكان يقول لي دومًا: «ذات يوم سيكون لك مثله تمامًا». وضّح لي أن الناس، في جيل جدّ جدّي، عندما راح الإنجليز الملاعين و- اعذرني - الفرنسيون أيضًا يدفعوننا

إلى التقهقر، كان علينا أن نقرّر جهّة أماننا. وبـما أنّ كلّ كتيبة كانت وكر جواسيس، فقد قرّرنا أن يكون الشارب نوعاً من شيفرة. فبحسب شكل تشذيبه، يكون الرجل إما مُناصرًا وإما مناهضًا للإصلاحات التي سعى الإنجليز، وـ اعذرني من جديد ـ الفرنسيون الملاعين إلى فرضها علينا. لـم يكن بالطبع شيفرة سريّة، بل كان بالأحرى إشهار مبادىء.

نحن نُنبت شواربنا منذ نهاية عهد الإمبراطوريّة العثمانيّة المجيد، يوم أُكره الناس أن يرسموا دربًا جديدة للبلاد. كان لمناصري الإصلاح شوارب على شكل حرف M، وتركها المناهضون تنزل عند الأطراف على شكل U مقلوبة.

ـ ومن كانوا على الحياد؟

ـ هؤلاء حلقوا لحاهم. لكنّ ذلك كان عارًا على أُسَرهم، وكأني بهم نسوة.

ـ ألا يزال هذا يصحّ حتّى اليوم؟

ـ كان كمال أتاتورك، أبو الأتراك كلّهم، والقائد الذي نجح أخيرًا في الإطاحة بعهد اللصوص الذين نصّبهم الأوروبيون على العرش، يحلق شاربه بين حين وآخر. فأربك ذلك الجميع. لكن، متى تجذّرت التقاليد، يُصبح تغافلها صعبًا. نعود إلى بداية حديثنا، ما ضير أن يُظهر المرء رجولته؟ فالحيوانات تفعل الأمر نفسه بفروها أو ريشها.

أتاتورك، ذلك القائد الباسل الذي خاض الحرب العالميّة الأولى، وصدّ غزوًا، وألغى السلطنة، ووقّع على ختام الإمبراطوريّة العثمانيّة، وقرّ فصل الدين عن الدولة (وهو أمر اعتقد كثيرون باستحالته). والأهم من ذلك، بخصوص أولئك الإنجليز والفرنسيين الملاعين، أنه رَفَضَ التوقيع على

معاهدة صلح مُهينة مع الحلفاء، كما فعلت ألمانيا، معاهدة نثرت سهوًا بذار النازيّة. كان جاك قد رأى عدّة صور لمعبود تركيا الحديثة الأعظم، عندما حاولت الشركة التي كان يعمل لديها غزو تلك الإمبراطورية مرة ثانيةً، بالإغواء والحيلة. لكنّه لم يلاحظ أنّ أتاتورك ظهر أحيانًا بلا شارب، لاحظ فقط في الصور التي ظهر فيها بشارب، أن شاربه لم يكن على شكل حرف U مقلوب أو M، بل على التقليد الغربي، حيث يعلو الشعر الشفة في خط مستقيم ويصل إلى زاويتيها.

الله! لقد تعلّم الكثير عن الشوارب ودلالتها السريّة! سأل كم عليه أن يدفع ثمن القهوة، غير أنّ المالك رفض الحساب، وأجابه أن الدفع في المرّة المقبلة.

وختم حديثه قائلاً: يأتي العديد من الشيوخ العرب إلى هنا ليزرعوا شوارب. نحن الأفضل في العالم في هذا المجال.

تبادل هو وجاك بضع كلمات، ثمّ اعتذر لأنّ زبائنه قد بدأوا يتوافدون لتناول الغداء. قدّم جاك المال إلى الفتى الأجرد ثمن القهوة وغادر، شاكرًا في خَلَده ابنته التي جرّته بكل معنى الكلمة إلى ترك وظيفته، ولكن ليس من دون تعويض خدمة ممتاز. تخيّل نفسه عائدًا من «إجازة» يروي لأصدقائه في العمل قصّة الشوارب والأتراك. ولو حدث ذلك لوجدوها جميعًا مشوّقة وغريبة لا أكثر.

تابع سيره باتّجاه سوق البهارات، وهو يفكّر: لِم لَم أُجبر يومًا والديّ على ترك حقول أميان لبعض الوقت والسفر؟ في البداية، كان عذرهما أنّهما في حاجة إلى ادّخار المال لكي يتمكّن ابنهما الوحيد من الحصول

على تعليم جيّد. لكن، بعد حيازته دبلومًا في التسويق، وهو تخصُّص لم يستوعباه، زعما أنّهما قد يسافران إلى الخارج في عطلتهما المقبلة، أو التي تليها، أو التي تلي تاليها. لكنّهما ككلّ المزارعين، عرفا تمام المعرفة أنّ عمل الطبيعة لا ينتهي، وأنّ الزراعة تتعاقب فيها فترات تقصم الظهر من زرع وجزّ وحصاد، مع فترات أخرى من الضجر الغائر في انتظار أن تُكمل الطبيعة دورتها.

في الحقيقة، لم يزمعا يومًا الخروج من المنطقة الوحيدة التي عرفاها جيدًا، كما لو أنّ باقي العالم كان مكانًا يهدّدهما بالخطر، فهناك سيتوهان في شوارع غير مألوفة ومدنٍ غريبة عنهما، يقطنها متعجرفون سيلاحظون على الفور لكنتهما الريفيّة. لا، ففي نظرهما، تشابهت كل مناطق العالم. كان لكل شخص مكانه في العالم، ولا بُدّ من احترام ذلك.

غالبًا ما اغتاظ في طفولته ومراهقته، لكن لم يكن بيده حيلة إلّا أن يعيش حياته كما خطّط لها: إيجاد عمل جيد (وحصل عليه)، التعرُّف إلى فتاة والزواج بها (حدث ذلك عندما كان في الرابعة والعشرين)، صنع مسيرة مهنيّة، الطواف حول العالم (فعل وضاق ذرعًا بالعيش في المطارات والفنادق والمطاعم، في حين كانت زوجته تنتظره في المنزل بفارغ الصبر، تبحث عن معنى لحياتها يتخطّى وجود ابنتها فيها فحسب). وذات يوم، كان سيُرقّى إلى منصب مدير، يتقاعد، يعود إلى الريف، ويقضي أيّامه الباقية حيث وُلد.

وباستحضار كلّ هذه السنوات، خال أنّ بإمكانه أن يحذف المراحل الوسطيّة، غير أنّ روحه وفضوله الهائل دفعاه إلى الأمام، إلى ساعات لا تنتهي من العمل الذي أحبّه في البداية، لكن الذي أخذ يكرهه مع ارتقائه السلّم.

قُدِّر له أن يتروّى قليلاً، ويرحل في اللحظة المناسبة. كان يرتقي سلّم الرُتَب سريعًا. وقد ازداد مرتبه ليصبح ثلاثة أمثال مرتّبه الأساسي. ودخلت ابنته، التي تتبّعَ نموّها على مراحل بين سفرة وأخرى، مجال العلوم السياسيّة. وانتهى الأمر بزوجته إلى طلاقه لأنّها شعرت بأنّ حياتها غير هادفة، وباتت تعيش وحدها بعد أن وجدت ماري حبيبًا، وانتقلت لتعيش معه.

كانت أفكاره في التسويق (الذي راج في حينه كلمة ومهنة) مقبولة بمعظمها، حتّى وإن شكّك ببعضها متدرّجون يرغبون في لفت الانتباه. غير أنّه دَرَج على ذلك، وكان يقصّ أجنحة كلّ من حاول «إثبات نفسه». وتعاظمت كلّ آخر سنة علاواته التي كانت تُحتسب بناءً على أرباح الشركة. وعندما عاد عازبًا من جديد، راح يخرج إلى النوادي الراقصة أكثر، ويقابل حبيبات مثيرات للاهتمام ومهتمّات بأنفسهنّ، كانت شركة منتجات التبرّج التي يعمل لديها معروفة من الجميع، وكانت الحبيبات يُلمِحن إلى أنّهن يرغبن في الظهور في الدعايات الترويجيّة لبعض المنتجات، ولم يكن يرفض ولا يَعِد. ومرّ الوقت، ورحلت الحبيبات المهتمّات بأنفسهنّ، وأرادت الصادقات الزواج، غير أنّه كان قد خطّط لمستقبله: عشر سنوات بعد من العمل، وسوف يدخل سنّ الكهولة بكلّ قوّة، وفير المال والاحتمالات. سيطوف حول العالم ، هذه المرة باتجاه آسيا التي لم يكن يعرفها جيدًا. سوف يحاول أن يتعلّم ما تودّ ابنته، التي أصبحت صديقته المفضّلة في هذه المرحلة، أن تعلّمه إياه. حَلُما بالذهاب إلى نهر الغانج، أو هيمالايا، الأنديز وأوشويا قرب القطب الجنوبي، بعد أن يكون قد تقاعد طبعًا، وتكون هي قد تخرّجت.

إلى أنّ هزّ وجودَه حدثان.

وقع الحدث الأول في ٣ أيار ١٩٦٨. كان في مكتبه ينتظر وصول ابنته، ليقلّهما المترو ويعودا إلى المنزل. لم تصل حتّى بعد مرور أكثر من ساعة. ترك لها خبرًا لدى مكتب الاستقبال في المبنى، الذي يعمل فيه والذي يقع قرب سان سولبيس (فقد امتلكت الشركة عدّة مبانٍ، ولم يشغل قسمه مكاتب مقرّها الرئيسي الباذخة)، غادر وتهيّأ للتوجّه إلى محطّة المترو وحده.

فجأة، وعلى حين غرّة، رأى باريس تحترق. عمّ دخان أسود الفضاء، وصدحت صافرات الإطفاء من كل صوب، كان الروس أوّل ما خطر له، لقد قصفوا المدينة!

وإذا به يُقذف نحو الحائط على أيدي مجموعة فتيان يهرعون في الشارع تُكمّم أنوفهم وأفواههم أقمشة مبلّلة، يصرخون: «فلتسقط الديكتاتوريّة!» وشعارات أخرى نسيها. خلفهم ألقت قوات الشرطة المدجّجة بالأسلحة قنابل مسيلة للدموع. تعثّر بعض الفتيان وسقطوا أرضًا، وانهالت الهراوات على من تُرِك منهم.

أخذ جاك يشعر بوخز في عينيه بسبب الغاز. لم يفهم ما كان يدور، ما معنى كلّ هذا؟ أراد أن يسأل أحدهم، لكن كان الأهمّ لحظتها أن يجد ماري. أين يُحتمل أن تكون؟ حاول التوجّه نحو السوربون، غير أنّ المعارك بين قوات «النظام» وما تبيّن له أنّها مجموعة لاسلطويين خارجة من فِلم

رعب، قد سدّت الطرقات. اشتعلت إطارات سيّارات، ورُميت قوّات الشرطة بالحجارة، وتطايرت خلائط المولوتوف في كلّ صوب، وتعطّلت وسائل النقل، وتصاعد مزيد من الغاز المسيّل للدموع، وعلا مزيد من الصراخ وعويل الصافرات، واقتُلع مزيد من حجارة الأرصفة، وضُرِب مزيد من الفتيان ــ أين ابنتي؟

أين ابنتي؟

كان خطأ، ما لم يكن انتحارًا، التوجّه نحو الصراع. كان من الأفضل التوجّه نحو المنزل وانتظار أن يصله خبر من ماري، وانتظار انتهاء كلّ شيء. لا بُدّ من أنّه كان سينتهي ليلتها.

هو لم يشارك يومًا في المظاهرات الطلاّبيّة، كانت لديه أهداف أخرى في الحياة، لكن لم تدم أيّ من المظاهرات التي شهدها أكثر من بضع ساعات. لم يبق أمامه سوى أمله في ورود اتّصال من ابنته، هذا كلّ ما تضرّع به إلى الله تلك اللحظة. كان يعيشان في بلد له امتيازات كثيرة، حصل فيه الشباب على كلّ ما رغبوا فيه، وعرف فيه الراشدون أنّهم بالعمل الدؤوب سيحصلون على تقاعد جيّد بلا هموم، ويواصلون شرب أفخر النبيذ في العالم وتذَوق أفضل المأكولات في العالم، والتنزّه في أجمل المدن من دون خشية التعرّض للسلب.

ورده اتّصال ابنته نحو الثانية فجرًا. كان قد أبقى على التلفاز دائراً، وكانت المحطّتان القوميّتان تعرضان وتُحلّلان، تعرضان وتحلّلان، ما كان يجري في باريس.

ــ لا تقلق يا أبي. أنا بخير. عليّ أن أمرّر الهاتف لشخص إلى جانبي، لذا سأوضح الأمر لاحقًا.

حاول طرح سؤال لكنّها كان قد أقفلت الخط.

ظلّ ساهدًا طوال الليل. واستمرّت المظاهرات أطول ممّا توقّع. وكان المعلّقون على التلفاز متفاجئين مثله. انفجر كلّ شيء بين لحظة وأخرى، من دون أيّ إشارات تحذير. حاولوا مع ذلك الحفاظ على هدوئهم وتوضيح أمر المواجهات بين الشرطة والطلاّب، مستخدمين لغة علماء الاجتماع والسياسيين والمحلّلين وبعض أفراد الشرطة، وقلّة من الطلاّب، وسوى ذلك.

أخيرًا، غادر الأدرينالين دمه، وتهالك على الأريكة مرهقًا. عندما فتح عينيه، كان النهار قد طلع، وآن أوان الذهاب إلى العمل، غير أنّ أحدهم على التلفاز، الذي بقي دائراً طوال الليل، كان يحذّر الناس من مغادرة منازلهم، لأنّ «اللاسلطويين» احتلّوا الكليّات ومحطّات المترو، وسدّوا الشوارع وعرقلوا السير. وأضاف آخر: منتهكين الحقوق الأساسيّة لكل مواطن.

اتّصل بمقرّ عمله. لم يُجب أحد. حاول الاتصال بالمقرّ الرئيسي. أعلمه الموظّف، الذي أجاب، والذي كان يقطن في الضواحي القريبة، ولم يتمكّن من العودة إلى منزله فنام في المقرّ، أن لا جدوى من التنقّل، وأن القلائل الذي استطاعوا المجيء هم ممن يقطنون في الجوار.

اختتم الصوت المجهول بالقول: «سينتهي الأمر اليوم».

طلب جاك التحدّث إلى رئيسه. وعَلِم أنّه، مثل كثيرين سواه، لم يحضر إلى العمل.

غير أنّ الاضطراب والاشتباكات لم يهدآ كما كان متوقّعًا، بل على العكس، صُعّد الوضع عندما رأى الناس معاملة الشرطة للطلاّب.

جرى احتلال السوربون، ركن الثقافة الفرنسيّة، وأُعطي الخيار للأساتذة إما بالانضمام إلى المظاهرات وإما بالطرد. وجاء في التلفاز الذي بدأ

يتعاطف مع الطلاّب في هذه المرحلة، أنّ عدّة لجان قد شكّلت وجاءت بشتّى الأهداف التي سيُعمل بها أو سيجري استبعادها.

أقفلت المتاجر في الحيّ الذي يسكنه، ما عدا واحدًا يُديره رجل هندي. اصطفّ طابور من الناس أمام بابه. اتّخذ مكانًا له في الصف بكلّ صبر، مُستمعًا إلى تعليقات هذا وذاك: «لم تقف الحكومة مكتوفة الأيدي؟»، «لمَ ندفع كلّ هذه الضرائب في حين أنّ الشرطة تتقاعس في ظرف مماثل؟»، «كلّ هذا بسبب الحزب الشيوعي!»، «هذه نتيجة التربية التي أنشأنا عليها أولادنا: يعتقدون أن من حقّهم الثورة على كلّ ما علّمناهم إياه..»، وأمور من هذا القبيل.

الأمر الوحيد الذي عجز الجميع عن تفسيره هو سبب ما كان يجري.

مرّ اليوم الأوّل.

فالثاني.

وانتهى الأسبوع الأوّل.

والوضع يتفاقم ويزداد تأزّماً.

كانت شقة جاك تقع على هضبة صغيرة في مونمارتر، وتبعد عن مكتبه ثلاث محطات مترو. استطاع، من نافذته، أن يسمع الصافرات ويرى دخان الإطارات المشتعلة. كان يترصّد الشارع في الأسفل على أمل أن يرى ماري آتية. أتت بعد ثلاثة أيام، استحمّت بسرعة، جمعت بعض الملابس التي كانت في شقّة والدها، تناولت ما وقعت عليه يدها، وغادرت من جديد مُردّدة: «سأوضّح لاحقًا».

وما خاله حدثًا عابرًا، غضبًا مضبوطاً، انتهى بالانتشار عبر فرنسا كلّها: احتجز الموظّفون أرباب عمَلهم، وأُعلن عن إضراب عام. احتلّ العمال

بدورهم معظم المصانع، شأنهم شأن الطلّاب الذين احتلّوا الكلّيات قبل أسبوع.

شُلّت فرنسا. ولـم يعد الإشكال حكرًا على الطلّاب الذين بدا أنّهم قد حوّروا عنـدذاك تركيزهم، وراحوا يلوّحون برايات كُتب عليها «عاش الحبّ الحرّ»، «فلتسقط الرأسماليّة»، «حدود مفتوحة للجميع»، أو «البرجوازيّة لا تعي شيئًا».

الآن، بات الإشكال في الإضراب العام.

كان التلفاز وسيلته الوحيدة للحصول على المعلومات. لدهشته وهوله الكبيرين، بعد مرور عشرين يومًا جهنّميًا، ظهر رئيس الجمهورية أخيرًا مُخاطبًا مواطنيه ليُعلمهم بأنّه سيُنظّم استفتاءً شعبيًا يطرح «تحديثات ثقافيّة واجتماعيّة واقتصاديّة». وإن لم يفلح، فسوف يستقيل. كان هذا الجنرال هو شارل دو غول الذي قاوم النازيين، ووضع حدًا للحرب في الجزائر، والذي كان محطّ إعجاب الجميع.

لم تعنِ مقترحات دو غول شيئًا في نظر العمّال الذين لـم يكترثوا للحبّ الحرّ، أو الحدود المفتوحة، وهذا النوع من الأمور. انصبّت مطالبهم على أمر واحد، هو زيادة ملحوظة على الأَجْر. اجتمع رئيس الوزراء جورج بومبيدو برؤساء النقابات والتروتسكيين واللاسلطويين والاشتراكيين. وحينها فقط بدأت الأزمة تنحسر، عندما تقابل الجميع وجهًا لوجه، وجاءت كلّ مجموعة بمطالبات مختلفة. فرّق تسد، كان شعار الحكومة.

قرّر جاك المشاركة في تظاهرة دعم للجنرال دو غول. استحوذ الذعر على فرنسا برمّتها إزاء ما شاهدته. فهذه المظاهرة التي حلّت عمليًا في كلّ

مدينة جمعت حشودًا هائلة، وتراجع أولئك الذين أشعلوا الفتيل والذين لم يكفَ جاك عن مناداتهم بـ «اللاسلطويين». وُقّعت عقود عمل جديدة. والطلاّب، الذين لم يبقَ لديهم ما يطالبون به، عادوا إلى صفوفهم شيئًا فشيئًا، شاعرين بأنّ فوزهم كان واهيًا.

مع حلول نهاية أيار (أو بداية حزيران، لم يعد يذكر)، رجعت ابنته أخيرًا، قائلةً بأنهم حقّقوا كلّ ما أرادوه. لم يسألها عمّا أرادوه وهي لم تستطرد. لكنّها بدت متعبة وخائبة ومُحبطة. وبما أنّ المطاعم عاودت فتح أبوابها شيئاً فشيئاً، خرجا لتناول العشاء في ضوء الشموع، وتفاديا التحدّث في الموضوع برمّته. لم يُفصح لها جاك قط أنّه شارك في مظاهرة مؤيدة للحكومة، والجملة الوحيدة التي أخذها على محمل الجدّ من كلام ابنته كانت: «سئمت هذا المكان. سوف أسافر وأحيا بعيدًا من هنا».

في النهاية، بدّلت رأيها بذريعة أنّ عليها أولاً أن «تُنهي دراستها»، وفهم جاك أنّ من أرادوا فرنسا مزدهرة ومُنافِسة قد انتصروا: الثوّار الحقيقيّون لا يقلقون ولو مثقال ذرّة بشأن التخرّج وحيازة شهادة.

مذاك، قرأ آلافاً من الصفحات التأويليّة والتعليليّة حول الأحداث، كتبها فلاسفة ورجال سياسة ومحرّرون وصحفيون وسواهم. ذكروا أمر إقفال جامعة نانتر في بداية الشهر، لكن لم يكن ذلك سبب الغضب الذي انتابه في المرّات القليلة التي خرج فيها من منزله.

ولم يقرأ سطرًا واحدًا يُفضي به إلى الاستنتاج بأنّ: «هذا ما أطلق الأحداث».

وجاء الحدث الثاني الذي كان حاسمًا، وحوّل مساره في أحد أفخم المطاعم

الباريسيّة، حيث كان يصطحب زبائنه المميّزين، وهم مُشترون محتملون يُمثّلون مدنهم وبلادهم. كانت فرنسا قد طوت صفحة أيار ١٩٦٨، مع أنّ ألسنة ناره قد انتشرت إلى بقاع أخرى في العالم. لم يشأ أحد استحضار تلك الأحداث. وإذا تجرّأ زبون أجنبي على السؤال عنها، كان جاك يبدّل الموضوع بدبلوماسيّة، موضحاً أنّ «الصحف تضخّم الأمور على الدوام».

وكان الحديث ينتهي عندها.

كان جاك على صداقة جيّدة بمالك المطعم الذي كان يناديه باسمه الأول، الأمر الذي كان يولّد انطباعًا جيدًا لدى زبائنه. كان هذا جزءًا من المخطّط. ما إن كان يدخل برفقة زبائنه حتّى يقترب النُدُل ليُرشدوهم إلى «طاولته» (التي كانت تتغيَّر في كلّ مرّة وفق اكتظاظ المطعم، لكنّ مدعوّيه لم يكونوا على علم بذلك). كانت الشمبانيا تُقدّم إلى كلّ منهم على الفور، وكذلك قوائم الطعام، وتدُوّن طلباتهم، من دون نسيان النبيذ الباهظ (يسأل النادل: «النوع المعتاد، سيدي، أليس كذلك؟» ويومىء جاك برأسه موافقاً). كانت الأحاديث هي هي دومًا (فأيّ عرض يُشاهدون: «الليدو» أو «كاريزي هورس» أو «مولان روج». كان أمرًا لا يُصدّق كيف كانت باريس تُختصر في ثلاث وجهات في أذهان الأجانب). لم يكن العمل جزءًا من الحديث خلال وجبة عمل، إلاّ في النهاية، بعد أن يقُدّم سيجار كوبي ممتاز إلى كلٍ منهم، حيث يُنجز التفاصيل الأخيرة أشخاص عدّوا أنفسهم بالغي الأهميّة، في حين أن قسم المبيعات يكون هو في الحقيقة من يُهيّىء لكل شيء، ولا يبقى سوى تواقيعهم، التي كان جاك يحصل عليها دومًا.

هذه المرّة، بعد أن دوّنت طلباتهم، التفت إليه النادل وقال:

ـ المعتاد؟

كان المعتاد طبق المحار في قائمة المقبّلات. كان يُحدّد دومًا أن تُقدّم حيّة، الأمر الذي كان يروّع زبائنه، الأجانب بمعظمهم. من حيث المبدأ، كان مخطّطه يقضي بطلب الحلازين بعد ذلك، تليها أفخاذ الضفادع.

لم يجرؤ أحد أن يحذو حذوه، وكان هذا هدفه: كان هذا جزءًا من التسويق.

قُدّمت المقبّلات كلّها في الوقت نفسه. وصل المحار، وارتقب الجميع الخطوة التالية. عصر بعض الحامض على صَدَفة المحار الأولى، التي تحرّكت قليلاً، وقد أدهشت ضيوفه وروّعتهم. ألقى لُبّها في فمه، وتركه ينزلق إلى معدته مستلذًا بالماء المالح الذي ركد في الصَدَفة.

بعد ثانيتين، انقطع نفسه. حاول جاهدًا أن يُحافظ على رباطة جأشه، لكن استحال عليه ذلك. سقط أرضًا متأكّدًا أنّه يموت، وعيناه مسمّرتان على الثريّات الكريستاليّة المتدلّية من السقف، والآتية بلا شكّ من تشيكوسلوفاكيا مباشرةً.

أخذ بصره يتبدّل، لم يعد يرى سوى الأسود والأحمر. حاول الجلوس. سبق له أن تناول عشرات المحارات، بل المئات في حياته. لكنّ جسمه لم يعد يُذعن له. حاول مدّ رئتيه بالهواء، لكن عبثاً. رفض الهواء النفاذ إليهما.

عرف جاك لحظة قلق، ومات.

فجأةً، راح يطوف على مستوى سقف المطعم ينظر إلى لفيف الناس الذين تحلّقوا حول جسده. حاول آخرون ترك مساحة لوصول المساعدة، فيما هرع النادل المغربي إلى المطبخ. لم تكن الرؤية واضحة تمامًا، كما لو أنّ غشاءً شفّافًا قام بينه وبين المشهد أسفل، أو ستاراً من الماء الجاري. لم

يشعر بأيّ خوف أو أيّ شيء. عمّ سلام عميق كلّ ما حوله، وتسارع الزمن الذي كان لا يزال قائمًا. بدا الناس أسفل يتحرّكون ببطء أو بالأحرى كما لو أنّهم في مخطّط فوتوغرافي. عاد النادل من المطبخ واختفت الرسوم، لم يبقَ سوى الفراغ الكلّي، الأبيض، والسكينة شبه المحسوسة. وخلافًا لما رواه كثيرون ممّن مرّوا بهذه التجربة، لم يرَ أيّ نفق أسود؛ أحسّ أنّ طاقة حبّ طوّقته، حبّ لم يختبره منذ زمن طويل، كما لو أنّه عاد إلى رحم أمّه. وليس بودّه الخروج منه قطّ.

فجأةً، شعر بيدٍ تجذبه وتشدّه إلى أسفل. لم يشأ الذهاب، كان أخيرًا يستمتع بالأشياء التي حارب من أجلها، والتي انتظرها طوال حياته: السلام، الحب، الموسيقا، الحب، السلام. غير أنّ قوة الذراع التي سحبته إلى الأرض كانت شديدة إلى درجة عجز عن مقاومتها.

كان وجه مالك المطعم أوّل ما رآه عندما فتح عينيه. اختلط على محيّاه القلق والانشراح. كان نبض قلبه يخفق بسرعة شديدة، أحسّ بالغثيان وكأنه سوف يتقيّأ، لكنّه ضبط نفسه. وإذ رأى أحد النُدُل أنّه كان يتصبّب عرقًا باردًا، أحضر شرشف طاولة وغطّاه به.

سأله المالك: ـ أين وجدت مسحوق الأساس الشاحب هذا وأحمر الشفاه الأزرق الجميل؟

كذلك بدا الارتياح والهول على ضيوفه الذين تربّعوا على الأرض إلى جانبه. حاول النهوض غير أنّ مالك المطعم منعه.

ـ استرح. ليست المرّة الأولى التي يحدث فيها هذا هنا، وأتصوّر أنّها لن تكون الأخيرة. لهذا السبب نحن مجبرون على التزوّد بحقيبة إسعافات أوّلية، بضمّادات، ومعقّم، وجهاز وقف الرجفان في حال النوبة القلبية، ولحسن

الحظ بالأدرينالين الذي حقنّاك به من فورنا. ألديك رقم هاتف شخص قريب؟ لم تعد في خطر البتّة، لكنّنا طلبنا سيّارة إسعاف. سوف يطرحون عليك السؤال نفسه. لكن إذا لم يكن لديك أحد، أقترح أن يرافقك واحد من ضيوفك.

ـ «أكان المحار السبب؟». كانت تلك العبارة أوّل ما نطق به.

ـ بالطبع لا، منتجاتنا بأعلى جودة. لكن ما أدرانا ما تتناوله هذه الكائنات؟ من الواضح أنّ صديقنا المحاري الصغير استغلّ مرضك، وقرّر أن يُسمّمك بدل أن يقوم بصنع لؤلؤة.

ما كان ذلك إذن؟

في هذه اللحظة وصل المُسعفون، وحاولوا أن يُمدّدوه على حمّالة، اعترض، قائلاً إنّه بخير. أراد أن يُصدّق نفسه، وقف وإن بعناء، غير أنّ المُسعفين مدّدوه ثانيّة، على الحمّالة هذه المرّة. قرّر ألاّ يُجادلهم أو يتفوّه بأيّ شيء. عندما سألوه عن رقم قريب له، زوّدهم برقم ابنته، الأمر الذي كان مُطَمْئنًا، إذ كان دليلاً على صفاء ذهنه.

قاس المسعفون ضغطه، طلبوا إليه أن يتقفّى بعينيه شعاعًا مُضيئًا، وأن يضع إحدى أصابع يده اليمنى على أرنبة أنفه. انصاع لكلّ أمر، كان يستميت للمغادرة. لم يكن في حاجة إلى الاستشفاء، وإن كان يدفع ما يُعادل ثروة من الضرائب والاشتراكات للاستفادة من خدمة صحيّة ممتازة ومجانيّة.

ـ يرجح أن نُبقيك الليلة لمراقبتك». قالوا ذلك وهم يتوجهون إلى سيّارة الإسعاف التي ركنت عند الباب، حيث استرق النظر أشخاص، تسعدهم على الدوام رؤية من هو أسوأ اعتلالاً منهم. فالاعتلال البشري لا حدود له.

بينما كانت سيّارة الإسعاف التي لم تُطلق صافرتها (وهي إشارة جيّدة) تنطلق إلى المستشفى، سأل إن كان المحار هو السبب. أكّد المسعف أقوال مالك المطعم. لا. لو كان تسمّمًا بالمحار، لاستغرق وقتًا أطول، ساعات حتّى، ليفعل فعله. مكتبة *الرمحي أحمد*

ـ إذن ما كان السبب؟

ـ إنّها حساسيّة.

طلب إليه أن يتوسّع في التوضيح. قال مالك المطعم لا بُدّ من أنّها مادّة امتصّها المحار، وأكّد المسعف ذلك أيضًا. لم يعرف أحد كيفيّة حدوث ردّ فعل مماثل ووقته، لكنّهم عرفوا كيف يداوونه. قال المسعف إنّ اسمها «صدمة تأقيّة». وأوضح مسعف آخر، من دون أن يثير خوفه، أنّ الحساسيّة قد تحدث بلا إنذار. «مثلاً، قد تتناول الرمّان منذ صغرك، ولكن ذات يوم، قد تقتلك الرمانة في غضون دقائق لأسباب لا يسعنا تفسيرها. وقد تقضي سنوات تعتني بحديقتك، والأعشاب لا تزال على حالها، وغبار الطّلع لا يزال على حاله. وذات يوم، ينتابك سعال، وتحسّ بوجع في الحلق، ثمّ في الرقبة، تخال أنّك أصبت بالزكام، وأنّ عليك الدخول، لكنك فجأة تعجز عن المشي. فالوجع ليس في الحلق، بل الحالة تضيُّق في القصبة الهوائيّة. ويكون الأوان قد فات. ويحدث ذلك من جرّاء أمور نكون قد تحسّسناها طوال حياتنا.»

ـ تكون الحشرات خطرة أيضًا، لكنّنا لن نقضي حياتنا ونحن نخشى النحل، أليس كذلك؟

ـ لا تخف. الحساسيّة تُهاجم كلّ الأعمار وهي ليست خطيرة. الخطير هو الصدمة التأقيّة التي تعرّضت لها. أما الباقي فأنف يسيل وطفح جلدي أحمر وحكاك وما يشبه ذلك».

لدى وصولهم إلى المستشفى، كانت ابنته في انتظاره. عرفت أنّه تعرّض لصدمة حساسيّة ربما كانت قاتلة لو لـم يُسعَف في الوقت المناسب، رغم ندرة ذلك. سبق لماري أن زوّدتهم برقم الضمان الاجتماعي العائد إلى والدها، وأُدخل بالتالي غرفة خاصّة من دون الاضطرار إلى المكوث في غرفة عادية.

بدّل ملابسه. ونسيت ماري، لمغادرتها على عجل، أن تُحضر له ملابس النوم، فارتدى اللباس الذي توفّره المستشفى. دخل الطبيب، قاس نبضه الذي رجع إلى طبيعته. كان ضغطه لا يزال مرتفعًا قليلاً، غير أنّه عزا ذلك إلى التوتّر الذي انتابه منذ ثلث ساعة. طلب إلى ماريا ألاّ تتأخّر في البقاء، وأنّ والدها سيكون في المنزل غداً.

سحبت ماري كرسيًا قرب السرير، وأمسكت بيدي والدها، وفجأة، راح جاك يبكي. في البداية، لم تكن سوى دموع صامتة، لكنّها سرعان ما تحوّلت إلى نحيب أخذ يشتدّ. عرف أنّه كان في حاجة أن يُطلق العنان لنفسه. كان في أمسّ الحاجة إليه حتى أنّه لم يحاول تمالك نفسه. انهالت الدموع، واكتفت ماري بمداعبة يديه بعطف، وقد ارتاعت قليلاً. كانت المرّة الأولى التي ترى فيها والدها يبكي.

لم يدرِ كم من الوقت بكى. هدأ تدريجًا، كما لو أنّ حملاً أُسقط عن كاهله، عن صدره، من رأسه، من حياته. فكّرت ماري أن من الأفضل أن تدعه ينام، فبدأت تسحب يدها، لكنّه شدّ عليها.

ـ لا تذهبي، عليّ أن أخبرك أمرًا.

أسندت رأسها إلى حضنه، كما كانت تفعل وهي صغيرة تصغي إلى حكاياته. مرّر أصابعه على شعرها.

ـ أنت تعرف أنّك بخير، وأنك تستطيع الذهاب إلى العمل غداً، أليس كذلك؟

نعم، عرف ذلك. وفي الغد سيذهب إلى العمل، ولن يقصد المبنى حيث يقع مكتبه، بل المقرّ الرئيسي. كان المدير الحالي، الذي ارتقى سلّم الشركة إلى جانبه، قد أرسل بطلبه.

ـ أريد أن أخبرك أمرًا. توقّفت لبضع لحظات، أو بضع دقائق، أو أبديّة، لا يسعني تحديد الزمن، لأنّ كلّ شيء جرى ببطء. وفجأة وجدتني مُحاطًا بطاقة حبّ لم أختبرها يومًا. أحسستُ كما لو كنت...في حضرة...

راح صوته يرتعش، كمن يحبس دمعه، لكنّه تابع.

ـ كما لو كنت في حضرة الله، الذي لم أؤمن به قط كما تعلمين. سجّلتك في مدرسة خاصّة لمجرّد أنّها كانت قريبة من المنزل والتعليم فيها ممتازًا. لكنّني كنت ملزمًا حضور المراسم الدينيّة التي أضجرتني حتّى الموت، التي افتخرت بها والدتك والتي جعلت رفاقك وأهاليهم يحسبونني واحدًا منهم. في الواقع، لم يكن ذلك سوى تضحيّة من أجلك.

واصل مداعبة شعر ابنته. لم يخطر له يومًا أن يسألها إن كانت تؤمن بالله، فلم يكن الوقت ملائمًا للسؤال. بحسب ما يرى، لم تعد تتبع المبادىء الكاثوليكيّة الصارمة التي نشأت عليها. راحت ترتدي ملابس غريبة، وتخالط أصدقاء بشعور طويلة، وتستمع إلى أغنيات ليست لداليدا وإديث بياف.

ـ لطالما أجدتُ تخطيط كلّ شيء، وعرفتُ كيفيّة تنفيذ خططي. وبحسب أجاندتي، فإنني سأتقاعد قريباً وبحوزتي ما يكفي من المال لفعل ما أشاء. لكن تغيّر كلّ هذا خلال تلك الدقائق، أو الثواني أو السنوات التي أمسك فيها الله بيدي. ما إن عُدت إلى أرض المطعم، ورأيتُ وجه مالكه الذي ادّعى الهدوء، فهمتُ أنّني لم يعد بمقدوري أن أعيش حياتي كما كانت.

ـ لكنك تحبّ عملك.

ـ أحببته إلى درجة انّني كنت الأفضل أداءً. لكن الآن، أريد أن أودّع هذا العمل المحمّل بالذكريات الحارّة. أودّ لو تُسديني خدمة في الغد.

ـ لك أيّ شيء. لطالما علّمتني الأمور فعلاً لا قولاً.

ـ هذا بالضبط ما أريده منك. علّمتك الكثير من الأمور لسنوات، والآن أريدك أن تعلّميني. أودّ أن أجوب العالم برفقتك، أن أرى أمورًا لم تسبق لي رؤيتها، أن أوليَ الليل والصباح مزيدًا من الانتباه. استقيلي من عملك ورافقيني. آمل أن يُجاريني حبيبك قليلاً، أن ينتظر عودتك بصبر، وأن يسمح لك بمرافقتي. أحتاج إلى الغوص جسدًا وروحًا في أنهر مجهولة، أن أتذوّق مشروبات جديدة، أن أشاهد عن قرب الجبال التي لم أشاهدها سوى على التلفاز، أن أسمح للحب الذي عشته أمس أن يعود، ولو لدقيقة كلّ سنة. أريدك أن تكوني مُرشدتي إلى عالمك. لن أكون حِملاً، ومتى شعرتِ أن عليّ الابتعاد، يكفي أن تقوليها ولأبتعد. ومتى شعرتِ أن وقت العودة مناسب، سأعود وسنخطو خطوة أخرى معًا. سأقولها مجددًا: أريدك أن تكوني مُرشدتي.

لم تُحرّك ماري ساكنًا. فوالدها لم يرجع إلى عالم الأحياء فحسب، بل اكتشف بابًا أو نافذة مفتوحة على عالمه، الذي لم تجرؤ قط على مشاطرته إياه.

كانا كلاهما متعطّشين للانهاية. وكان من السهل أن يرويا هذا العطش، فحسبهما أن تتجلّى اللانهاية لهما. لهذا، لم يحتاجا إلى مكان خاص لذلك، سوى جسديهما وإيمانهما، وقوّة بلا شكل تخترق كلّ شيء، وتحمل في الذات ما يسمّيه الخيميائيّون Anima Mundi.

وصل جاك إلى مقدّمة السوق الذي أمّته النساء أكثر من الرجال، والأولاد أكثر من الراشدين، أمّه قلّة من ذوي الشوارب مقابل الكثير من ذوات الأحجبة. ومن حيث وقف، استطاع أن يشتمّ عبقاً قويّاً، خليط عطور امتزجت لترتقي إلى السموات وتعاود النزول إلى الأرض، حاملة معها، ومع المطر المدرار، بركةً وقوس قزح.

وجد باولو أنّ نبرة كارلا قد لانت عندما التقيا من جديد في الغرفة لتبديل ملابسهما وارتداء ما غسلاه أمس، استعدادًا لوجبة العشاء.

ـ أين انتهى بك الأمر اليوم؟

كانت المرّة الأولى التي تطرح فيها عليه هذا السؤال. بمفهومه، كان هذا سؤالاً من الأسئلة، يمكن لوالدته أن تطرحه على والده، سؤالًا يتبادل طرحه الأزواج الراشدون. لم يرغب في الردّ، وهي لم تصرّ.

قالت، وقد راحت تضحك: أراهن أنّك ذهبت إلى البازار للبحث عنّي!

ـ توجّهت إليه في البداية، لكنّني سرعان ما بدّلت رأيي، وعدتُ إلى حيث كنت.

ـ لديّ اقتراح لك لن تتمكّن من رفضه: ما رأيك أن نتعشّى في آسيا؟

لم يستدع الأمر عرّافًا ليفهم قولها: أرادت عبور الجسر الذي يصل بين القارّتين. لكن، ما دام الباص السحري سيقوم بذلك لاحقًا، فلمَ العجلة إذن؟

ـ لأنّني يومًا ما سأتمكّن من إخبار الناس بما لن يصدّقوه: أنّني تناولت القهوة في أوروبا، وأنّني بعد ثلث ساعة دخلت مطعمًا في آسيا، وأنا جاهزة لتذوّق كلّ ما لدى هذه القارّة من ملذّات.

كانت فكرة جيدّة. سيتمكّن هو أيضًا من إخبار أصدقائه بالأمر

نفسه. لن يصدّقه أحد كذلك، سوف يظنّون أنّ المخدّرات قد أثّرت في عقله، لكن ما الهمّ؟ كان ثمّة مخدِّر فعلاً، أخذ يُعطي مفعوله ببطء، منذ عصر اليوم، بلقاء الرجل الذي وجده في مركز التصوّف الفارغ، بجدرانه المطليّة بالأخضر.

لا بُدّ من أنّ كارلا قد اشترت مستحضرات تجميل من البازار، لأنّها خرجت من الحمّام وقد علا ظلّ العيون جفنيها، وأطالت المسكرة أهدابها. لم يسبق أن رآها هكذا من قبل. وتوشّحت بابتسامة أيضًا، لم يسبق أن لاحظها عليها من قبل كذلك. فكّر باولو في أن يحلق السكسوكة التي أطالها منذ زمن طويل وأخفت نتوء ذقنه. لكنّه كان يحلق عمومًا متى أتيح له، وحين لا يتاح ذلك، ترجع إليه ذكريات رهيبة، من الأيام التي قضاها في السجن. المشكلة أنّه لم يفكّر في شراء أشفار حلاقة ذوات الاستخدام الواحد، وكان قد رمى بآخرها قبل دخول يوغوسلافيا. ارتدى بلوزة قطنيّة ذات أكمام اشتراها في بوليفيا، وسترة الجينز التي علّق عليها النجوم، وهبطا معاً.

لم يكن في الردهة أيّ من أفراد المجموعة، باستثناء السائق الذي كان يُلهي نفسه بقراءة الصحيفة. سألاه كيف يستطيعان عبور الجسر إلى آسيا. ابتسم السائق.

ـ فعلتُ الأمر نفسه في زيارتي الأولى إلى هنا.

أشار إليهما كيف يركبان الباص («لا تفكّرا في عبور الجسر مشيًا»)، واعتذر لنسيانه اسم المطعم الممتاز الذي تناول فيه الغداء ذات مرّة عند الضفّة الأخرى من البوسفور.

في الواقع، لم يكونا متّجهين إلى آسيا، بل إلى القسطنطينيّة سابقًا.

كان السائق قد تعرّض لهذه الفكاهة من أشخاص آخرين، وهو الآن يُكرّرها مع الثنائي الشاب. كانت الأوهام المستحبّة مرغوبة على الدوام.

سألت كارلا، وهي تشير إلى الجريدة: «ما أخبار العالم؟». بدا السائق هو أيضًا مندهشًا لرؤيتها متبرّجة وباسمة. ثمّة شيء ما تغيّر فيها.

ـ هدأت الأمور في الأسبوع الفائت. وبخصوص الفلسطينيين الذين، تفيد الصحيفة أنهم يُشكّلون أغلبية ويحضّرون لانقلاب، فسوف يُعرف مصيرهم وإلى وقت طويل باسم «أيلول الأسود». هكذا يُسمّونه. عدا ذلك، فإن طرقات السفر سالكة، مع أنّني هاتفت المكتب الذي اقترح أن أنتظر ريثما تصلني التعليمات.

ـ حسناً، لسنا على عجلة. في اسطنبول عالم كامل جدير بالاكتشاف.

ـ الأناضول أيضًا جديرة بالزيارة.

ـ نعم، لكن لكلّ شيء حكمه.

وبينما كانا يتوجّهان إلى موقف الباصات، أدرك باولو أنّ كارلا تُمسك بيده، كما لو كانا في وضع لم يكونا عليه: لم يكونا حبيبين. تحادثا في أمور عاديّة. كان القمر بدرًا جميلاً تلك الليلة، والهواء نسائم، والطقس صافيًا بلا مطر: كان الطقس مثاليًا لتناول العشاء.

قالت كارلا: ـ أنا من سيدفع اليوم، أشعر برغبة جامحة في تناول مشروب ما.

ركبا الباص، واجتازا البوسفور بصمت وقور، كما لو أنّهما يختبران تجربة دينيّة. ترجّلا عند المحطّة الأولى، ومشيا بمحاذاة الضفّة الآسيويّة، حيث قامت خمسة مطاعم أو ستّة، بطاولات افترشتها أغطيّة من النايلون.

جلسا في المطعم الأوّل الذي بلغاه، وتأمّلا المنظر الذي أطّل عليهما: لم تكن المعالم الأثريّة في اسطنبول مُنارة، بعكس العالم في أوروبا، غير أنّ القمر تكفّل بإلقاء أجمل ما رآياه من أنوار على المدينة.

دنا منهما نادل لأخذ طلبهما. فأوكلاه أن يختار عنهما أفضل الأطباق وأكثرها تقليدية. من الواضح أنّ النادل لم يتعوّد هذا النمط من الطلبات.

ـ لكن أحتاج إلى معرفة ما تريدانه. هنا، يعرف الجميع مبدئيًا ما يريدونه.

يريد الأفضل، ألا تفي هذه الإجابة؟

بالطبع. لم يُصرّ النادل وبدل أن يصرّ، تقبَّل واقع أنّ هذا الثنائي الأجنبي يضع فيه ثقته. ألقى ذلك بمسؤوليّة كبيرة عليه، ومدّه في آن بفرح عظيم.

ـ وماذا تودّان أن تشربا؟

ـ أفضل أنواع النبيذ المحلّي. لا نريد أيّ شيء من أوروبا، فنحن في آسيا!

كانا فعلاً يتناولان العشاء في آسيا، معًا، وللمرّة الأولى في حياتهما!

ـ للأسف لا نقدّم الكحول هنا. إنّها الأنظمة الدينيّة الصارمة.

ـ لكنّ تركيا بلد علماني، أليس كذلك؟

ـ «بالطبع. لكنّ مالك المطعم متديّن». وإن أرادا شرب الكحول، فهناك مطعم آخر، على بعد أمتار. يستطيعان أن يحتسيا النبيذ على بعد أمتار، لكن كانا ليضيعا فرصة تأمّل المنظر المذهل لاسطنبول تحت ضوء القمر. وسألت كارلا نفسها إن كانت ستتمكّن من قول كلّ ما تريد قوله من دون أن تشرب. أما باولو، فلم يخامره ولو ذرّة شك، أنه سيتخلّى طوعًا عن النبيذ.

أحضر النادل شمعةً حمراء في قنديل حديدي، وأضاءها في وسط الطاولة. راقبا كلَ ذلك بصمت. تشبّعا من الجمال المحيط بهما، وسكرا به.

ـ كنّا نتكلّم عن يومنا. قلتَ إنّك توجّهت أولاً إلى البازار لتبحث عنّي؛ لكنّك بدّلت رأيك. حسنًا فعلت، لم أكن هناك. سنذهب معًا في الغد.

كانت كارلا تتصرّف عكس عادتها، بدت رقيقة بوضوح، وهي صفة لم تتّصف بها إجمالاً. لعلّها التقت أحدًا ما وأرادت أن تخبر عن تجربتها.

ـ ابدأ أنت. غادرتَ قائلاً إنّك تبحث عن مكان فيه مراسم دينيّة. أوجدته؟

ـ لم أجد ما كنت أبحث عنه بالضبط، لكنّني وجدتُ شيئًا آخر.

قال الرجل الذي لا اسم له عندما رأى الشاب بثيابه الزاهية الألوان يعبر الباب: ـ أفترض أنّك اختبرتَ تجربة قويّة لكون هذا المكان مشبَعًا بطاقة الدراويش الدوّارين. مع ذلك، لا بُدّ من أن أشدّد على أنّ الله حاضر في كلّ مكان من الأرض، في أصغر الأشياء: الحشرات، ذرّة رمل، كلّ شيء.

ـ أُريد تعلّم التصوّف. أحتاج إلى معلّم.

ـ ابحث عن الحقّ إذن. ابحث عن مرافقته في كلّ آن، حتّى حين يؤلمك، حتّى وإن طال صمته، أو لم يقل لك ما تريد سماعه. هذا هو التصوّف. والباقي شعائر مقدّسة تُجدي فقط في تعظيم النشوة الروحيّة. لكن، لتشارك فيها، عليك أن تعتنق الإسلام، وهو أمر لا أنصحك بفعله صراحةً، فليس من الضروري أن تعتنق دينًا لمجرّد اتّباع شعائره.

لكنّني أحتاج إلى من يرشدني على الدرب المؤدّي إلى الحقّ.

ـ التصوّف لا يقوم على ذلك. وُضعت آلاف الكتب حول الدرب المؤدّي إلى الحقّ، ولا يشرح أيٌّ منها ماهيّته بالضبط. باسم الحقّ، ارتكب البشر من الجرائم أفظعها. حُرِقَ رجالٌ ونسوة أحياء، ودُمّرت حضارات بأكملها. نُبذ من ارتكبوا خطايا الجسد، وهُمّش من اتّبعوا دربًا مختلفة. حتّى أن واحدهم صُلِب باسم الحقّ. لكن قبل مماته، ترك لنا التعريف الأكبر للحقّ: ليس الحقّ ما يزوّدنا باليقين، ولا الحقّ ما يعطينا الفكر البليغ، ولا الحقّ ما يجعلنا أفضل من غيرنا، وما يجعلنا أسرى أحكامنا المُسبقة. الحقّ يحرّرنا. قال يسوع: «وَسَتَعْرِفُونَ الحَقَّ، وَالحَقُّ سَيُحَرِّرُكُمْ».

صمت الرجل لبرهة.

ـ ليس التصوّف سوى تحديث للذات، تحويل للذهن، قدرة على فهم أنّ الكلمات تعجز عن وصف «المطلق»، «الأزل».

قُدّم الطعام. أدركت كارلا تمامًا ما عناه باولو، وجلّ ما كانت ستقوله له عندما يحين دورها، سيكون مُستندًا إلى كلامه.

سألت: هلاّ أكلنا بصمت؟ مرّة أخرى، وجد باولو سلوكها غير اعتيادي. في العادة، كانت تردّد تلك الكلمات بنبرة بتعجّب.

نعم، أكلا بصمت، مُحدّقين إلى السماء والبدر ومياه البوسفور التي لمعت من شعاعاته؛ بوجهين أنارتهما شعلة الشمعة؛ بقلبين فاضا بذاك الإحساس الذي يتفجّر متى التقى غريبان ودخلا معًا فجأةً بُعدًا آخر. كلّما سمحنا لنفسنا أن نتلقى العالم، تلقّينا أكثر، أكان حبًا أو كراهية.

لكن في هذه اللحظة، لـم يكن من حبّ ولا كراهية. لـم يكن باولو يبحث عن أيّ تجلّيات، ولم يُجلّ أيّ تقليد، وغاب عنه كلّ ما جاء في النصوص المقدّسة، والمنطق، والفلسفة وكلّ شيء.

كان قد دخل حالة من الفراغ التامّ. وهذا الفراغ، بتناقضه المتأصّل فيه، عـمّ كلّ شيء.

لـم يسألا عـمّا قُدّم إليهما. كان ما قُدّم كميّات صغيرة متعدّدة في أطباق كثيرة. لـم يتشجّعا على شرب الماء، فطلبا الصودا، كانت أقلّ تشهّياً، لكن أضمن.

تجرّأ باولو على النطق بالسؤال الذي تحرّق إلى طرحه، السؤال الذي بمقدوره أن يُفسد السهرة، لكنّه لم يتمكّن من تمالك نفسه أكثر.

ـ أنتِ مختلفة كليًا الليلة. هل التقيت رجلاً وأُغرمت به؟ لستِ مُضطرّة إلى الإجابة إن كنت لا تريدين ذلك.

ـ التقيتُ رجلاً وأُغرمتُ به، لكنّه لا يعرف ذلك.

ـ أهذا ما حدث اليوم؟ أهذا ما أردت أن تُخبريني به؟

ـ نعم، عندما تنتهي أنت من إخباري بقصّتك، أم أنّها انتهت؟

ـ لا، لكن عليّ أن أبلغ النهاية، لأنّني لم أختبرها بعد.

ـ أودّ الاستماع إلى الباقي.

لم تحمل إجابتها عن سؤاله أيّ غضب، وحاول التركيز في طعامه. إذ لا يروق للرجال أن يسمعوا أمورًا مماثلة، خصوصًا من المرأة التي يتناولون العشاء معها. كان لا يزال يريدها أن تكون حاضرة معه بكلّيتها، أن تركّز في اللحظة، في عشائهما على ضوء الشمعة، والقمر الذي ألقى بنوره على النهر والمدينة.

أخذ يتذوّق القليل من كلّ طبق: معجّنات محشوّة باللحم تشبه الرافيولي، لفافات من ورق العنب المحشوّة بالأرزّ، اللبن الزبادي، الخبز غير المخمّر الساخن، الفاصوليا، أسياخ اللحم، أنواع من البيتزا لها شكل الزوارق محشوّة بالزيتون والتوابل. سيدوم هذا العشاء دهراً! مع ذلك، ولدهشتهما الكبيرة، مُسِحت كلّ الأطباق كما لو بسحر ساحر: كانت لذيذة إلى درجة أنّهما لم يريدا تركها تبرد وتفقد نكهتها.

رجع النادل، رفع الأطباق البلاستيكيّة، وسأل إن كان في وسعه تقديم الطبق الرئيسي.

ـ يستحيل! لقد أُتخمنا!

ـ لكنّه قيد التحضير، لـم يعد في وسعنا التوقّف الآن.

ـ سوف نسدّد ثمنه بكل سرور، لكن أرجوك، لا تحضر أيّ شي بعد، وإلاّ سنعجز عن المشي لاحقًا.

ضحك النادل، وضحكا. هبّت رياح غريبة، جلبت معها أمورًا غير متوقّعة، وملأت كلّ ما أحاط بهما بنكهات وألوان غير مألوفة.

لـم يكن الطعام السبب، ولا القمر، ولا البوسفور، ولا الجسر: بل اليوم الذي اختبراه كلاهما.

سألت كارلا، وهي تُشعل لُفافتي سجائر مدّت بإحداهما إليه: ـ هل ستُخبرني بالباقي؟ أستميت لأخبرك عن يومي ولقائي بذاتي.

يبدو أنّها التقت توأم روحها. في الحقيقة، لـم يعد باولو مهتمًا البتّة بسماع قصّته هو، لكنّها طلبت إليه أن يسردها لها، وسوف يسردها حتّى النهاية.

استحضر باولو وجوده في القاعة الخضراء بأعمدتها ذات الطلاء المتقشّر، والنوافذ المتكسّرة التي لا بُدّ من أنّها كانت يومًا عملاً فنيًا حقًا. كانت الشمس قد غابت وغرقت القاعة في الظلمة. وكان الوقت قد حان للعودة إلى الفندق، غير أن باولو أصرّ على استجواب الرجل الذي ليس له اسم.

ـ لكن، لا بُدّ من أنّك، سيدي، حظيتَ بمعلِّم.

ـ كان لي ثلاثة، لم يكن أيٌّ منهم على صلة بالإسلام، ولم يعرفوا أشعار الرومي. في خلال تعلّمي، سأل قلبي الربّ: «هل أنا على الدرب القويم؟»، أجاب: «نعم». أردت معرفة المزيد: «ومن أنتم؟». أجاب: «أنت».

ـ من كان معلّموك الثلاثة؟

ابتسم الرجل، أشعل النرجيلة الزرقاء الماثلة إلى جانبه. أخذ منها بضعة أنفاس، عرضها على باولو الذي فعل مثله، وجلس على الأرض.

ـ كان الأول لصًا. ذات مرّة تهت في الصحراء وبلغتُ منزلي في وقت متأخّر جدًّا من الليل. كنتُ قد تركت مفتاحي لدى جاري، لكن لم أُرد إيقاظه في تلك الساعة. أخيرًا، وجدتُ رجلاً، طلبتُ إليه أن يساعدني، وفتح القفل برمشة عين. أُعجبت جدًّا بما فعل، ورجوته أن يُعلّمني فنّه. اعترف لي أنّه صرف حياته يسرق الناس. لكنّني كنت ممتنًا له إلى درجة أنّني

دعوته إلى المبيت عندي ليلتها. مكث شهرًا في بيتي. كلّ ليلة، كان يخرج قائلاً: «سأذهب إلى العمل، واصل تأمّلك، واحرص أن تصلّي». وحين يعود، كنت أسأله على الدوام إن كان قد جنى شيئًا، وكان يُجيبني الإجابة نفسها: «ليس الليلة. لكن إن شاء الله، سأحاول في الغد». كان رجلاً سعيدًا. لم أره يومًا يائسًا من الإخفاق. صرفت جزءًا كبيرًا من حياتي للتواصل مع الله ولم أفلح، كنت أتأمّل وأتأمّل ولم يحدث شيء. فكنت أتذكّر كلمات اللص: «ليس الليلة. لكن إن شاء الله، سأحاول في الغد». غرفت منه قوّتي لأستمرّ.

ومن كان الشخص الثاني؟

ـ كان كلبًا. كنت متّجهًا إلى النهر لأشرب، وإذا بالكلب يظهر. كان عطشانًا هو أيضًا، لكن، عندما دنا من النهر، رأى كلبًا آخر، لم يكن سوى طيفه. ارتاع وتراجع ونبح، وفعل كلّ ما في وسعه ليتحرّر من الكلب الآخر. لم يحدث شيء طبعًا. أخيرًا، اشتدّ عطشه إلى درجة أنّه قرّر مواجهة الوضع، وارتمى في النهر، عندها، اختفى الطيف.

صمت الرجل الذي ليس له اسم برهة ثمّ تابع.

ـ أخيرًا، كان معلمي الثالث ولداً. كان يتّجه إلى المسجد القريب من القرية التي سكنها حاملاً في يده شمعة مضاءة. سألته: «أأنت من أضاء الشمعة؟». أجاب «نعم». لكن بما أنّني كنت أخشى أن يلعب الأولاد بالنار، سألته مجددًا: «يا صبي، في لحظة من اللحظات لم تكن هذه الشمعة مضاءة. فهل تخبرني من أين جاءت الشعلة الملتهبة الآن؟». ضحك الصبي، أطفأ الشمعة، وسألني من ثمّ: «وأنت، سيدي، هل تخبرني أين اختفت الشعلة؟». عندها فهمتُ كم كنت غبيًا. فمن ذا الذي يُشعل نار الحكمة؟ أين

تختفي؟ فهمتُ أنّ الإنسان، على مثال تلك الشمعة، يحمل في قلبه الشعلة المقدّسة في لحظات معيّنة، لكنّه يجهل من أين جاءت. مذاك، رُحت أنتبّه لكل ما يحيط بي: للسُّحُب والشجر والأنهر والغابات، والرجال والنساء. كلّ شيء من الأشياء زوّدني بالمعرفة التي احتجتُ إليها لحظة حاجتي إليها. كان لي آلاف المعلّمين طوال حياتي. رحتُ أؤمن أنّ الشعلة ستُنير دربي متى كنتُ في أمسّ الحاجة إليها. كنت تلميذ الحياة ولا أزال. واستطعتُ أن أتعلّم من أبسط الأمور وأقلّها توقّعًا، مثل القصص التي يُخبرها الأهل لأولادهم. لهذا، عرفت أن حكمة التصوّف بمعظمها لا ترد في النصوص المقدّسة، بل في القصص والصلوات والرقص والتأمّل.

من جديد، تناهت إلى باولو أصواتٌ علت من مكبّرات صوت المساجد. دعا المؤذّنون المؤمنين إلى الصلاة الأخيرة لليوم. ركع الرجل الذي ليس له اسم باتجاه القِبلة ليصلّي. عندما انتهى، سأله باولو إن كان بإمكانه العودة في اليوم التالي.

قال الرجل: ـ بكل تأكيد. لكنّك لن تتعلّم أكثر ممّا يريد قلبك أن يعلّمك. ليس لديّ ما أقدّمه إليك سوى القصص، ومكانًا تأتي إليه متى لزمك السكون، ما دمنا لا نؤدّي إحدى رقصاتنا الدينيّة.

التفت باولو إلى كارلا.

ـ جاء دورك الآن.

نعم، عرفت ذلك. سدّدتِ الفاتورة، ومشيا نحو حافة المضيق. أمكنهما سماع السيّارات تطلق أبواقها على الجسر، لكنّها لـم تُفسد القمر والمياه ومنظر اسطنبول.

ـ اليوم، جلست عند الضفّة المقابلة، وصرفتُ ساعات أنظر إلى النهر يجري. استذكرتُ أسلوب عيشي حتّى لحظتها، والرجال الذين قابلتهم، وسلوكي الذي بدا أنّه لـم يتغيّر قط. كنتُ متعبة من نفسي. وسألتها: «لـمَ أنا هكذا؟ أكنتُ الوحيدة العاجزة عن الحبّ، أم أنّ ثـمّة أشخاصًا آخرين؟ تعرّفت في حياتي إلى الكثير من الرجال الذين كانوا على استعداد لفعل أيّ شيء من أجلي، ولـم أقع في غرام أيّ منهم. حسبت أحيانًا أنّني التقيتُ أخيرًا فارس أحلامي، لكن لم يُعمّر هذا الإحساس طويلاً، وكنت أضيق ذرعًا به سريعاً، مهما رعاني واهتمّ بي وأحبّني. لم أكن أبرّر لهم شيئًا، كان حسبي قول الحقيقة. كانوا يلجأون إلى فعل كلّ شيء لاستعادتي، لكن عبثاً. كان مجرّد لمسهم ذراعي ينفّرني. عرفتُ أشخاصًا هدّدوني بالانتحار؛ لكنني أحمد الله على أنهم لـم يجسّدوا قولهم فعلاً. لـم أشعر يومًا بالغيرة. وفي وقت من الأوقات، عندما اجتزتُ عتبة العشرين، خلتُ أنّني عليلة. لم أكن يومًا مخلصة. لطالما وجدتُ عشّاقًا آخرين، حتى عندما

أكون مع شخص كان يفعل كلّ شيء من أجلي. عرفتُ طبيبًا نفسيًا، أو محلّلاً نفسيًا، لا أدري تمامًا، وذهبنا معًا إلى باريس. كانت المرّة الأولى التي لاحظ فيها أحدهم شيئًا. جاءني بعباراته الجاهزة قائلاً إنّني أحتاج إلى عناية طبيب، وإنّ جسمي يفتقر إلى مادّة ما. وبدل أن أطلب المساعدة الطبيّة، رجعتُ إلى أمستردام.

لا بُدّ أنّك قد لاحظتَ وتصوّرت أنني أستطيع بسهولة إغواء الرجال. لكن متى حدث الأمر، أفقد الاهتمام. هذا ما دفعني كي أذهب إلى نيبال: فكّرت في عدم العودة منها، أن أشيخ فيها مُحاوِلةً اكتشاف حبّي لله... وأعترف أنّني أخال حتّى الآن أنّني أحبّ لله، لكنّني لستُ على يقين تام من ذلك. في الحقيقة، لم أجد يومًا إجابة عن سؤالي، لم أشأ استشارة الأطباء، أردت ببساطة أن أختفي عن وجه الأرض وأكرّس حياتي للتأمّل، لا أكثر. لأنّ حياةً بلا حبّ لا تستحقّ أن تُعاش. فما الحياة بلا حبّ؟ هي شجرة لا تثمر. هي النوم بلا أحلام. وهي أحيانًا سهاد. هي العيش يومًا تلو اليوم في انتظار أن تنفذ الشمس إلى غرفة موصدة تمامًا، مطليّة بالأسود، غرفة تعرف مكان مفتاحها، لكنّك لا ترغب في أن تفتح الباب وتخرج.

أخذ صوتها يتكسّر، كما لو أنّها كانت ستبكي. دنا باولو منها، وحاول أن يعانقها لكنّها أبعدته.

ـ لم أنتهِ بعد. لطالما أجدتُ التلاعب بالآخرين. ومدّني ذلك بثقة كبيرة بنفسي، بفوقيّتي، حيث ردّدت لنفسي بلا وعي قائلة: «لن أسلّم نفسي بكلّيتي إلاّ للذي سيتمكّن من ترويضي». وحتى الآن، لم يأتِ أحد.

التفتت إليه. تطايرت من عينيها شرارات بدل الدموع التي كانت تتوقّع أن تملأهما.

ـ «لمَ أنت هنا في أرض الأحلام هذه؟». لأنّني أردتُ لك ذلك. لأنّني كنتُ في حاجة إلى من يرافقني، وخِلتُ أنّك الرفيق المثالي، حتّى بعد أن كشفت شوائبك، ادّعيتَ أنّك رجل حُرّ عندما تبعتَ الهاري كريشنا في الشوارع، عندما ذهبتَ إلى بيت الشمس الشارقة ذاك لتُظهر مدى شجاعتك، في حين أن ما قمت به كان سخافة في الواقع، عندما لبّيتَ دعوتي لرؤية طاحونة: طاحونة! كما لو أنك كنت ذاهبًا إلى المرّيخ.

ـ أنتِ من أصرّ.

هي لم تصرّ، طرحت عليه اقتراحًا فقط، لكن على ما يبدو أنّ اقتراحاتها قد اتّخذت شكل أوامر عمومًا. تابعت من دون أن تتكبّد عناء التفسير.

ـ يومها، عندما رجعنا إلى المدينة من الطاحونة وفعلنا ما أردته أنا، وهو شراء تذكرة الباص إلى نيبال، أدركتُ أنّني أغرم بك. لم يكن ثمة سبب ما، إذ لم يتغيّر شيء بين ليلة وضحاها. ولم يكن السبب محرّماً أقدمت عليه أو شيئًا قلته، لا شيء إطلاقًا. لكنّني كنت أغرم بك بشدّة. وعرفتُ، شأني في كلّ المرّات السابقة، أنّ هذا الشعور لن يدوم. أنت لا تناسبني البتّة. بقيتُ أنتظر أن يتبدّد الشعور، ولم يتبدّد. وعندما رحنا نحادث رايان وميرث، شعرتُ بالغيرة للمرّة الأولى. سبق أن عرفتُ الحسد، والغضب، وعدم الأمان النفسي، لكن الغيرة؟ لم تكن الغيرة جزءًا من عالمي. خلتُ أن عليكم جميعًا أن تولوني انتباهًا أكثر، أنا المستقلّة، الجميلة، الذكيّة، القويّة الإرادة. قرّرتُ أن ذلك لم يكن شعوراً بالغيرة من ميرث، بل بالأحرى شعور بالحسد، لأنّني لم أكن محور الانتباه.

أمسكت كارلا بيده.

ـ وهذا الصباح، حين جلستُ أنظر إلى النهر، وتذكّرتُ الليلة التي رقصنا فيها معًا حول النار، اكتشفتُ أنّ ما شعرتُ به، لم يكن افتتانًا، ولا ما يشبهه، بل كان حبًّا. حتّى بعد لحظة الحميميّة التي عبرت بيننا مساء أمس، وأظهرت فيه مدى احتمال أن تكون عاشقًا رديئًا، لم أكفَّ عن حبّك. أعرف أنّني أحبّك وأعرف أنّك تحبّني، وأن بمقدورنا أن نقضي ما تبقّى من حياتنا معاً، على الطريق، في نيبال، في ريو، أو على جزيرة مهجورة. أحبّك وأحتاج إليك في حياتي.

لا تسألني لماذا أقول لك هذا الآن. لم يسبق لي أن قلته لأحد، وأنتَ تعرف أنّني صادقة. أحبّك ولا أسعى إلى تبرير مشاعري.

أدارت وجهها نحوه آملة أن يقبّلها. وبغرابة، فَعَلَ، غير أنّ قبلته كانت غريبة، وقال إن من الأفضل العودة إلى أوروبا، إلى الفندق. كان نهارهما عامراً بالأحداث، والعواطف، والافتتان المطلق.

اعترى الخوف كارلا.

وفاقها باولو خوفًا. في الحقيقة، كان يعيش مغامرة حلوة معها تخلّلتها لحظات شغف، لحظات رَغِبَ فيها أن تلازمه إلى الأبد، لكنّ هذا كلّه كان قد انتهى.

لا، هو لم يحبّها.

في الصباح، تحلّق الجميع حول مائدة الفطور لتبادل التجارب والتوصيات. جلست كارلا وحدها. وعندما سألوها أين باولو، قالت إنّه أراد أن يستغلّ كلّ ثانية لكي يتبحّر في أمر الدراويش الدوّارين المشهورين، وإنّه كان يذهب كلّ يوم للقاء شخص ربّما علّمه أكثر.

قال لي: «يُمكن لمعالم اسطنبول الأثريّة ومساجدها وخزّانات مياهها وعجائبها، أن تنتظر. فهي لن تبرح مكانها. لكنّني في صدد تعلّم أمر قد يتبدّد بين لحظة وأخرى».

فهم الآخرون جيدًا. ففي النهاية، وبحسب ما استشفّوه، لم تتعدّ علاقتهما إطار غرفة تشاركا فيها.

وليلة رجوعهما من آسيا، بُعيد العشاء، مارسا حبًّا مذهلاً إلى درجة أنّها وجدت نفسها تتصبّب عرقًا، وإشباعًا، واستعدادًا لفعل أيّ شيء من أجل هذا الرجل. غير أن كلامه أخذ يقلّ ويقلّ.

لم تتجرّأ على طرح السؤال البديهي عليه: أتحبّني؟ فهي لم تكن على يقين من ذلك. والآن أرادت أن تتناسى حاجاتها هي، وأن تدعه يلتقي ذاك الفرنسي الذي كان يتحدّث عنه ويتعلّم منه ما أمكن عن التصوّف، في النهاية، كانت فرصة فريدة. وعندما دعاها شبيه راسبوتين إلى مرافقته

لرؤية متحف قصر توبكابي، رفضت. اقترح عليها رايان وميرث مرافقتهما إلى البازار الكبير، قائلَيْن إنّ كلّ شيء قد أخذ منهما كلّ مأخذ إلى درجة أنستهما الأساس: كيف يعيش أهل هذه المدينة؟ ماذا يأكلون؟ ماذا يشترون؟ قبلت، وتواعدوا على اللقاء في اليوم التالي.

تدخّل السائق ليقول لها أن اذهبوا اليوم وإلّا لن يحدث ذلك أبداً: فقد جرى احتواء النزاع في الأردن، وسوف ينطلقون في الغد. رجا كارلا أن تُبلغ باولو، كما لو أنها كانت حبيبته، أو عشيقته، بل زوجته.

ردّت: «بكلّ تأكيد.» في حين أنّها من قبل كانت لتردّ بـما يُشبه ردّ قايين على هابيل: «أَحَارِسٌ أنَا لِأَخِي؟».

وعلى أثر كلام السائق، عبّر الآخرون عن امتعاضهم. أيُعقل؟ أليس مفترضاً أن يقضوا أسبوعًا في اسطنبول؟ لم يمض سوى أيامٍ ثلاثة، واليوم الأوّل لا يُحتسَب، إذ كانوا مُرهقين وعاجزين عن فعل أيّ شيء.

ـ لا. كانت وُجهتنا، ولا تزال، الذهاب إلى نيبال. توقّفنا هنا لأنّنا لم نملك خيارًا آخر. والآن، علينا الإسراع في المغادرة، لأن الصحف والشركة التي أعمل لديها، تفيدان بأن ثمة خطراً في أن يُستأنف النزاع. كما أن هناك أشخاصاً، في كاتماندو ينتظرون العودة.

كانت الكلمة الفصل له. أضاف قائلاً إنَّ مَن لا يكون على استعداد للمغادرة عند الحادية عشرة صباح الغد، سيكون عليه انتظار وصول الباص التالي، بعد خمسة عشر يومًا.

قرّرت كارلا مرافقة رايان وميرث إلى البازار الكبير. وانضمّ إليهما جاك وماري. ومع أنّ أحداً لم يتجرأ على السؤال، لاحظ الجميع أنّ كارلا لم تعد على حالها، بدت أخفّ، أكثر بريقًا. لا بُدّ من أنّ هذه الفتاة،

الواثقة أبدًا بنفسها وقراراتها، لا بُدّ أنّها مغرمة بذلك البرازيلي النحيل ذي السكسوكة.

أما كارلا، ففكّرت: «لا بُدّ من أنّ الآخرين قد لاحظوا أنّني تغيّرت. هم يجهلون السبب، لكنّهم لاحظوا».

كم هي رائعة القدرة على الحبّ. فهمت الآن لمَ كان الحبّ مهمًّا إلى هذه الدرجة لكثير من الناس، بل لجميعهم في الواقع. تذكّرت بحسرة في قلبها مدى الألم الذي لا بُدّ أنّها تسبّبت به. لكن لم يكن باليد حيلة، فهذا هو الحبّ.

فالحبّ هو ما يُتيح لنا أن نفهم مهمّتنا على الأرض، والغاية من وجودنا. ومن يحفظ ذلك سوف يظلّله الخير والحماية، سوف يجد السلام في اللحظات الصِعاب، سيُعطي كلّ شيء من دون أن يطلب مقابلاً، إلّا وجود حبيبه إلى جانبه، حامل النور، كأس الخصوبة، الشعلة التي تُنير الدرب.

هذا ما وجب أن تكون عليه الحال. إذ ذاك سوف يغدو العالم ألطف دومًا، ويستحيل الشرّ خيرًا، والكذب حقيقة، والعنف سلامًا.

فالحبّ برقّته يهزم الغاشم، ويروي ظمأ من يبحث عن ماء الوجدان الحيّ، ويترك بابًا مشرّعًا لكي ينفذ منه النور والمطر المبارك.

فالحبّ يجعل الوقت يمرّ أبطأ أو أسرع، لكنّه لا يمرّ كما مر من قبل متّبعًا الإيقاع الرتيب نفسه، رتابة لا تحتمل.

كانت تغيّرات باطنها بطيئة، لأنّ التغيُّر الحقيقي يستغرق وقتًا. لكنّ شيئًا ما كان يتغيّر.

قبل أن يخرجوا، دنت ماري من كارلا.

ـ أخبرتِ الإيرلنديين شيئًا ما عن مخدّر LSD، الذي أحضرته، أليس كذلك؟

بالفعل. كان من المستحيل ضبطه، لأنّها كانت قد بلّلت صفحة من كتاب «سيّد الخواتم» في محلول من هذا الحَمْض. تركتها تجفّ في الهواء في هولندا ولم تعد سوى مقطع من أحد فصول كتاب تولكيين.

ـ أودّ، أودّ فعلاً، أن أجرّب بعضًا منه اليوم. هذه المدينة فتنتني، أحتاج إلى رؤيتها بعين جديدة. أيُحتمل أن يساعدني المخدّر على ذلك؟

نعم، يستطيع ذلك. لكن إذا لم يسبق للشخص أن تعاطاه، فقد يشهد السموات، وقد يشهد الجحيم.

ـ خطّتي بسيطة: سوف نذهب إلى البازار، سوف «أتوه» هناك، وآخذ الحمض بعيدًا عن الآخرين، من دون إزعاج أحد.

لم يكن لهذه الفتاة أدنى فكرة عمّا تقوله: أن تختبر رحلة هلوسة وحدها «من دون إزعاج أحد».

في البداية، ندمت كارلا حتّى الصميم على البوح لآخرين بأنّها أحضرت «صفحة» من الحمض. تستطيع أن تقول للفتاة إنّها أساءت فهم الأمر، وإنّها كانت تقصد شخصيّات الكتاب. لكنّ الفتاة لم تأتِ مطلقًا على ذكر أيّ كتاب. تستطيع أن تقول إنّها لم تشأ أن تستحضر كارما سلبيّة لتعريف أحدهم بأيّ مخدّر كان، وخصوصًا ماري. وكان ندمها أكبر لأنّ حياتها قد تغيّرت إلى الأبد، فمتى أحببت شخصاً، ألا تُحبّ الجميع؟

نظرت إلى الفتاة، التي تصغرها بقليل، التي امتلكت فضول المحاربات الحقيقيات، الأمازونيّات، وهي مستعدّة لمواجهة المجهول، الخطر، المُختلِف، على غرار ما واجهته هي بذاتها. كان ذلك مُخيفًا وجيدًا في آن. كان من

المخيف والجيّد في آن أن تكتشف أنّك حيّ، أن تعرف أنك في النهاية ستلقى ما يسمّونه الموت، ومع ذلك تظلّ قادرًا على عيش كلّ لحظة، من دون أن تقلق بشأنه.

لنصعد إلى غرفتي. لكن قبل ذلك، أريدك أن تقطعي لي وعدًا.

ـ لك ما تريدين.

ـ عليك ألاّ تبتعدي عنّي ولو لثانية واحدة. LSD على أنواع، وهذا أشدّها قوّة. قد تكون تجربتك مذهلة أو مُريعة.

ضحكت ماري. لم تملك كارلا أيّ فكرة مَن كانت ماري، وما اختبرته في حياتها.

أصرّت كارلا: ـ عديني.

ـ أعدك.

وبما أنّ باقي أفراد المجموعة كانوا على استعداد للخروج، كانت ذريعة «مشكلات نسائيّة» ذريعة مثالية في تلك اللحظة. قالتا إنّهما سترجعان بعد عشر دقائق.

فتحت كارلا الباب، وشعرت بالفخر للتباهي بغرفتها، رأت ماري الملابس التي تجفّ، والنافذة المفتوحة للتهوئة، والسرير ذي الوسادتين، والشراشف التي بدت وكأنّ إعصارًا قد عصفَ بها، وهو في الواقع إعصار حقًّا، أخذ معه عدّة أمور وخلّف أمورًا أخرى.

توجّهت نحو حقيبة ظهرها، أخرجت منها الكتاب، وفتحته على الصفحة ١٥٥. وبوساطة مقصّ صغير لم يفارقها يومًا، قصّت من الورقة نحو سنتيمتر ونصف تقريبًا.

مدّت بالقصاصة إلى ماري، وطلبت إليها أن تمضغها جيّدًا.

ـ أهذا كلّ شيء؟

ـ صراحةً، كنت قد فكّرتُ في أن أعطيك النصف فقط. لكنّني خلتُ إنّك قد لا تشعرين بمفعوله، لذا أعطيكِ الجرعة التي كنت أتناولها بنفسي.

لقد كذبت. كانت تعطيها نصف جرعة؛ وبحسب ردّ فعل ماري ودرجة تحمّلها، سوف تمنحها التجربة نفسها لجرعة كاملة، لكن في غضون وقتٍ أطول.

ـ تذكَري ما قلته: هذا ما كنت أتناوله. لم أقرّب المخدّر من فمي منذ أكثر من سنة، ولا أدري إن كنتُ سأتناوله مجددًا بعد الآن. ثمّة طرائق أكثر فاعلية لبلوغ النتيجة نفسها، وإن كنت لا أملك الصبر لتجربتها.

ـ «مثل ماذا؟». كانت ماري قد وضعت قصاصة الورقة في فمها، وكان الأوان قد فات لتبدّل رأيها.

ـ التأمّل. اليوغا. الشغف العارم ذلك النوع من الأمور. كلّ ما يجعلنا نرى العالم كما لو أنّنا نراه للمرّة الأولى.

ـ كم من الوقت يستغرق الأمر لأشعر بتأثيراته؟

ـ لا أعرف. هذا وقف على كلّ شخص.

أغلقت كارلا الكتاب وردّته إلى حقيبتها. نزلتا، وانطلق الجميع معًا إلى البازار الكبير.

كانت ميرث قد أخذت من الفندق منشورًا عن البازار الكبير الذي أنشأه عام ١٤٥٥ سلطان تمكّن من استعادة القسطنطينيّة من البابا. وفي زمن حكمت فيه الإمبراطوريّة العثمانيّة العالم، كان البازار المكان الذي يشتري منه الناس بضائعهم، وكبر أكثر فأكثر إلى درجة اقتضت توسيع منشآت السقف مرارًا.

غير أنّ ما قرأوه لم يكن كافيًا كي يهيِّئهم لما كان في انتظارهم. جال آلاف الناس في الأروقة المكتظّة، بين النوافير والمطاعم، وأماكن الصلاة، والمقاهي والسجّاد. باختصار، كان هناك كلّ ما أمكن أن تجده في أفضل مركز تسوّق في فرنسا: مجوهرات ذهبيّة مصقولة بأبهى شكل، ملابس من كلّ شكل ولون، أحذية، سجّاد من مختلف الأصناف، حرفيّون يعملون غير آبهين بمن حولهم.

سألهم أحد التجّار إن كانت الأثريّات تهمّهم. كان واضحاً بما لا يقبل الشك أنهم سيّاح، لمجرّد الطريقة التي كانوا ينظرون فيها إلى كلّ الاتّجاهات.

سأل جاك التاجر: ــ ما عدد المتاجر هنا؟

ــ ثلاثة آلاف. مسجدان. نوافير عدّة. وعدد هائل من الأماكن التي يُمكنك أن تتذوّق فيها أفضل ما في المطبخ التركي. لكن لديّ بعض التماثيل الدينيّة التي لن تجدها في أيّ مكان آخر.

شكره جاك قائلاً إنّه سيعود قريبًا. وإذ عرف البائع أنّ جاك يكذب، كثّف جهوده للحظات، لكن سرعان ما أدرك أنّ لا جدوى من الإصرار، وتمنّى لهم نهارًا سعيدًا.

سألت ميرث: ـ «أتعرفون أنّ مارك توين قد جاء إلى هنا؟». كانت تتصبّب عرقًا وروّعها ما رأته. ماذا لو شبّ حريق؟ من أين سيخرجون؟ في أيّ اتجاه يقع الباب الصغير الذي دخلوا منه؟ وكيف يُمكن الحفاظ على تماسك المجموعة إذا أراد كلٌّ الذهاب في اتّجاه مختلف؟

ـ وماذا قال مارك توين فيه؟

ـ قال «إن ثمة استحالة في وصف ما رآه، لكنّها كانت تجربة أشدّ وأهمّ من زيارة المدينة. تحدّث عن طيف الألوان وتنوّع التدرّجات البصريّة، والسجّاد، والناس المتحادثين، عن الفوضى الواضحة التي بدت مع ذلك أنّها تتبع انتظامًا عجز عن تفسيره». وكتب: «إذا أردتُ أن أشتري حذاءً ، لا أحتاج إلى التنقّل من متجر إلى آخر على طول الشارع والمقارنة بين الأشكال والأسعار، بل إنني ببساطة أجد جناح صانعي الأحذية، المصطفّين الواحد خلف الآخر من دون تنافس بينهم. أو إبداء انزعاج، فالأمر برمّته يتوقّف على مَن منهم البائع الأفضل».

وامتنعت عن القول إنّ البازار سبق أن تعرّض لأربع حرائق وهزّة أرضيّة. ويبقى لغزًا عددُ ضحايا هذه الكوارث، لأنّ منشور الفندق اكتفى بتلك المعلومة، وعتّم على أي ذكر لعدد الجثث.

لاحظت كارلا أنّ ماري قد سمّرت عينيها في السقف، في العوارض والقبب المقوّسة، وراحت تبتسم ولا يسعها النطق سوى بعبارة واحدة: «يا للتحفة! يا للتحفة!».

كانوا يتقدّمون كيلومترًا واحدًا في الساعة. ومتى توقّف أحدهم، توقّف الجميع. لكن الآن، احتاجت كارلا إلى بعض الخصوصيّة.

ـ إذا تابعنا على هذا النحو، فلن نبلغ حتّى التقاطع المؤدّي إلى الجناح التالي. لـمَ لا نفترق ونلتقي في الفندق؟ للأسف، وللأسف فعلاً، سنرحل في الغد، علينا إذن أن نستفيد أقصى ما يمكن من هذا اليوم الأخير.

رحّب الجميع باقتراحها بحماسة. اقترب جاك من ماري لاصطحابها، لكنّ كارلا منعته.

ـ لا يُمكنني البقاء هنا وحدي. دعنا نكتشف معًا عالم العجائب هذا.

رأى جاك أنّ ماري لـم تخصّه ولو بنظرة، ردّدت فقط «يا للتحفة!» وهي تحدّق إلى السقف. هل عرضَ أحدهم عليها الحشيشة عندما دخلوا البازار؟ هل قبلت؟ في أيّ حال، كانت راشدة بما يخوّلها الاعتناء بنفسها. تركها مع كارلا، هذه الفتاة الثائرة دومًا، المستعدّة دومًا أن تثبت أنها أذكى كثيراً وأرفع ثقافة من الآخرين جميعهم. بدا له مع ذلك، خلال هذين اليومين الأخيرين في اسطنبول، أنّها أضحت أكثر ودًا، أخيرًا، وإن قليلاً.

تابع طريقه، واختفى وسط الحشد. ما إن فعل، حتى أخذت كارلا ماري من ذراعها.

ـ فلنخرج من هنا في الحال.

ـ لكن كلّ شيء جميل جدًا. انظري إلى الألوان: يا للتحفة!.

لكنّ كارلا لـم تكن تسألها، بل كانت تأمرها وأخذت تجرّها بلطف نحو المخرج.

المخرج؟

أين المخرج؟

ـ يا للتحفة! كانت ماري تنتشي أكثر فأكثر بما رأته، وغابت تمامًا، فيما حاولت كارلا أن تسأل عدّة أشخاص عن اتّجاه المخرج الأقرب، لكنّها حصلت على إجابات عدّة مختلفة. أخذ تتوتّر، كان الخروج رحلة هلوسة بحدّ ذاته على قدر مخدّر LSD، ولم تكن واثقة بما ستكون حال ماري إذا امتزج التأثيران.

رجعت إليها العدائيّة والاستبداد. أخذت تمضي من اتّجاه إلى آخر، ولم تتمكّن من العثور على الباب الذي دخلوا منه. لم يكن مهمًّا الخروج من الباب نفسه، لكن الآن أصبحت كلّ ثانية ثمينة. أخذ الجوّ يتثاقل، والناس يتصبّبون عرقًا، ولم يتنبّه أحد إلّا لما كان يشتريه، أو يبيعه أو يساوم فيه.

أخيرًا خطرت لها فكرة. بدل مواصلة البحث في كلّ الاتجاهات، عليها الثبات على اتّجاه واحد، والسير في خطّ مستقيم. عاجلاً أم آجلاً، سينتهي بها الأمر إلى إيجاد السور الذي يفصل بين العالم الخارجي وهيكل الاستهلاك الأكبر الذي وقعت عليه في حياتها. رسمت في ذهنها خطًا مستقيمًا متضرّعة إلى الله (الله؟) أن يكون السبيل الأقصر. بينما كانتا تسيران في سبيلهما المختار، أوقفها آلاف المرّات أشخاص روّجوا لبضائعهم. شقّت طريقها دافعة إياهم من دون أن تقول «عذراً»، ومن دون أن تراعي أنّهم قد يدفعونها أيضًا.

صادفت بين الحشد مراهقًا بشارب نبت حديثاً. لا بُدّ من أنّه دخل البازار من فوره. بدا أنّه يبحث عن شيء. قرّرت استخدام كلّ سحرها،

وإغوائها، وقدرتها على الإقناع، ورجته أن يصطحبهما إلى المخرج، متذرّعة بأنّ أختها أُصيبت بنوبة هذيان.

ألقى الفتى بنظرة على الأخت المزعومة ورأى أنّها فعلاً في مكان آخر، بعيد جدًا. حاول بدء حديث، شارحًا أنّ لديه عمّ على مقربة يستطيع مساعدتهما، لكنّها توسّلته، مدّعية أنّها تعرف الأعراض، وأنّ أختها في حاجة إلى الهواء تحديداً لا أكثر.

ورغمًا عنه، ومتأسفًا لأنّه لن يرى هاتين الفاتنتين بعد الآن، رافقهما إلى أحد المخارج الذي كان على بعد أقلّ من عشرين مترًا من حيث كانتا.

ولحظة وطأت ماري خارج البازار، أقسمت على التخلّي بجدّية عن كلّ أحلامها الثوريّة. لن تؤكّد بعد اليوم أنّها شيوعيّة، وأنّها تكافح من أجل تحرير العمّال المضطهدين من أرباب العمل.

صحيح أنّها راحت ترتدي ملابسها على الطريقة الهيبيّة، لأن من الجيّد أحيانًا اتّباع الموضة، صحيح أنّها فهمت أنّ القلق بدأ يساور أباها بهذا الصدد، وسعى بكلّ شراسة إلى البحث عن المعنى المحتمل لكلّ ذلك، صحيح أنّهما كان في طريقهما إلى نيبال، لكن ليس بهدف التأمّل في كهوف أو زيارة معابد، كان هدفهما التواصل مع الماويين الذين كانوا يحضّرون لانتفاضة واسعة النطاق ضدّ ما كان في نظرهم نظامًا ملوكيًا طاغيًا وباليًا يرأسه ملك لا يعبأ بمعاناة شعبه.

في الجامعة، تمكّنت من التواصل مع ماويّ، منفيّ بإرادته جاء إلى فرنسا بهدف شدّ الانتباه لعشرات المقاومين الذين كانوا يُذبحون في بلاده.

الآن، فقد كلّ هذا أهمّيته. مشت إلى جانب رفيقتها الهولندية في شارع سخيف، لا جاذب فيه البتّة، وبدا كلّ شيء أعظم شأنًا، أبعد من

الجدران المتقشّرة والناس الذين مشوا مطأطأي الرأس، ولا يكادون يرفعون أنظارهم.

ـ أتعتقدين أنّ الناس يلاحظون شيئًا؟

ـ لا إطلاقًا، ما عدا ابتسامتك المشرقة على وجهك. ما وجد هذا الحمض كمخدّر لجذب الانتباه.

في هذه الأثناء، لاحظت ماري أمرًا. كانت رفيقتها متوتّرة، لم تكن في حاجة إلى سماع ذلك، بل وصلها من «الذبذبة» التي انبعثت منها. كلمة لطالما كرهت هذه الكلمة، لأنّها لم تكن تؤمن بهذا النوع من الأمور، لكن الآن، كان لها أن تدرك أنّها موجودة.

ـ لمَ خرجنا من المعبد الذي كنّا فيه؟

رمتها كارلا بنظرة غريبة.

ـ أعلم جيدًا أنّنا لم نكن في معبد. إنّها مجرّد استعارة. أعرف اسمي، واسمك، ووجهتنا الأخيرة، والمدينة التي نحن فيها، اسطنبول، لكن يبدو كلّ شيء مختلفًا، كما لو أنّ...

استغرقها إيجاد الكلمات ثوانيَ.

ـ... كما لو أننا عبرنا بابًا، وتركنا خلفنا العالم المعروف برمّته، بما فيه همومنا، وخيباتنا، وشكوكنا. تبدو الحياة أبسط وأغنى في آن، أكثر فرحًا. أنا حرّة.

أخذت كارلا تسترخي قليلاً.

ـ أستطيع رؤية ألوان لم أرها قط في حياتي، تبدو السماء نابضة بالحياة، والغيوم ترسم إشارات لا أفهمها بعد، لكنّني على ثقة بأنّها تخطّ لي رسائل، لترشدني من الآن فصاعدًا. أنا في سلام مع نفسي، ولم أعد

أرى العالم من الخارج: أنا العالم. أملك حكمة كلّ أولئك الذين سبقوني، وتركوا بصماتهم في جيناتي. أنا أحلامي.

مرّتا أمام مقهى يشبه مئات المقاهي الأخرى التي كانت في المنطقة. وبما أنّ ماري ظلّت تتمتم «يا للتحفة!»، فقد طلبت كارلا إليها أن تصمت لأنهما كانتا على وشك الدخول إلى مكان محظور عليهما نسبيًا، مقهى وحدهم الرجال يرتادونه.

ـ هم يعرفون أنّنا سائحتان، وآمل ألا يفعلوا شيئًا، كطردنا. لكن أرجوك أحسني التصرّف.

وهذا بالضبط ما حدث. دخلتا واختارتا طاولة في إحدى الزوايا. ألقى الرجال عليهما بنظرات اندهاش، استغرقهم الأمر بضع دقائق ليدركوا أنّ الفتاتين تجهلان العادات المحلّية، ثم استأنفوا أحاديثهم. طلبت كارلا شاي النعناع المحلّى جدًا. ذاع أنّ السكّر يخفّف من شدّة الهلوسات.

كانت ماري تختبر هلوسات جامحة. تحدّثت عن الهالات الساطعة حول الناس، وزعمت أنّها كانت قادرة على التلاعب بالزمن، وأنّها تكلّمت من توّها مع شبح مسيحي كان قد توفي في القتال هنا بالذات، حيث يقع المقهى. كان هذا الرجل المسيحي قد وجد السلام المطلق في الجنّ، وسُرّ لإمكانه التواصل من جديد مع أحد ساكني الأرض. كان على وشك التماسها أن تحمل رسالة إلى والدته. لكن عندما أدرك أنّ قرونًا عدّة مرّت على موته، إذ أخبرته ماري بذلك، عدل عن الأمر، شكرها، وتبدّد من ثمّ على الفور.

احتست الشاي كما لو أنّها تحتسيه للمرّة الأولى في حياتها. أخذت تعبّر كم كان لذيذًا بتنهّدات وإيماءات. لكن طلبت كارلا إليها من جديد

أن تُحسن التصرف. ومن جديد شعرت ماري بـ«الذبذبة» التي أحاطت برفيقتها، التي تكشّفت هالتها عن عدّة ثقوب مُشعّة. أهي إشارة سيّئة؟ لا. بدت الثقوب وكأنّها جراح قديمة تلتئم بسرعة. حاولت أن تطمئنها، أنّ بإمكانها أن تُقيم محادثة في وسط انخطافها.

ـ أتعتقدين أنّك مغرمة بالبرازيلي؟

لم تجبها كارلا. بدا أحد الثقوب الممتلىء بالنور ينكمش قليلاً، وبدّلت ماري الموضوع.

ـ من اخترع هذه المادّة؟ ولـمَ لا توزّع مجانًا على كلّ من يسعون إلى الاتّحاد بالغيب، ما دام من الضروري جدًا أن نغيّر نظرتنا إلى العالم؟

شرحت كارلا أنّ مخدّر LSD اكتُشف مصادفةً في البلد الأقل احتمالاً، في سويسرا.

ـ سويسرا؟ ذاك البلد المعروف المقتصر على المصارف والساعات والأبقار والشوكولاتة؟

أضافت كارلا: ـ والمختبرات.

في الأساس، اكتُشف مخدّر LSD لعلاج مرضٍ محدّد لـم تعد تذكر اسمه، إلى أن قرّر مركِّبه، أو بالأحرى مخترعه كما يُقال، أن يُجرّب بعد سنوات لاحقة تذوّق القليل من هذا المنتج الذي كان يُدرّ أصلاً الملايين على شركات الأدوية في العالم أجمع. ابتلع كميّة ضئيلة منه قُبيل عودته إلى المنزل على درّاجته الهوائيّة (كان ذلك في عزّ الحرب، وحتّى في ذاك البلد الـمُحايد بلد الساعات والأبقار والشوكولاتة، كان الوقود يخضع للتقنين)، وأدرك أنّ كلّ شيء بدا مختلفاً تمامًا.

لاحظت كارلا أنّ تغيّرًا قد طرأ على ماري. كان عليها أن تتابع قصّتها.

لا بُدّ أنّك تتساءلين كيف وصلتني قصّة هذا السويسري كلّها. في الواقع صدر مؤخرًا مقال موسَّع حولها في مجلّة كنت أقرأها في المكتبة. إذن، لاحظ أنّه عاجز عن ركوب درّاجته... رجا أحد مساعديه مرافقته إلى منزله، ثمّ فكّر أن من الأفضل ربّما التوجّه مباشرةً إلى المستشفى، فلا بُدّ أنّه يُصاب بنوبة قلبيّة. لكن فجأةً، وهذه أقواله إلى حدٍّ ما، لأنّني لم أعد أذكرها حرفيًّا: رحتُ أرى ألوانًا لم أرها قط، وأشكالاً لم ألاحظها قط، أبت أن تختفي حتّى عندما أغمضت عينيّ. كان ذلك أشبه بالنظر من خلال مشكال عملاق ينفتح وينغلق على شكل دوائر ولوالب، يتفجّر ينابيع ملوّنة تتدفّق، كأنهر من فرح.

أتصغين إليّ يا ماري؟

ـ إلى حدٍّ ما. لستُ واثقة أنّني أستوعب كلّ شيء، المعلومات كثيرة، سويسرا، الدرّاجات الهوائيّة، الحرب، مِشكال... أبمقدورك أن تبسّطي أكثر؟

إشارة تحذير. طلبت فنجانًا آخر من الشاي.

ـ حاولي التركيز. انظري إليّ وأصغي إلى ما أقوله. ركّزي. سيتبدّد هذا الشعور المريع قريبًا. عليّ أن أبوح لك بشيء. لم أعطك سوى نصف الجرعة التي كنت أتناولها عندما كنت أتعاطى مخدّر LSD.

بدت تلك الكلمات وكأنها أراحت ماري. ما إن أحضر النادل الشاي، حتى أمرت كارلا رفيقتها بشربه. سدّدت الحساب، وخرجتا من ثمّ إلى الهواء المنعش.

ـ وماذا عن السويسري إذن؟

إشارة جيّدة عنت أنّ ماري لم تفقد طرف الحديث. تساءلت كارلا

إذا كانت ستتمكّن من أن تشتري لها مُهدِّئًا قويًا إذا تفاقم وضعها وحلّت أبواب الجحيم محلّ أبواب السماء.

ـ كان المخدّر الذي تناولته يُباع علنًا وبلا وصفة، على مدى أكثر من خمس عشرة سنة، في صيدليّات الولايات المتّحدة الأميركيّة، وأنت تعرفين مدى تشدّدهم بشأن المخدّرات. حتّى أنّه ظهر على غلاف مجلّة Time بفضل منافعه في علاج الأمراض النفسيّة وإدمان الكحول. ثمّ حُظر لأنّه كان يؤدّي إلى تأثيرات غير متوقّعة من وقت إلى وقت.

ـ من مثل ماذا؟...

ـ سوف نتحدّث في أمره لاحقًا. الآن، حاولي الابتعاد عن أبواب الجحيم أمامك، وافتحي باب السماء. استمتعي. لا تخافي، أنا معك، وأعرف ماذا أقول. قد تستمرّين على هذه الحال لساعتين تقريبًا كحدّ أقصى.

قالت ماري: ـ سأُغلق أبواب الجحيم، سأفتح أبواب السماء. لكنّني أعرف أنّني حتّى ولو تحكّمت بخوفي، لن تتمكّني أنت من التحكّم بخوفك. أستطيع أن أرى هالتك. أستطيع أن أقرأ أفكارك.

ـ محقّة أنت. في هذه الحالة، لا بُدّ أنّك قد قرأت أنّ لا خطر مميتاً من هذا، إلا إذا قرّرت تسلّق سطح مبنى، لتري، أخيرًا، إن كنتِ قادرة على الطيران.

ـ أفهم. وأعتقد أنّ المفعول قد بدأ يخفّ.

ولمعرفتها أنها لن تموت، ولن تصحبها الفتاة إلى أعلى مبنى ما، شعرت ماري بأنّ نبضها يتباطأ، وقرّرت أن تستمتع بالساعتين الباقيتين.

اتّحدت حواسّها، لمسًا وبصرًا وسمعًا وشمًا ومذاقًا، كما لو أنّها كانت قادرة على الشعور بها كلّها في آن. ومع أنّ الأنوار في الخارج قد أخذت

تنحسر، ظلّت ترى هالات الآخرين، وعرفت من منهم يتألّم، من وجد السعادة، من يُشرف على الموت.

كلّ شيء كان جديدًا. ليس لأنّها كانت في اسطنبول فحسب، بل لأنّها كانت في نسيج ماري أخرى، أعتق وأشدّ من تلك التي عايشتها كلّ تلك السنوات.

تلبّدت السماء أكثر فأكثر، وأعلنت السّحب السوداء عن عاصفة مُدبرة، وتفكّكت أشكالها وفقدت شيئًا فشيئًا معناها الذي بدا من قبل شديد الوضوح. لكنّها كانت واثقة بأنّ السحّب تملك شيفرتها الخاصّة في محادثة البشر، وأنها، إن هي راقبت السماء جيدًا في الأيام المقبلة، فسوف يؤول بها ذلك إلى فهم رسالتها.

تساءلت إن كان عليها أن تشرح لوالدها سبب اختيارها الذهاب إلى نيبال، لكن سيكون من البلاهة التراجع عن الرحلة بعد أن بلغا هذه الأَقصاء. سيكتشفان أمورًا يصعب عليهما رؤيتها لاحقًا بسبب قيود العمر.

لـمَ كانت تجهل نفسها إلى هذا الحدّ؟ تذكّرت بضع تجارب أزعجتها طفلةً، وخفّت وطأتها الآن، ولم تعد تنظر إليها سوى كتجارب. لـمَ أولتها كلّ ذاك الاهتمام لوقت طويل؟

في النهاية، لـم تحتج إلى إجابة، أحسّت بأنّ تلك الأمور تحلّ نفسها بنفسها. من حين إلى حين، في النظر إلى ما بدا أرواحًا تدور حولها، كان باب الجحيم يمرّ أمامها، لكنّها كانت عازمة على عدم فتحه مدى الدهر.

في تلك اللحظة، غاصت في عالم يخلو من الأسئلة ومن الإجابات، من الشك ومن اليقين، عالم اتّحدت معه، عالم لازمانيّ حيث الحاضر اختُزل في الماضي، والمستقبل في الحاضر لا أكثر. كانت روحها تارة روح كائن

عتيق وتارة روح طفلة تستمتع بكلّ جديد، تراقب أصابع يديها وهي تلاحظ أنّها منفصلة، وأنّ كل إصبع تتحرّك على حدة. نظرت إلى الفتاة التي برفقتها، بدت سعيدة بعد أن هدأت أكثر، استعادت هالتها نورها، كانت مغرمة بحقّ. كان سؤالها لها منذ قليل سؤالاً أخرق: نعلم دومًا متى كنّا مغرمين.

بعد زهاء ساعتين من السير، وعندما بلغتا مدخل الفندق أخيرًا، أدركت أنّ الهولندية آثرت السير عبر المدينة إلى أن يذهب مفعول المخدّر قبل ملاقاة الآخرين. وعند سماعها أوّل رعدة، عرفت ماري أنّ الله يكلّمها، يقول لها أن ترجع إلى العالم الآن، إذ لا يزال أمامها قدر كبير من العمل لإنجازه. عليها أن تُعين والدها، الذي حَلُمَ بأن يصبح كاتبًا، لكنّه لم يخطّ يومًا ولو كلمة، باستثناء عرض أو دراسة أو مقال.

توجّب عليها إعانته كما أعانها، هذا أساسًا ما طلبه إليها. أمامه قبعت سنوات طويلة. وذات يومٍ ستتزوّج، وهو أمر لم يكن قد خطر لها يومًا، وكانت تعتبره الخطوة الأخيرة في حياة بلا قيد أو حدّ.

ذات يومٍ إذن، ستتزوّج. وعندذاك، لا بُدّ من أن يكون والدها راضيًا عن حياته، بفعل أمرٍ أحبّ فعله. حتّى ولو أحبّت والدتها حبًّا جمًّا، ولم تلمها على الطلاق، فقد رغبت صدقًا في أن يتعرّف والدها إلى من تشاركه في الخطى التي نخطوها جميعًا على هذه الأرض المقدّسة.

فهمت حاضرًا لماذا كان المخدّر ممنوعًا؛ لأنّ العالم لن يعمل إلاّ من دونه. لو كان مشروعًا، فسوف يتعطّل العالم. ويكفّ الناس عن التواصل إلاّ مع ذواتهم، سيُحاكون ملايين الرهبان الذين يتأمّلون في الوقت نفسه في كهوفهم الداخلية، غير آبهين بأمجاد الآخرين أو فجائعهم. ستكفّ السيارات

عن السير، والطائرات عن الإقلاع، ولن يعود من بذار أو حصاد، وسيُمسي كلّ شيء تنويرًا ونشوة. وفي غضون وقت قصير، ستمّحي الإنسانيّة عن وجه الأرض بفعل ما وَجَب أن يكون نسيمًا مُطهّرًا، لكنّه تحوّل بدلاً من ذلك إلى عاصفة أبادت كلّ شيء.

كانت في العالم، الذي انتمت إليه، كان عليها إطاعة أمر الله الذي أصدره إليها بصوته الرعدي: أن تعمل، أن تعين والدها، أن تكافح ضدّ الإساءات التي شهدت عليها، أن تشارك الآخرين في معاركهم اليوميّة.

هذا ما كانت عليه مهمّتها، وسوف تُنجزها بتمامها. لقد عاشت من فورها رحلة مع مخدّر LSD، هي الأولى والأخيرة، وكانت مسرورة أنّها انتهت.

ذلك المساء، اجتمع أفراد المجموعة بأكملها، وقرّروا الاحتفال بأمسيتهم الأخيرة في اسطنبول في مطعم يقدّم المشروبات الكحولّية، حيث يمكنهم أن يتعشّوا معًا، ويثملوا معًا، ويتبادلوا تجارب يومهم. ودعوا مايكل وراهول للانضمام إليهم. اعترضا قائلَيْن إنّ ذلك يخالف أنظمة الشركة، لكن سرعان ما أذعنا.

ـ حسناً، لكن لا تطلبوا إليّ أن أمكث يومًا إضافيًا. لا يسعني ذلك، وإلاّ فسأخسر عملي.

لم تكن المجموعة تطلب البقاء. كان في تركيا الكثير ليروه بعد، خصوصًا الأناضول التي قال الجميع إنّ مناظرها الطبيعيّة خلاّبة. لكنّهم في الواقع أخذوا يشتاقون إلى التبدّل المتواصل للمناظر.

كان باولو قد رجع من مكانه الغامض، ارتدى ثيابه، وعَلِمَ أنّهم راحلون في الغد. التمس المعذرة من الجميع، وشرح أنّه يودّ تناول العشاء مع كارلا بمفردهما.

فهم الجميع وسُرّوا ضمنيًا لهذه «الصداقة».

برقت عيون امرأتين في المجموعة، عينا ماري وعينا كارلا. لم يسألهما أحدٌ عن السبب، ولم تقدّم أيٌّ منهما أي إيضاح.

كيف كان يومكَ؟

اختار باولو وكارلا هما أيضًا مطعمًا يقدّم الكحول، وقد فرغا لتوهّما من كأس النبيذ الأولى.

اقترح أن يطلبا الطعام قبل أن يُجيب عن سؤالها، ووافقت. الآن، بعد أن أصبحت امرأة حقيقيّة، قادرة على الحبّ بكلّ قوّتها من دون مساعدة أيّ مخدّر، لـم يعد النبيذ في نظرها سوى رمز للاحتفاء.

عرفت ما كان ينتظرها، عرفت نوع الحديث الذي سيدور بينهما. فقد حدست به عندما مارسا الحبّ الرائع أمس. أوشكت حينها على البكاء، لكنّها تقبّلت مصيرها، كما لو أنّ كلّ شيء كان مكتوبًا. لـم ترغب يومًا بحياتها إلّا في قلب يتّقد حبًّا، والرجل الذي أعطاها ذلك كان لحظتها في داخلها. وتلك الليلة، اعترفت له أخيرًا بأنّها تحبّه، لم تبرق عيناه كما توقّعت.

هي لم تكن ساذجة، لكنّها كانت على الدوام تحصل على كلّ ما تريده في الحياة. لـم تكن تائهة في الصحراء، كانت تنساب كمياه البوسفور، نحو محيط التقت فيه الأنهر كلّها. لن تنسى اسطنبول أبدًا، والبرازيلي الهزيل، ومحادثاته التي لـم تستطع فهمها دومًا. لقد حقّق لها معجزة، لكن لـم يكن من داعٍ ليعرف. لا نفع من جعله يشعر بالذنب، فقد يُبدّل رأيه.

طلبا زجاجة ثانية، وشرع من ثمّ في الكلام:

ـ كان الرجل الذي ليس له اسم في المركز الثقافي عندما وصلت. حيّيته، لكنّه لم يردّ التحيّة. ظلّ مُركّزًا بصره في شيء، كما لو أنّه في انخطاف. ركعتُ على الأرض، حاولتُ إفراغ ذهني، والتأمّل، لكي أتواصل مع الأرواح التي رقصت وأنشدت واحتفت بالحياة في هذا المكان. عرفتُ أنّه سوف يخرج من حالته وانتظرتُ. الحقّ أنّني لم «أنتظر» بالمعنى الحرفي للكلمة، استسلمت بالأحرى للحظة الحاضرة، من دون أن أنتظر شيئًا على الإطلاق.

دعت مكبّرات الصوت المدينة إلى الصلاة، خرج الرجل من انخطافه لتأديّة إحدى الركعات الخمس لليوم. ولم يتنبّه لوجودي إلاّ حينها، وسألني لماذا رجعت.

شرحتُ له أنّني صرفتُ ليلتي أفكّر في لقائنا، وأنّني أودّ تكريس نفسي جسدًا وروحًا للتصوّف. كنت أستميت لأخبره بأنّني للمرة الأولى في حياتي مارست الحبّ فعليًا، لأنني عندما كنت البارحة معكِ، في داخلك، أحسستُ حقّا بأنّني كنتُ أخرج من جسدي. لم يسبق لي أن عشت تجربة مماثلة قط. لكنّني خلتُ أنّ الموضوع غير مناسب ولم أقل شيئًا.

ـ اقرأ الشعراء، يكفيك ذلك. جاء الردّ من الرجل الذي ليس له اسم. وأضاف: «هذا كلّ ما يلزمك».

في نظري، لم يكن ذلك كلّ ما يلزمني. لزمني الانضباط، الصرامة، مكان يُمكنني أن أخدم فيه الله لكي أتقرّب من باقي العالم. قبل زيارتي الأولى للمركز، أذهلني الدراويش الذين كانوا يرقصون ويدخلون في نوعٍ من الانخطاف. والآن، لزمني أن تراقصني روحي.

أعليّ أن أنتظر ألف يوم ويوم لحدوث ذلك؟ فليكن. حتى ذلك الحين، سأكون قد عشت ربّما ضعف ما عاشه زملائي في المدرسة. يُمكنني أن أكرّس السنوات الثلاث المقبلة من حياتي لذلك. وأحاول في نهاية المطاف أن أبلغ حالة الانخطاف أسوة بالدراويش الدوّارين.

ـ يا صديقي، يعيش الصوفي في اللحظة الحاضرة على الدوام. الغد لا وجود له في معجمنا.

نعم، عرفتُ ذلك. سؤالي كان: هل أنا مجبر على اعتناق دين الإسلام لكي أتقدّم في تعلُمي؟

ـ لا. حسبك أن تقطع وعدًا واحدًا، أن تُسلّم نفسك لدرب الله. أن ترى وجهه كلّما شربت الماء. أن تسمع صوته كلّما مررت بمتسوّل في الشارع. هذا ما تبشّر به الأديان كافّة، وهذا العهد الوحيد الذي عليك أن تفي به، الوحيد.

ـ لكنّني لم أكتسب بعد الانضباط الكافي، بيد أنني بمساعدتك، يُمكنني أن أبلغ المكان الذي تلتقي فيه السماء بالأرض، أي في قلب الإنسان.

قال لي الرجل الذي ليس له اسم إنّه سيساعدني، شرط أن أتخلّى عن حياتي كلّها وأدعها خلفي، وأن أنفّذ كلّ ما يُمليه عليّ: عليّ أن أتعلّم التسوّل متى خلا المال من جيبي، أن أصوم متى حان وقته، أن أخدم البُرص، أن أغسل جروح المرضى. أن أصرف نهارات لا أفعل فيها شيئًا بالمطلق سوى التركيز في نقطة ثابتة، وأنا أتلو بلا انقطاع الصلاة نفسها، الجملة نفسها، الكلمة نفسها.

ـ بِع حكمتك، واشترِ حيّزًا في روحك لكي تملأه بالمُطلق. فحكمة البشر، رجالاً ونساءً، جنون في ناظري الله.

عندها، رُحت أشكّك في قدرتي على ذلك، ربّما كان يمتحنني ليرى إن كنت سأُطيعه إطاعة مطلقة. لكنّني لم ألمس تردّدًا في صوته، وأيقنت أنّه جادّ. وعرفتُ أيضًا أنّ جسدي دخل تلك القاعة المطليّة بالأخضر المتداعية، بنوافذها المتكسّرة، ذاك اليوم تحديدًا الذي خلا من النور لاقتراب عاصفة.

عرفتُ أن جسدي دَخَلها، لكنّ روحي بقيت خارجًا، تنتظر نتيجة كلّ هذا. انتظرت يوم أدخل ذات يوم بمصادفة إلى هناك لكي أجد فيها آخرين يدورون واحدهم حول الآخر. وسيكون كلّ شيء رقصة باليه متقنة التوليف. لكن لم يكن هذا ما كنتُ أبحث عنه.

عرفتُ أنّني إذا لم أقبل الشروط التي كان يفرضها علي، فسيكون في المرّة المقبلة، الباب موصدًا في وجهي، حتّى ولو تركني أدخل وأخرج على سجيّتي كما في المرّة الأولى.

كان الرجل يقرأ داخل روحي، فَقِه تناقضاتي وشكوكي، وظلّ على ثباته: الكلّ أو لا شيء. قال إنّ عليه أن يستأنف تأمّله، ورجوته أن يُجيبني عن أسئلة ثلاثة على الأقل:

ـ أتقبلني تلميذاً لك؟

ـ لا يسعني سوى أن أقبل قلبك تلميذًا لي، فإن رفضت، لن يعود من جدوى لحياتي. أنا أُظهر حبّي لله بطريقتين: الأولى، في إجلاله، ليل نهار، في عزلة هذه القاعة، لكن هذا لا يُفيده بشيء، ولا يُفيدني حتّى. والثانية، في الإنشاد والرقص وإظهار وجهه للجميع عبر فرحي.

سألتُ للمرّة الثانية: ـ أتقبلني تلميذاً لك؟

ـ كما الطير يعجز عن التحليق بجناح واحد، يكون المعلّم الصوفي نكرة ما لم ينقل تجربته إلى شخص آخر.

سألتُ للمرّة الثالثة والأخيرة: ـ أتقبلني تلميذاً لك؟

ـ إذا اجتزت هذا الباب في الغد كما فعلتَ في اليومين الأخيرين، سأقبلك تلميذاً لي. لكنّني على ثقة بأنّك ستندم.

أترعت كارلا كأسيهما، ورفعت كأسها له.

ـ «انتهت رحلتي هنا»، كرّر قوله ظانًّا أنّها لم تفهم فحوى ما قاله لها. أضاف: ـ ليس لديّ ما أفعله في نيبال.

استعدّ لمواجهة الدموع والغضب واليأس والتلاعب العاطفي وكلّ ردود الفعل المحتملة التي قد تأتي بها امرأة قالت له «أحبّك» أمس.

لكنها اكتفت بالابتسام.

أجابت كارلا بعد أن كانا قد أفرغا كأسيهما، وأترعتهما كارلا ثانية:

ـ لم أخل يومًا أنّني قادرة على أن أحبّ شخصاً بقدر حبّي لك. كان قلبي موصَدًا، لا لأسباب نفسيّة، ولا افتقارًا إلى كيميائيّة وما إلى ذلك. إنّه أمر لن أتمكّن يومًا من تفسيره. لكنّه فجأة، انفتح، ولا يسعني القول متى بالضبط. وسأحبّك حتّى آخر أيّامي. سأحبّك، عندما أبلغ نيبال. سأحبّك، عندما أعود إلى أمستردام، وعندما أُغرم أخيرًا بشخصٍ آخر، سأظلّ على حبّك، وإن اختلف عن حبّي لك اليوم.

والله: لا أدري إن كان موجودًا. لكنّني آمل أن يكون إلى جانبنا، ويُصغيَ إلى كلامي. أطلب إلى الله ألا يسمح لي بعد الآن أن أكتفي برفقتي لنفسي، بالخوف من حاجتي إلى شخص ما، أو من المعاناة. فما من معاناة أشدّ من الشعور بأنّ حجرة رمادية مُظلمة لا يستطيع الوجع دخولها.

أطلب أن يقودني هذا الحبّ الذي يُحكى عنه كثيرًا، الذي يتشارك فيه كثيرون، ويتألّم بسببه كثيرون، إلى ما كنت أجهله، والذي يتجلّى أكثر الآن. وأطلب، كما قال أحد الشعراء يومًا، أن يحملني الله إلى بلاد لا تعرف لا الشمس ولا القمر ولا النجوم ولا الأرض ولا مذاق النبيذ في الفم، بل تعرف الآخر فقط، الذي سألتقيه، لأنّك مهّدت الدرب.

وأطلب أن أسير من دون قدميّ، أن أرى من دون عينيّ، أن أطير من دون جناحين.

اعترى باولو السرور كما الدهشة. كانا كلاهما يتوجّهان إلى بلاد مجهولة طافحة بالأهوال والعجائب. وهنا في اسطنبول، حيث تمكّنا من زيارة كلّ الأماكن السياحيّة التي اقتُرحت عليهما، اختارا أن يرتحلا إلى روحيهما. ولا شيء في العالم ضاهى ذلك، لا شيء كان أكثر عزاءً.

نهض، استدار حول الطاولة، وقبّلها، مُدركًا أنّه يُخالف الأعراف المحلّية، وأنّه قد يُشعر المالكين بالإهانة، غير أنّه قبّلها مع ذلك، بحبّ بلا شهوانيّة، برغبة بلا ذنب، عارفًا أنّها ستكون قبلتهما الأخيرة.

ومع أنّه لم يُرد أن يُفسِد سحر اللحظة، كان عليه أن يطرح السؤال الذي ألحّ عليه:

ـ أتوقّعت ذلك؟ أكنت مستعدّة له؟

اكتفت بالابتسام من دون أن تُجيب. ولن يعرف الإجابة أبدًا، فهذا هو الحبّ الحقيقي: سؤال لا إجابة عنه.

أصرّ على مرافقتها حتّى الباص. كان قد أبلغ السائق أنّه سيمكث هنا ليتعلّم ما احتاجَ إلى تعلّمه. لبرهة، رغب في قول الجملة الشهيرة من فِلم «كازابلانكا»: «سيظلّ لنا باريس». لكنّه عرف أنّها فكرة سخيفة، وكان عليه الإسراع في العودة إلى القاعة الخضراء وإلى المعلّم الذي ليس له اسم.

ادّعى الرّكاب عدم رؤية شيء، ولم يودّعه أحد: باستثناء مايكل، فلم يعرف أحد أنّها كانت محطّته الأخيرة في هذه الرحلة.

عانقته كارلا من دون أن تنبس ببنت شفة، لكنّها تمكّنت من الشعور بحبّه كما لو أنّه تجسّد، نورًا يتعاظم شدّة، كشمس صباح تُنير الجبال أولاً، فالمدن، ثمّ السهول، فالبحر.

أُغلق الباب وانطلق الباص. استطاع أن يسمع أكثر من شخص يتعجّب: «يا أنت، تركت البرازيلي خلفنا!»، غير أنّ الباص كان قد مضى.

ذات يوم، سيلتقي كارلا من جديد، وسيسألها عن باقي رحلتها.

خاتمة

في شباط من العام ٢٠٠٥، وإذ كان حينها كاتبًا ذائع الصيت في العالم أجمع، ذهب باولو إلى أمستردام لحوارٍ مهم شامل. في الصباح، أجرى أحد البرامج التلفزيونيّة الهولنديّة الرئيسيّة مقابلة معه في النُزل القديم الذي بات فيه، والذي تحوّل إلى فندق فاخر، لغير المدخّنين، ذي مطعم صغير ولكن فخم ومحترم.

كانت أخبار كارلا منقطعة تمامًا عنه. وأصبح دليل «أوروبا بخمسة دولارات في اليوم» دليل «أوروبا بثلاثين دولارًا في اليوم». أُقفل «باراديسيو» (فتح أبوابه بعد عدّة سنوات، كقاعة حفلات). كانت ساحة «دام» مقفرة، لم تعدُ كونها ساحة قام في وسطها نصب غامض، لم يعرف الهدف من وجوده فيها يومًا، وفضّل ألا يعرف يومًا.

انتابته الرغبة أن يمشي الشوارع التي جابها ذات يوم، متوجّهًا إلى المطعم الذي يُقدّم الطعام مجّانًا. لكن بما أنّه كان دومًا برفقة أحدهم، منظّم الحوار، فقد أسرّ إلى نفسه أن من الأولى له العودة إلى الفندق لتحضير خطاب المساء.

لامسه أمل ضئيل في أن تحضر كارلا لمقابلته عندما تعرف أنّه في المدينة. تصوّر أنّها لم تمكث طويلاً في نيبال، تمامًا كما تخلّى عن فكرة أن يصبح متصوّفًا، رغم أنّه ظلّ صامدًا زهاء سنة، وتعلّم أمورًا سترافقه حتّى الرمق الأخير.

خلال المؤتمر، روى جزءًا من القصّة المسرودة في هذا الكتاب. وفي لحظة من اللحظات، لم يتمكّن من ردع نفسه وسأل: «كارلا، أنتِ هنا؟».

لم ترفع أيّ امرأة يدها. يُحتمل أنّها جاءت، ويُحتمل أنّها لم تسمع بخبر زيارته المدينة، ويُحتمل أنّها كانت هنا، لكنّها آثرت ألاّ تغوص في الماضي من جديد.

هكذا كان أفضل.

جنيف، ٣ شباط ٢٠١٨

ملاحظات وشكر

أشخاص هذا الكتاب كافة حقيقيّون. وقد غيّرت أسماءهم، ما عدا اثنين، لاستحالة إيجادها (ذلك أنني لم أعرف الأشخاص سوى بأسمائهم الأولى).

رويتُ مشهد سَجْني في «بونتا غروسا» (١٩٦٨) بإضافة تفاصيل من إقامتين أُخريين في السِجن تعرّضتُ لهما في ظلّ الديكتاتوريّة العسكريّة (في أيار ١٩٧٤، عندما كنتُ كاتب أغنيات).

أودّ أن أتقدّم بالشكر إلى ناشري ماتيناس سوزوكي جونيور، ووكيلتي وصديقتي مونيكا أنتونس، وزوجتي، الفنّانة المرئيّة (التي رسمت خطّ السير الكامل للباص السحري). عندما أضع كتابًا، أنغلق على ذاتي ولا أتكلّم مع أحد، ولا أحبّ التحدّث عمّا أكتب. تدّعي كريستينا جهلها ذلك، وأدّعي أنني أصدّق أنها تجهله.

الحلم أمر لا يُمكن التنبّؤ به،
وهو خطير على أولئك الذين
لا يتحلّون بالشجاعة ليحلموا

إذا أردت أن تتعمّق في معرفة نفسك، ابدأ باكتشاف العالم من حولك.

هكذا يعتمد پاولو كويلو، المؤلّف الأكثر مبيعاً، على تجربته الحياتية الغنية، ليعيدنا إلى حقبة من الزمن، هدفه منها إحياء جيل ينشد السلام، ويمتلك الجُرأة على تحدّي النظام الاجتماعي القائم. في هيبّي يتقصّد أن يرويَ قصّة پاولو الشاب البرازيلي النحيل ذي الشعر الطويل المنساب، والذي يرغب أن يصير كاتباً، وينطلق في رحلة بحث عن معنى أعمق لحياته. أقلّه في البدء قطار الموت، الشهير في بوليفيا، إلى البيرو، ليكمل طريقه متطفّلاً إلى تشيلي، فالأرجنتين.

يصل المطاف بپاولو إلى البعيد، حيث يحطّ رحاله في ساحة دام الشهيرة بأمستردام، المكتظة بشبّان يرتدون ملابس نابضة بالحياة، ويحرقون البخور، ويمارسون التأمّل والعزف، وهم يناقشون موضوع التحرّر الجنسي، سعياً إلى توسيع آفاقهم، والبحث عن حقيقة دواخلهم.

هناك يلتقي كارلا الفاتنة الهولندية العشرينية، التي كانت بانتظار رفيق مثالي تمضي معه على الطريق الهيبية الأسطورية، المفضية إلى نيبال. تُقنع پاولو بالانضمام إليها في رحلة على متن الباص السحري المسافر عبر أوروبا وآسيا الوسطى وصولاً إلى كاتماندو. يصحبهم في الرحلة مسافرون رائعون، لدى كل منهم قصة طريفة يرويها. مسافرون سرعان ما يخضعون على طول الطريق، لتحوّلات في شخصيّاتهم، حيث تتغيّر أولويّاتهم وقيَمهم وقناعاتهم.

خلال سفرهما معاً، يستكشف پاولو وكارلا علاقتهما الخاصة، التي تسفر عن قصة حبّ، تعرّف لهما الحياة من جديد، وتوقظ فيهما مشاعر وأحاسيس تؤدّي بهما إلى اتخاذ خيارات وقرارات، هي التي ستحدّد مسار حياتهما المقبلة.

ISBN 978-9953-88-999-3
9 789953 889993

الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت - لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ٠٩٦١١، فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ٠٩٦١١

publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر